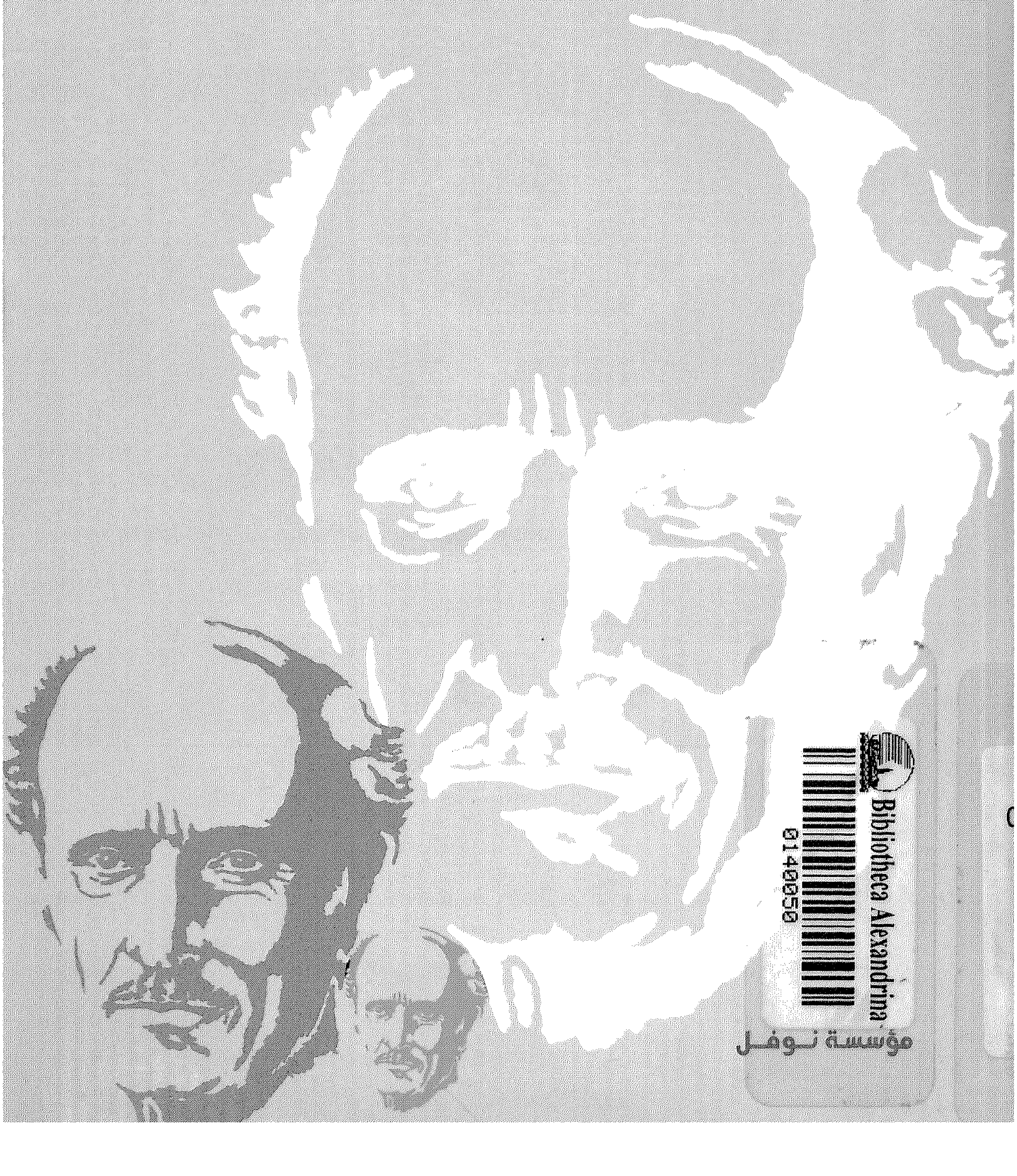
ميخائيل نعيمه

أحاديث مع الصحافة



Bibliotheca Alexandrina
0140050

مؤسسة نوفل

ميخائيل نعيمة

أحاديث مع الصحافة

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بيروت - لبنان

جَميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
١٩٨٩

© مؤسسة نوفل ش.م.م

بناية نوفل، شارع المعماري
تلفون ٢٥٤٨٩٨ - ٢٥٤٣٩٤ ، تلكس ٤٢٢١٠ نوفل
ص. ب. ١١/٤١٦١ ، بيروت ، لبنان

To: www.al-mostafa.com

الى القارىء

كان بيني وبين الصحافة في لبنان وخارج لبنان أكثر من لقاء. وكان من الطبيعي لكلّ من أجرى معي حديثاً أن يمهّد له بكلمة طويلة أو قصيرة عنّي، وعن المكان الذي جرى فيه الحديث. وهذا التمهيد قلّما كان يخلو من الإغراق في التقدير والتمجيد. ولذلك حذفته، وحذفت معه اسم كاتبه. ولم أُبقِ من الحديث إلا على الأسئلة والأجوبة واسم الصحيفة وتاريخها.

وكان من الطبيعيّ كذلك، في مثل هذه المقابلات، أن تتشابه بعض الأسئلة والأجوبة. وهذه قد حذفتُ الكثير منها. وكذلك أهملت بعض المقابلات التي لم أجد فيها كبير خير للقارىء، والمقابلات التي لم تصلني منها نُسَخ.

أمّا قيمة هذه الأحاديث والمسوّغ لنشرها ففي أنها، بمجملها، عفويّة ـ بنت ساعتها. لذلك قد يجد القارىء والدارس فيها جوانب من حياتي وتفكيري لا يجدها في مؤلّفاتي. فهي، من هذا القبيل، بعض من نتاجي، وحرّية بأن تصدر ضمن المجموعة الكاملة لمؤلّفاتي.

وأمّا مقال «فلسطين مملكة يهودية» الذي كتبته منذ ٥٨ عاماً ونسيت تماماً أنّي كتبته، فسيدرك القارىء الغرض من نشره في صدر هذا الكتاب من بعد أن يطالعه.

ميخائيل نعيمه

فلسطين مملكة يهودية

ينهي هنري ملكي هذا العام أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في علم اللغات من جامعة جورج تاون في واشنطن. وهو الآن أستاذ اللغة العربية في جامعة جون هوبكنز.

موضوع الأطروحة يدور حول الصحافة العربية المهجرية في الولايات المتحدة وعلاقتها بالأدب المهجري.

وقد خص ملكي «الملحق» بهذا المقال الذي كتبه ميخائيل نعيمه يوم كان في الولايات المتحدة ونشرته صحيفة «مرآة الغرب» بتاريخ ٢٩ نيسان ١٩١٥ تحت عنوان «فلسطين مملكة يهودية».

وسيضم ملكي الوثيقة النعيميه غير الموجودة في أي كتاب، إلى الأطروحة المذكورة. ويقول إن معظم الصحف المهجرية وعت وعالجت القضية الفلسطينية قبل أن تدري بها الدول العربية بعشرات السنين.

وفي ما يأتي نص المقال الذي نشر في نيويورك قبل ٥٧ عاماً من اليوم وقبل سنتين من وعد بلفور.

«إنّ اعتقاد الأمة الانكليزية بإمكان تأسيس مملكة يهودية مستقلة في

فلسطين تحت حماية إنكليزية يزداد من يوم إلى يوم. هذا ولا شكّ أمر مهمّ للغاية وإذا خرج إلى حيز العمل فسيأتي أبناء أمتنا وإخواننا في الدين ـ لا سيما المضطهدين منهم في روسيا ـ بنفع لا يقدر. . . وكيفما كان الأمر فدخول تركيا في الحرب واقتسام أملاكها الذي لا بدّ أن يأتي عاجلاً أو آجلاً كما نوّهنا في ما سبق لا بد أن يحدث تغييراً يحوياً في حالة الأمة اليهودية في الأرض المقدسة. فليس لنا الآن إلّا أن نصلي ونترجى بأن هذا الانقلاب المنتظر سيضع أساساً جديداً لمستقبل مجيد لنا».

هذه فقرة صغيرة من جريدة «الستاندرد العبرانية» وخذ لك ألف فقرة كهذه الفقرة ظهرت في الصحافة العبرانية وغير العبرانية في جميع أقطار العالم.

في دماغ من ترى نبت هذا الفكر ونما ونضج ثم طار بالبرق من شرق الأرض إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ـ لا أدري ولا يهمني أن أدري. هذه الحرب قد ملأت الأرض أنبياء ومفسري أحلام، لكن نبي استقلال بني إسرائيل وعودتهم إلى أرض أجدادهم قد وجد لنفسه في الحال ألوفاً بل ملايين من التباع بين العبرانيين وغيرهم لأن نبوءاته تحرك في بعضهم شعوراً دينياً وتأتي الآخرين بمنافع سياسية واقتصادية.

بعض العبرانيين ينظرون إلى هذا الأمر من جهة دينية فيسمعون أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال يكلمونهم من وراء حجاب ثلاثة آلاف سنة أو أكثر يبشرونهم «بمسيّا» المنتظر الذي سيقود شعب يهوذا المختار إلى أرض الميعاد ويجدد مجد صهيون. وأنهم يرون في هذه الولايات التي تصبّها السماء على العالم في هذه الأيام يد الله تسطّر على شواطىء الحياة كلمات لا يفهمها سواهم. ومعناها «إلى خيامك يا إسرائيل». وإسرائيل يُعدّ العُدد ويسهل الطرق بكل ما وهبه إلّه إبراهيم واسحق ويعقوب من قوة الدهاء وما أعطاه من موهبة جمع المال ليلبي دعوة أنبيائه. وهو يرى الآن صهيون ترتفع من بين أشلاء

الجنود وخنادق الموت تزينها عظمة الأجيال ويكللها مجد داود وسليمان وتخفرها ملائكة العليّ فيخرّ خاشعاً ويمتلىء قلبه أملاً وسروراً.

هذا ما يراه ويقوله بعض العبرانيين. فماذا يقول المسيحيون؟

من بلاء المسيحيين وسوء حظ المسيحية أنك تجد ألوفاً بين تباع الناصري من الذين ينكرون تعاليمه وينكرونه إذا فصلت انجيله عن أسفار موسى وإذا قلت لهم إنه جاء ليس ليتمم نبوءة ذاك أو حلم هذا بل ليضع خمراً جديداً في وعاء جديد وليريح المتعبين والثقيلي الأحمال. هؤلاء لا يرون في التوراة سوى حرفها الميت. لذاك يجهدون أنفسهم ليطبقوا كل حادثة جرت أو تجري أو سوف تجري على نبوءة ما من نبوءات أشعيا وإخوانه في الفن. ولو سألتهم رأيهم في الحرب الحاضرة لدلّوك على العدد الفلاني من الاصحاح الفلاني من الكتاب الفلاني حيث تجد تفاصيل الحرب كلها بأسماء قوادها وحصونه وعدد جيوشها ومعاركها وأسبابها إلخ. فهل تعجب إذا رأيت هؤلاء القوم قد تمسكوا بكل شرايين قلوبهم وفقرات أدمغتهم بهذا الفكر عن تجديد المملكة الإسرائيلية «ليتم ما قيل عن ذلك في النبي القائل». وفي ذلك ما يسحرهم ويستولي على شعورهم الديني ويبرهن لهم عن عظمة الله الذي يعبدونه.

أما بقية اليهود فبينهم من يقولون «صهيوننا واشنطون». فيفضلون البقاء حيث هم. لكن أكثرهم يرون في نشر المملكة اليهودية حلاً لمشاكلهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن يتصور ما لاقاه وسيلاقيه اليهودي بين بقية شعوب الأرض من الهزء والاحتقار والاضطهاد لا يلومه إذا سعى بكل ما لديه من الوسائط ليعيش في بلاد يكون سلطانها ولا يخجل أن يجاهر فيها بدينه وجنسه دون أن يعرِّض نفسه لمقت القوم أو ازدرائهم.

أما الأمم التي يساكنها اليهودي ـ لا سيما روسيا ـ فتعده بنيل هذه الأمنية تخلّصاً منه لا حباً به لأنه ضيف ثقيل في أرضها وعلى شعبها. وعدا ذلك

فلانكلترا على الأخص غاية سياسية ذكرتها الجرائد غير مرة وهي أن تبقي فلسطين المجاورة لأملاكها الآسيوية والإفريقية تحت سلطتها فعلاً إنما في يد شعب مستقل اسماً لا خوف عليها منه لأنها تعرفه شعباً تجارياً لا حربياً. ومهما عظمت سلطته المالية تبقى قوته الحربية صفراً بالنسبة لقوتها.

هكذا اتفق أقوياء هذا العالم ومديرو دفة سياسة الأرض، وهكذا سمعنا وسمعت جرائدنا. وهكذا... سكتت جرائدنا وسكتنا.

ربما تتم هذه النبوءة بعد الحرب وربما لا تتم. لكن الأمر الذي تم الآن هو أن العالم سيتناقل هذه النبوءة ويستحسنها. والظاهر أنه يسعى لتحقيقها ونحن صمّ لا نسمع وبكم لا نتكلم كأنّ هذا الأمر لا يعنينا على الإطلاق أو كأن فلسطين قطعة من بلاد المغول أو جزيرة من جزائر الفيليبين لا جزء من البلاد التي ننتمي إليها. فلا أهلها أهلنا ولا بيت لنا فيها ولا مرقد عنزة.

أفمن خمول بعد هذا الخمول؟ أمن موت بعد هذا الموت؟

رأت بعض ممالك الأرض أن من صالحها أن تجعل فلسطين مملكة يهودية فاستحسنت رفيقاتها ما رأت كأنّ فلسطين أرض قفراء لا عمار فيها ولا حياة. وكلما يجب لجعلها مملكة مستقلة أن تضع فيها بضعة آلاف من اليهود وتقيم عليهم ملكاً وتقول لهم: «احرثوا هذه الأرض وتنعموا بأثمارها وتكاثروا كرمل البحر». لكن في فلسطين مليوناً من البشر الذين ولدوا وشبّوا فيها ودفنوا أجدادهم وأجداد أجدادهم.

هم يدعونها وطنهم وليس لهم في العالم كله حيث يلقون رؤوسهم سوى في تلك البقعة من أرض الله. فيها رأوا النور وفيها يفارقون الحياة. تحت سمائها يحلمون أحلامهم وفوق تربتها يسيرون بهمومهم وأفراحهم وأشجانهم. أيديهم وأيدي أسلافهم من قبلهم بقرت وتبقر تربتها. عظامهم تغذي نبتها وعرق جباههم يسقي زرعها. فبأي شرع أو دين أو حق يجوز للإنكليزي أو سواه أن يأتي بيهودي إلى ساكن فلسطين ويقول له: «أجداد هذا الرجل كانوا يقطنون في

هذه البلاد من ألفي سنة. وهكذا فالأرض أرضه لأنه ورثها عن أجداده. أما أنت ففتش لك عن أرض غير هذه الأرض فقد تعديت على حقوق هذا الإنسان تعدياً» ـ فهل قطن أجداد الإنكليزي في كندا أو في أوستراليا أو الترنسفال أو مصر أو الهند أو غيرها؟ ومن أوحى له بحق الوراثة في تلك البلدان؟

أليس من الغرابة أن إنكلترا التي تدّعي أنها جرّدت سيفها في هذه الحرب دفاعاً عن الحرية وحقوق الضعيف تقدم الآن فترتكب إثماً كهذا الإثم بأن تبيع مليوناً من الشعب بأموالهم وأرزاقهم عبيداً لقبضة من شعب آخر غريب عنه جنساً وديناً ولساناً لأن ذاك يوافق مراميها السياسية أو لاعتقادها بأن لليهودي حقاً في فلسطين ورثه عن أجداده؟ وهذا في الحقيقة ما يحلّ بنا إذا تمكنت إنكلترا من الجري بهذه الخطة ـ اليهودي سيشتري الأرض من الفلاح الفلسطيني ثم يملك أعنة التجارة والسياسة وهناك يلعب بالفلاح المسكين على هواه. وذلك شر من العبودية. وهل فلاح فلسطين قادر على مباراة اليهودي إن كان في الصناعة أو في الزراعة أو في العلم أو السياسة؟

والله لتلك أكبر جريمة ترتكبها إنكلترا بل العالم كله إذا باعوا فلسطين وسكانها لليهود لمطامح سياسية أو ترهات دينية. وإذا أحبت انكلترا أن تجعل فلسطين مستقلة لغايات دولية فلماذا لا تجعلها كذلك تحت إدارة أهلها ولا خوف عليها من سطوة الفلاح الفلسطيني أكثر مما عليها من عصيان اليهود وتمردهم؟

أقول ذلك ثم أسأل نفسي: «ولماذا نلوم انكلترا إذا شاءت أن تبيع فلسطين وهي للآن لم تسمع كلمة شكوى أو تذمر من الشعب الذي يدعو فلسطين وطنه وبيته؟».

نعم. ولماذا نلوم انكلترا؟
هل من أخ فلسطيني يجيبني على هذا السؤال؟

(ملحق النهار، بيروت ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٢)

امن بالحجر تبرأ

بعث الأستاذ شفيق نصر من بلدته الشويفات برسالة إلى أديبنا الكبير الأستاذ ميخائيل نعيمه يسأله فيها رأيه في ظاهرات الراهب شربل، ومما جاء في تلك الرسالة قوله:

«لا شك بأنك قرأت الجرائد وطالعت «قلب لبنان» وما كتبه فيه أديبنا ومفكرنا الكبير أمين الريحاني عن قديس دير كفيفان وعن القديس شربل بطل الأعاجيب في هذه الأيام.

فإذا كنت قرأت الجرائد والكتاب ـ ومن المؤكد أنك قرأتها ـ فرجائي إليك أن تسرّ لي برأيك في هذا الموضوع لأني أريد أن أكتب إلى الجرائد البرازيلية اللغة بعد أن طلب مني الكتابة في هذا الموضوع».

وقد أجاب الأستاذ نعيمه بالرسالة التالية:

بسكنتا ١٥ نوار ١٩٥٠

عزيزي الأستاذ شفيق نصر

دعني أبسط لك باختصار خلاصة معتقدي في ما يسمونه عجائب وخوارق:

كل ما نتخيله وكل ما نشتاقه مستطاع. ولو لم يكن كذلك لما استطعنا أَن

نتخيله وأن نشتاقه. أما أننا لا نتمكن دائماً من تحقيق كل ما نتخيله ونشتاقه فمردّ ذلك إلى أننا ما نزال نجهل الكثير من القوانين التي تسيّر الطبيعة وتسيّرنا. ففينا تهجع قوى لا نشعر بوجودها إلا إذا أتيح لها منبّه ينبهها من غفلتها. كالنار لا نبصرها في الحطبة إلا إذا طرحنا بها في النار. وكقوة الانجذاب في الحديد لا ندركها إلا إذا أدنينا من الحديد مغنطيساً. وكالكهرباء في الجو لا نلمحها إلا إذا ثار ثائر الطبيعة فاشتعلت السماء بالبروق وارتجت الأرض بالصواعق.

والإيمان تيار كالتيار الكهربائي إذا نحن أحسنّا تنبيهه وتوجيهه جاءنا بالمعجزات. وهو يسري في الجماعات سريان العدوى. ومن هنا كانت أهمية الصلوات الجماعية، وأهمية الدعايات التي تخلق الثورات الدينية والسياسية، ومن هنا كان قولهم: «آمن بالحجر تبرأ». وقولهم: «الفزع يطيّر الوجع». فالخوف والإيمان من هذا القبيل من معدن واحد ويخضعان لنظام واحد. وهو النظام القاضي بصرف فكر الإنسان وقلبه ودمه في لحظة معلومة إلى غاية معلومة والذي عناه المسيح بقوله: «من كان له إيمان قدر حبة خردل ولم يشك في قلبه» إلخ.

والذي أعتقده أن تيّار الإيمان الذي يجترح المعجزات إنما يتنبه في الغالب على أيدي أناس طهرت أفكارهم وقلوبهم وأجسادهم من رجاسات الأرض وشهواتها السّود. أولئك هم القديسون والأولياء والأبرار. ولكنهم لا يجترحون عجيبة بقوة منهم وفيهم بل بقوة كامنة في الشخص الذي تجري العجيبة عليه. فعملهم لا يتعدى عمل المنبّه المؤمن الحاذق، أو عمل التيار ينتقل منهم إلى غيرهم فيعمل عمله لا فوق قوانين الطبيعة بل ضمن تلك القوانين. وليس من شروط القداسة أن تسلم جثة القديس من الفساد. فهنالك أجساد ما بليت وما كان أصحابها بالقديسين. وأجساد بليت وكان أصحابها من الأبرار.

ذلك هو معتقدي.

(جريدة تلغراف بيروت ٢٢ ـ ٥ ـ ١٩٥٠)

على القصة في لبنان أن تتأقلم

ما هي خواطرك أمام القمر؟

منذ ربع قرن قلت في خطبة ألقيتها في بيروت:

«ألا مجدوا معي الإنسان. فهو أعظم من كل أعماله. وهو كالبحر يقذف اللآلىء والأصداف، غير أنه أكبر من كل ما فيه من لآلىء وأصداف. مجّدوه لأنه وإن دبّ على الأرض برجلين من رصاص ويدين من حديد فهو يمنطق الأكوان بخيال من نور». (الأبواق المحطمة في «زاد المعاد») ص ٢٩.

وقلت في «كتاب مرداد» (ص ٢٨٨):

«لقد آن الأوان للناس أن يكفّوا عن ذبح بعضهم بعضاً. فالشمس والقمر والنجوم ما تزال منذ الأزل ترتقب العين التي ستبصرها وتفهمها... ومسالك الفضاء الأقدامَ التي ستسلكها».

وفي «النور والديجور» (ص ١٩٣) قلت في مقال عنوانه «سماء جديدة»:

«وها هوذا (الإنسان) يذلل الأرض فتراً فتراً، ويفضّ أسرارها سراً سراً. ولن يهدأ له بال حتى تسلس له الأرض قيادها. وإذ ذاك يدير وجهه شطر السماء

فلا يرتدّ عنها حتى تصبح منه ويصبح منها، وحتى تفتح له قلبها فينزلها في سويداء قلبه . . .» .

ليس قصدي من هذه الأمثلة أن أدلل بها على بعد نظري. بل أقول إن إطلاق الصواريخ والأقمار في الفضاء لم يدهشني فكأنني كنت أتوقعه. وإني لأتوقع ما هو أعظم منه بكثير. وإن دهشت فلأن الروس كانوا السباقين في هذا المضمار. بارك الله فيهم.

إلا أنني، على قدر ما يعتز فكري بعظمة فكر الإنسان، ينقبض قلبي بانقباض قلبه. فقلبه لا يزال مباءة لشتى المخاوف والأحقاد والمطامع والمآثم التي تفسد عليه انتصاراته في حربه مع الأرض، وستفسد عليه انتصاراته في حربه مع الفضاء. إلا إذا اهتم بترويض قلبه على التسامح والتسامي والمحبة اهتمامه بترويض فكره على الصبر والانضباط والإيمان بمقدرته على هتك الحجب عن كل مجهول.

ما هو مستقبل القصة في لبنان؟

إني من المتفائلين بمستقبل القصة في لبنان. فهي، على حداثة عهدنا بها، تحتل اليوم المقام الأول في إنتاجنا الأدبي. ولأنها غرسة جئنا بها من تربة غير تربتنا فلا بدّ من أن يمضي عليها بعض الوقت قبل أن تتأقلم في بلادنا، فتغدو ذات لون ونكهة وحيوية خاصة بها. أما الآن فلا يصعب على القارىء الفطن، الواسع الاطلاع، أن يردّ أي قصة يكتبها لبناني إلى المصدر الذي جاءت منه في الغرب. وذلك المصدر قد يكون إفرنسياً ـ أو إنكليزياً ـ أميركياً، ـ أو ألمانياً ـ أو روسياً إلخ. أوليست هذه هي حال الشعر الحديث عندنا كذلك؟

ولن تكون لنا قصة مطبوعة بطابعنا الخاص حتى يكون لنا قصاصون يعتبرون أنفسهم في مستوى واحد مع معلميهم في الغرب، أو أرفع منهم. وليس نجيباً ذلك التلميذ الذي لا يطمح إلى التفوق يوماً ما على معلمه.

(تلغراف ـ بيروت)

حياتي القلبية واشاعة زواجي

قراؤك الذين يعرفون الكثير عن حياتك الفكرية، يودون أن يتعرفوا أيضاً إلى حياتك القلبية، قبل أن تضيع الحقيقة في الاشاعات.

قال: إذا كان أي قارىء من قرائي يتصور أنني اجتزت عهد الشباب والكهولة، من غير أن أحب وأحب (الأولى بكسر الحاء والثانية بفتحها) فهم على ضلال مبين. أما أن حياتي القلبية لا تبدو بارزة في مؤلفاتي، فذلك لأني لا أرى كبير خير للقراء في نشرها. وقد طغت عليها حياتي الفكرية، والفكر هو الطريق، الذي يؤدي إلى ما أتوق إليه من معرفة، والذي يشوقني أن أدل غيري عليه. لذلك غلب الفكر في كتابي على العاطفة، وأقول مع ذلك: إن من قرأ «همس الجفون» ـ وهي مجموعتي الشعرية ـ لا بد من أن يهتدي إلى أماكن، أحدث فيها عن بعض اختباراتي العاطفية. مثال ذلك: قصيدة «آفاق القلب» ص ٥٥، و«يا رفيقي» ص ٧٥، و«فتش لقلبك عن رفيق» ص ٩٤، و«إلى م. د. ب» ص ١٠٢، و«صرفت حبيبتي عني» ص ١١٦، و«ليعبروا» ص ١٣٤، و«افيقي» ص ١٣٦، و«يا عقل» ص ١٤٠، و«يا وحدتي» ص ١٤٢، و«الجوع» ص ١٤٤، وغيرها . . .

ماذا تعد اليوم لقرائك؟

قال: المشاريع الكتابية، التي في رأسي، ولم تنضج بعد لا أحب أن أتحدث عنها أبداً.

أما ما أكتبه في هذه الأيام، فأشياء متقطعة: من إذاعات وقصص، للصحف الشهرية منها «الهلال» و «المصور»، وفي الوقت ذاته، اهتم بترجمة كتاباتي العربية إلى الانكليزية. وقد صدر من هذه الترجمات حتى الآن، في الانكليزية «حياة جبران»، وكتاب «الأرقش». ولديّ الآن ترجمات لبعض مقالاتي العربية، وكذلك مجموعة من القصص ما تزال في دور التحضير.

وهنا استوضحته عن المواقف التي يندد بها في حياة جبران القلبية والجسدية في كتابه «جبران خليل جبران» بشكل يفهم منها أنه على نقيضه تماماً.

فأجاب: في حياة جبران نواح متعددة، أكثر مما في حياة الإنسان العادي، فهو لم يكن شاعراً، ورساماً فحسب، بل حاول أن يكون هادياً إلى الحياة الفضلى، وإلى طريق الكمال. لذلك عندما كتبت سيرته، كان لا بد لي من أن أبين إلى أي حد وفق جبران، وإلى أي حد أخفق. فهو كان يعرف، مثلما يعرف كل باحث عن الحقيقة، أنها لا تدرك بالخيال فقط. وأن الحياة الفاضلة يجب أن تتنزه عن الشهوات، والأفكار البعيدة عن الفضيلة. فإذا أنا ذكرت بعض الظلال في حياة جبران، فلكي أبين اخلاصه في صراعه مع نفسه، ليتخلص من تلك الظلال. وما خطر في بالي قط أن أدينه بأشياء أنا أحق بأن أُدان بها.

هل لك أن تعطيني خلاصة عن فلسفتك تساعد القارىء على تكوين فكرة واضحة عنها؟

لقد أنفقت حتى اليوم أكثر من عشرين سنة من حياتي وأنا أشرح للناس الخطوات التي خطوتها قبل أن أصل إلى الفكرة التي تسيطر الآن على كل ما

أكتب. فمن الصعب جداً أن أوجزها لك في كلمات معدودة، إلا أنني سأحاول.

وأطرق قليلاً، ثم قال:

في الكون قوة شاملة منظمة ومنظمة (الأولى بكسر الظاء والثانية بفتحها). ولست أجد للتعبير عنها، كلمة أفضل من كلمة الله. إلا أنني أخشى عند استعمالي لهذه الكلمة، أن يفهمها الناس، على نحو ما تعودوا فهمها في معابدهم وفي كتبهم الدينية. فالله عندي ليس شخصاً؛ إنه قوة ونظام. وكل ما في الكون يعبر عنه تعبيراً صادقاً، لو كانت لنا القدرة أن نسمع وأن نعي كل ما فينا وما حوالينا. والإنسان في نظري هو الصورة الأسمى لتلك القوة على الأرض، وهو يملك مثلها القدرة على الإبداع والتنظيم. إلا أنه لا يزال بالنسبة إلى تلك القوة كالطفل بالنسبة إلى والديه فهو يتفتح جيلاً بعد جيل عن قوى كامنة فيه، ولا حد لها على الإطلاق. وهذه القوى يستحيل أن تتفتح في عمر واحد. لذلك أعتقد اعتقاداً راسخاً أن حياة الإنسان هي كل الزمان، لا فترة قصيرة تمتد بين المهد واللحد. وذلك يعني أن الإنسان يموت، ثم يعود فيولد من جديد ليتابع ما انقطع بالموت من حياته الواعية على الأرض. أما نهايته فالكمال. والكمال في نظري يعني: معرفة كل شيء، والقدرة على كل شيء.

ما هو واقع الأدب المهجري اليوم في نظرك؟

قال: الأدب المهجري بلغ ذروته في «الرابطة القلمية» في نيويورك، ومن بعدها في «العصبة الأندلسية» في البرازيل. أما أن الموت قد فك عرى «الرابطة القلمية»، والحياة التجارية قد قضت أو تكاد على «العصبة الأندلسية» فليس هنالك من مجال للتحدث عن واقع الأدب المهجري في الوقت الحاضر. وعندي أن الأدب المهجري قد أدى رسالته.

من تتوسم فيه خيراً في أدباء العربية الحاليين من شعراء وناثرين؟

هذا سؤال لا أجيب عنه مخافة من أن أظلم بعض من أعرفهم ومن لا أعرفهم.

ثم سألته عن صحة الإشاعة التي نقلتها «المجالس» لقرائها في عدد سابق لها. والتي تقول بأنه لقي نصفه الآخر وسيطلق حياة العزوبة؟

ابـتـسـم، وقـال:

إشاعة سمعتها من الذين قرأوها في «المجالس»، فضحكت.. وألح عليّ البعض أن أكذبها فضحكت أكثر وأكثر. لأن من يعرفني يعرف أنني نبذت فكرة الزواج من رأسي منذ ربع قرن أو أكثر. ولكم يسألني الناس: لماذا؟ وهل أن الزواج في رأيي أمر يجب نبذه؟ وجوابي دائماً لهؤلاء السائلين، وأكثرهم من الشبان: إن الزواج ضروري لمن يحس تلك الضرورة، وليس له من مشاغل فكرية، وأهداف روحية، ما يعوضه عن التحرّق وعما قد يكون في الزواج من نعمة وراحة. أما الذين لهم من تفكيرهم مثل الاتجاه الذي لي فلهم أقول: إن لذة الصراع والكفاح للوصول إلى الحرية القصوى، والمعرفة الكاملة، لأعظم بكثير من لذة الزواج.

وآخر ما سألت مفكرنا الكبير عن رأيه في رئاسة جمعية أهل القلم. إذ إن هناك شبه إجماع على ترشيحه وحده لرئاسة الجمعية بدون منافس حتى تتوحد جبهة الأدباء في لبنان

فأجاب باسترسال، قائلاً:

عندما كانت جمعية أهل القلم ما تزال في طور التكوين استشارني أصحاب الفكرة في أمرها، وأذكر منهم الأستاذين ميشال أسمر وسعيد عقل. ولقد راقني المشروع جداً كما عرضاه عليّ. إلا أنني خشيت أمراً واحداً، وهو أن يتعذر على القائمين بالمشروع أن يضعوا حداً فاصلاً بين من يليق بالعضوية في جمعية من هذا النوع ومن لا يليق. فحاملو الأقلام كثرة وإن أنت أخذتهم

عن بكرة أبيهم أوجدت بلبلة بدون شك. وإن غربلتهم أوجدت بلبلة أعظم، فلا تعرف إذ ذاك عدد الساخطين وعدد الراضين. وجمعية من هذا النوع لا بد من تجانس بين أعضائها من حيث الميل، والذوق، والمستوى، كي يكتب لها النجاح. وإلا فمصيرها الإنحلال.

ويؤلمني أن شيئاً من هذه الخشية قد تحقق إلى حد ما. بدليل ما شاع من بلبلة في صفوف أهل القلم وخصوصاً في توزيع الجوائز، فقد طلب إليّ غير مرة أن أكون محكماً فرفضت. لأني شعرت أن هنالك مجاري لا تتجانس وميولي وترفّعي عن الحزبية من أي نوع كانت. وخشيت أن لا تترفع الجمعية أو محكموها عن الاعتبارات الاقليمية، والسياسية، والطائفية التي هي داؤنا الألد والأكبر.

لهذه الاعتبارات رفضت أن أرئس الجمعية بعد تأسيسها، على الرغم من إلحاح مؤسسيها عليّ في قبول الرئاسة.

وختم حديثه قائلاً:

ومع كبير عطفي على أهل القلم، وشوقي لأن أراهم متحدين، متكاتفين، لست أرى في الظروف الحاضرة، ما يجعلني أن أغير رأيي بشأن الرئاسة.

رجاء

وهنا. . شكرت أستاذنا الكبير على تلطفه للادلاء بهذا الحديث الشيق، الذي سيجد فيه القراء متعة للنفس وفائدة. . وقبل أن ننصرف من عنده تفرجنا على مكتبته، العامرة بنفيس الكتب، العربية والأجنبية. . .

. . . فإذا كان لنا من رجاء: فهو أن يمد الله في عمره، ليظل يمد الإنسانية بأدبه الفذ جمالاً وغنى. . .

(مجلة المجالس، بيروت - ٥ - ٨ - ١٩٥٥)

مذهبي في الحياة

إن حياتك هذه الهادئة الرتيبة في هذا المكان الهادىء الجميل، البعيد عن زحمة الحياة وضوضائها، لتثير العجب والإعجاب في نفوس عارفيك وعاشقي أدبك وفلسفتك. كما أنها تثير في نفوسهم تساؤلاً دائماً عن فلسفتك ومذهبك في الحياة. . . فهل تحدثنا عن مذهبك هذا؟

وصمت ميخائيل نعيمه قليلاً واعتمد رأسه بكفه وراح يجيب بقوله:

«مذهبي في الحياة صعب إيجازه في كلمات محدودة. . . اعتقادي أنه قبل أن نجد حياة سياسية فضلى أو اجتماعية أو اقتصادية مثلى، علينا أن نفهم هدفنا من وجودنا، هذا الهدف لن نجده في السياسة ولن نجده في الإقتصاد ولن نجده في العلم بكل متفرعاته: ولكننا نستطيع أن نجده في نفوسنا إذا ما عرفنا كيف نخلد إليها ونتفقد خباياها. . .

وأنا من بعد أن بلوت العالم في شتى مظاهره واتجاهاته، عدت إلى نفسي فوجدت فيها دليلاً إلى الهدف الذي أسعى إليه. وقد كان دليلي تلك الأشواق التي أحسها بغير انقطاع، ويحسها غيري كذلك، إلى المعرفة التي لا يخفاها شيء، والقدرة التي تتغلب على كل شيء. وبكلمة أخرى: إلى انعتاقي من كل القيود حتى من الموت. . . هذه الأشواق ليست عندي مجرد أشواق، بل هي

الدليل على بذور قوى دفينة في نفسي، وكل ما تحتاج إليه لتظهر على أتمها هو التربة الصالحة من الزمان والمكان. ففي كل يوم أحياه تدفعني القوى إلى مراحل أبعد فأبعد. ولأنها لا تبلغ كمالها عند الموت فقد بات لزاماً علينا أن نعتقد بأنها تتابع نموها بعد الموت، فالموت إذ ذاك مرحلة في نمو هذه القوى مثلما النوم مرحلة في نمو القوى التي تدفعنا إلى العمل من يوم إلى يوم، فالعمر عندي هو عبارة بين مرحلة ندعوها الولادة ومرحلة ندعوها الموت ولكنه ليس بداية ولا نهاية. وعلام لا يكون الزمان كله عمراً للإنسان ما دام أنه يشتاق أموراً يستحيل عليه تحقيقها في خلال عمر واحد. . . هكذا يبدو لي أن الإنسان يحمل في نفسه بذور التفتح اللانهائي، وعلى مدى الزمان، وسيبقى يتفتح إلى أن يصبح خارج الزمان والمكان. . أي إلى أن يحقق كل ما فيه من قوى إلّهية. وكلمة الكمال لا تفي لوصف الحالة التي سيتوصل إليها الإنسان يوماً عندما يتملص من قبضة الخير والشر وجميع المتناقضات ويتحد بذاته الكبرى التي هي ذات الله». . .

وهنا سألناه:

هل لحياتكم التي تحيونها اليوم، بعيدين عن العالم، صلة بهذا المذهب، وإلى أي حد هذه الصلة؟

وسارع نعيمه إلى الرد فقال:

«دعني أعترض في البداية على قولك بأني أحيا بعيداً عن العالم فأنا في العالم ومنه، وفي اتصال دائم بكل ما فيه ومن فيه. . . وحسبي اتصالاً بالعالم أن لي قراء في كل أنحاء المعمور، وأني أعيش كما يعيش باقي الناس فآكل وأشرب وأكتسي من تعب الناس وهذا وحده يجعلني أحس صلتي الوثيقة به، فكيف يصح أن تظن أو يظن الغير أني أعيش في عزلة عنه؟. . على العكس إذا ما ابتعدت عما أدعوه رغوة في حياة الناس فلأتمكن من الوصول إلى ما فيهم من صريح. والذي أدعوه رغوة هو تحزباتهم السياسية وتعصباتهم الدينية ورياؤهم

وجريهم وراء الملذات الجسدية وما إليها، والذي أدعوه الصريح منهم هو ما أعطتهم الحياة من قوى لتفهمها وتفهم النواميس التي تسير عليها. فالانغماس في الرغوة يعميك عن الصريح. وأنا إذا ما آثرت العيش بعيداً عن المدن في أحضان الطبيعة الهادئة فلأني أجد في هذه الطبيعة وفي الابتعاد عن رغوة الناس ما يساعدني على التوصل إلى ما فيهم من صريح».

وبدا لنا أن نكتفي بهذه الاجابة عن فلسفة ميخائيل نعيمه ومذهبه، وأن ننقل الحديث إلى ميدان الأدب. . . فسألناه:

في أدبنا العربي اليوم رغوة وصريح، كما في عوالم السياسة والاجتماع والاقتصاد، فهل نطمع منكم في أن تبينوا للشباب الرغوة من الصريح في هذا الأدب؟

وصادف السؤال هوى من نفس الكاتب الكبير فأجاب:

«قلت من زمان إنّ عمل الأدب الأول والأخير هو الإنسان، وأعني درس ما فيه من مواهب لا تُحصى ولا تُقدر، وهذه المواهب في نظري هي التي تجعل لحياته معنى وقيمة، لأنها تؤهله لأن يرتفع على المدى البعيد فوق كل ما يعانيه اليوم من ضيق في معيشته وفي تفكيره وفي مسالكه، فالدافع الأول هو حب البقاء. . . ولكن الإنسان لا يريده بقاءً مقيداً، بل يريده بقاءً طلقاً من جميع القيود، وبكلمة أخرى إن الإنسان يريد أن يحيا حياة لا يمسها ولا يقيدها قيد. . . فالأدب الذي ليس رغوة في الأدب الذي يكشف للإنسان ما فيه من مقدرة للوصول إلى غايته والذي لا يقف به عند حد قريب وقصير، كأن يلهيه عن غايته القصوى بغايات زمنية تنحصر في شكل حكم أو تبديل حكام، أو في شبع بطنه دون قلبه وفكره، أو في اقتناص الملذات التي ما تلبث أن تنقلب أوجاعاً، أو في الانغماس بكل ما هو معرّض للزوال وللتبدل والتحور. أريد من الأديب أن يبني الإنسان بناءً لا تزعزعه عواصف الساعة والزلازل التي تنتاب مظاهر حياته من يوم إلى آخر. أريده أن يعطي الإنسان إيماناً بأنه معدّ لتاج الألوهة. أريده أن

يجعل الإنسان يحس وحدته مع كل إخوانه في الناسوت، ومع سائر الكـائنات، فهو في الواقع مرتبط بها ارتباطاً لا انفصام فيه. فإن هو أحب ذاته كان عليه أن يحب الناس وجميع الكائنات، أي أن يخلص من ذاته الضيقة ليهتدي إلى ذاته التي لا حدود لها. ومتى اتجه الأدب مثل هذا الاتجاه كان لا فرق عندي بين مذهب ومذهب ما دامت جميع المذاهب تتجه إلى نقطة واحدة نظير ما تتجه جميع السواقي والأنهار إلى البحر... أما الأدب الذي لا يرمي إلى أبعد من رصف الكلام الجميل والإيقاع الموسيقي وإثارة الغرائز البشرية وتسلية الأفكار الضجرة فهو في نظري رغوة وإن بدا في حلة من الجمال والإغراء»...

وكان طبيعياً أن ننتقل إلى السؤال التالي:

في الفترة التي يجتازها أدبنا العربي اليوم... أترون أن الترجمة والنقل خير لنا، أم ترون أن الابداع والخلق خير وأفضل؟

وأجاب الأستاذ ميخائيل نعيمه برأيه في هذا الشأن فقال:

«الخلق والإبداع خير من النقل والترجمة ما في ذلك شك. وإنه لأجدى لنا أن يترجم الآخرون عنا بدلاً من أن نترجم عنهم... إلا أننا ما زلنا نفتقر إلى ما يبدعه الغير، وقد بات لزاماً علينا أن نترجم ما يبدعونه. وإني لأرجو للأدب العربي أن يبلغ عما قريب مرحلة من الإبداع تسترعي انتباه الغير فيهتمون بها وينقلونها إلى لغاتهم، ويقيني أنه حالما يتغلب الأديب العربي على المشاكل الموقوتة التي تزحمه في بيئته الحالية سينصرف إلى معالجة المشاكل الأوسع منها، وأعني المشاكل العالمية وعلى رأسها أو في مقدمتها مشكلة الإنسان. وإذ ذاك يصبح لنا أدب عالمي يستسيغه الصيني مثلما يستسيغه الأوسترالي والبرازيلي... فأدبنا في الوقت الحاضر أدب محلي في مجمله، ولن يصبح عالمياً حتى يصبح تفكيرنا عالمياً»...

وما دام محدثنا يرى هذا الرأي. فقد رأينا أن نسأله السؤال الآتي:

في مصر اليوم، كما في لبنان وسوريا، نهضة ملحوظة في النقل والترجمة وفي الانتاج والخلق. . . ما رأيكم في هذه النهضة؟

وراح الأستاذ ميخائيل يضع كتباً حديثة الإخراج كانت أمامنا على المنضدة، يضعها فوق بعض ويرنو إليها بنظرات طيّبة ثم قال:

«إن هذه النهضة تحمل الكثير من تباشير الخير، فهنالك اتجاه قوي نحو القصة، والقصة تكاد تكتسح ميادين الأدب في كل مكان. . . فهي أكثر الأساليب الأدبية انتشاراً وأبعدها أثراً في القارىء، ونحن حديثو العهد بها. إلا أننا على حداثتنا قد قطعنا شوطاً بعيداً. . . ومع هذه الطفرة في القصة نشهد طفرة أخرى في الشعر. فلا حصر اليوم للمذاهب الشعرية الجديدة التي اجتاحت قرائح شعرائنا، وهنالك من بلغوا درجة الإبداع العالي. . . في حين أن الكثير لا يغريه من هذه الطفرة إلا دروب من التجديد، إن في الأوزان وإن في الإيقاع وإن في التلوين. . . حتى لنكاد نضيع فيما يخلقونه حول هذه المذاهب من نظريات وفلسفات. وعلى الاجمال فالقافلة تمشي وأملي في مستقبل الأدب العربي كبير. والزمان كفيل بغربلة هذه النهضة والابقاء على الصالح منها ونبذ كل ما هو غير خليق بالبقاء. فليس علينا أن نضيق صدورنا بهزيلها أو أن نسكر بما يبدو منها كما لو كان خموراً معتقة». . .

فقلنا له:

حديثكم هذا كأنه انتقال إلى النقد. . . وهذه فرصة سانحة لنسألكم عن رأيكم في النقد الأدبي المعاصر؟

وبدت على وجه محدثنا آيات الرضا وهو يرد بقوله:

«بدأت حياتي الأدبية ناقداً، ثم طلّقت النقد بمعناه المألوف عندما أدركت أن الحياة أقدر مني بما لا يقاس في توجيه الناس وحياتهم، ففي اعتقادي أنه لو تجمهر كل من في الأرض من نقاد لما استطاعوا أن يبدّلوا شيئاً في توجيه حياة

عبقري كشكسبير أو غوتيه أو تولستوي. وإذا جاز أن أتكلم عن نفسي فما أظن أن في استطاعة أي ناقد أن يغير في النهج الذي اخترته لنفسي. فنحن لا نكتب بإيحاء من الغير بل بسلطان من قوى تتحكم فينا. ومنها مزاجنا وذوقنا ونوع تفكيرنا ومشاعرنا الخاصة والحياة التي نحياها. ومن ثم فقد رأيت صدر الأرض يتسع لكل أنواع الحيوان والنبات، فالشوكة تنمو جنباً إلى جنب مع البنفسجة والجعل يدب حيث يجري الغزال، فعلام لا تتسع صدورنا حتى للكويتبين والشويعرين إلى جانب العباقرة الخلاقين: أليس أن كل الناس يؤلّفون المجموعة البشرية، وكل نبتة تشكل لوناً أو عضواً في الجسد الأكبر الذي هو عالم النبات بكامله؟..

هنالك نقد يقصد منه التشفي وهو في أسفل دركات النقد. وهنالك نقد يرمي إلى تفريج كربة الناقد من شيء يغاير ذوقه ولا يوائم مزاجه وتفكيره وهو ضرب من ضيق الصدر والنفس. وهنالك نقد يرمي إلى إظهار الناقد في مرتبة أعلى من مرتبة المنقود كأنه يقول له: إنني أغرز منك معرفةً وأشد بأساً... فأنا أعرف من القاموس أكثر مما تعرف وأتقن من الصرف والنحو أكثر مما تتقن. ولعل أسخف النقد في نظري هو الذي يتعرض إلى اللغة دون الفكر. وأما النقد الذي يبسط وجهة نظر والذي يحدد هدفاً والذي يرمي إلى تمزيق الغشاوات عن عيني المنقود لا تحقيراً له، بل حباً فيه فنقد مستحب في كل حين... وهذا قلما تراه عند الناقدين»..

ورأيت أن أنقل الحديث إلى وجهة أخرى تكون أقرب إلى تصميم نفس الكاتب، وهل أقرب من الشباب وذكرياته... فسألته:

أمضيتم زهرة الشباب، بل زهرة العمر هنالك في المهجر بعيدين عن وطن الحدود لبنان الأشم... فهلا حدثتمونا عن بعض الذكريات والجهود الأدبية؟

وصمت نعيمهخ قليلاً ولمعت عيناه كأنما يستعرض هذا الماضي...

ليجيب بقوله:

«ذهبت إلى أمريكا (الولايات المتحدة) لا كما ذهب من قبلي المهاجرون حباً في الكسب وتحسين أسباب المعيشة، بل ذهبت لأكمل دروسي الجامعية فيها، وكان في خاطري أن أعود إلى لبنان حالما أنال شهادتي... إلا أنني انتهيت من دروسي عام ١٩١٦ عندما كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها والمواصلات بين أمريكا ولبنان مقطوعة بسبب دخول الدولة العثمانية في الحرب، فاضطررت إلى البقاء هناك والتفكير في وسيلة للارتزاق فجئت نيويورك من الولايات الغربية ولا رأسمال لديّ إلا علمي، وحاولت أن أتعيش من الصحافة فوجدت أبوابها أضيق من أن تكفل لي أسباب العيش. لذلك التحقت ببعض المؤسسات التجارية وبقيت في الوقت ذاته منكباً على الأدب أنشر من حين إلى حين مقالات نقدية وقصائد وقصصاً في الصحف المهجرية، وكان أول مقال نشرته لي مجلة الفنون نقداً لرواية جبران خليل جبران «الأجنحة المتكسرة»... وكانت أول قصيدة هي قصيدة «النهر المتجمد» التي مطلعها:

يا نهر هل نضبت مياهك   فانقطعت عن الخرير
أم هل هرمت وخار عزمك   فانثنيت عن المسير

وكانت أول قصة هي قصة «العاقر» نشرتها أيضاً مجلة الفنون. وعندما انتهت الحرب، وقد اضطررت إلى خوضها مع الجيش الأمريكي في فرنسا، عدت إلى نيويورك... وهناك برفقة جبران ألفنا «الرابطة القلمية» التي كان لها شأن كبير في النهضة الأدبية الحديثة. وبعد وفاة جبران بسنة عدت إلى لبنان عام ١٩٣٢ حيث لا أزال أقيم في مسقط رأسي بسكنتا بسفح جبل صنين، وقد آثرت العودة لأني مللت الحياة في الولايات المتحدة، إذ لم يكن لي مطمح في جمع ثروة، والثروة هي مطمح الأغلبية الساحقة هناك. لقد كانت السنوات العشرون التي صرفتها في أمريكا غنية بشتى الاختبارات، ولكنها ما كانت تفسح لي المجال للخلوات التي أنشدها مع نفسي ومع ربي... لذلك آثرت العودة

إلى هذه الجبال الهادئة حيث يبدو لي وجه الله سافراً، وحيث أستطيع أن أستحم في ضياء هـذه السكينة وأن أبصر طريقي واضح المعالم فأنصرف إلى تأدية الرسالة المطلوبة مني على أكمل وجه». . .

وهزني حديث ميخائيل النقي عن الوطن والصفاء الروحي، فذكرت بلادي وتراءى لي النيل الحبيب. . . فأردت أن أنقل هذا الحديث الجميل إلى بلادي، فسألت ميخائيل نعيمه:

إن مصر الخالدة ذات النيل الخالد لتبارك أدبكم وجهودكم، وإن دباءها ليقدرون لكم أدبكم ويجعلونه في المكانة الكريمة اللائقة به. . . فهلا فكرتم أو هزكم الشوق إلى هذه البلاد التي زار معظم أدبائها بلادكم وتعرفوا على أدبائها ومعالمها، وعادوا منها يحملون لها ولأبنائها أجمل الذكريات؟

وكأنما كان محدثي يترقب هذا السؤال، فبدا سروره واضحاً وراحة نفسه جلية وهو يجيب عليه فقال:

«إن زيارة مصر لهي أمنية من أمنياتي. فمصر الغنية بماضيها وحاضرها لجديرة بأن يتعرف إليها كل أديب، فكيف بالأديب العربي على الأخص. . . إلا أنني لست ممن يسوقون الزمان بالسوط أو بالمنخز فلكل شيء أوانه، وما من ثمرة تنضج قبل أوانها. فإن كان لي أن أزور وادي النيل فتلك الزيارة ستيسَّر لي في وقت قد يكون أقرب بكثير مما يبدو لي الآن. إن لي في مصر أصدقاء ومحبين، وأنا أود من كل قلبي أن يتاح لي التحدث إليهم وجهاً لوجه بدلاً من أن أحدثهم أو يحدثوني بوساطة الحبر والقرطاس». . .

ولم تشفني هذه الاجابة، فقلت له على الفور:

أكاد ألمح منكم تعلقاً كبيراً بهذا السفح الجميل في هذا العش الهادىء المحاط بأشجار التفاح والكرز والكمثري، والذي يحتضنه جبل صنين الشاهق بحنان ويرويه بمياه نبعه الحلوة السائغة. . . فهل في ذلك ما يمنعكم عن

الابتعاد عنه حتى لزيارة بلد تحبونه كمصر؟

وأدرك محدثنا الفيلسوف ما بنفسي وراح يرد على السؤال المعاد في مودة مؤكدة وهدوء حبيب. . . فقال:

«ما اخترت هذا العش ولعله اختارني. فلا شك أن بيني وبينه روابط سحيقة لا يستوعبها فكري، إلا أن حبي له لا يقوم حاجزاً بيني وبين غيره من بقاع الأرض، فباستطاعتي أن أحمله معي أينما ذهبت. ولست أظن أن زيارة قصيرة إلى مصر تجعلني أشعر كما لو كنت تغربت، فمصر بلدي كما هو لبنان. على أنني أعتقد ـ كما قلت ـ أنه متى حان لي أن أطأ أرض النيل فلن يقوم في وجهي أي عائق. . . وأرجو أن يحين ذلك الحين قبل أن يفقد الجسد نشاطه. أما الفكر فنشيط أبداً. وأنا على اتصال دائم بمصر وأهل مصر حتى وإن التصقت بما أسميته هذا العش الهادىء».

وكان الوقت قد تقدم بنا في هذه الجلسة الهادئة الممتعة والنهار أوشك أن ينقضي معظمه. . . وخشيت على الأستاذ الفيلسوف أن يتطرق إليه الملل أو التعب. فطويت الورق ورحنا نجوب أحاديث روحية وإنسانية وعاطفية أخرى كما رحنا ننتقل بين أنحاء هذا العش الهادىء، فوقفنا أمام المكتبة وما بها من كتب. . . ورأينا مكتب الفيلسوف وما عليه من رسائل ومخطوطات وصور. . . وألقينا نظرة على مخدعه وتفيأنا ظلال حديقته، إلى أن حان لنا أن ننهي هذه الزيارة لعش الهدوء والفلسفة والحكمة في بسكنتا. . هذه الزيارة التي تركت في النفس آثاراً لن تمحى في راحة النفس والقلب والعقل.

(مجلة الرسالة الجديدة، مصر، تشرين الأول ١٩٥٥)

أنا والوحدة

ما هو أثر الوحدة في نفسك وأنت في بسكنتا؟

كنت أميل إلى الوحدة حتى في صغري. وهذا الميل ينمو ويترسخ.. والوحدة عندي ليست هرباً من الضوضاء والصخب والزبد فهذه كلها لا تترك مجالاً للفكر والخيال ليسبحا بعيداً، ولا للإنسان ليتعرف إلى نفسه. وأنا شديد الولع باكتشاف مجاهل نفسي قبل أن أكتشف مجاهل الأرض والسماء. وأما الناس فإني أحبهم على علاّتهم محبة تزداد عمقاً وصفاءً كلما تقدمت في السن. وليس يؤلمني أن أراهم يتعثرون فذلك من شأن كل متدرج في مدرسة الحياة التي لا تُعرف لها بداية أو نهاية..

وهل تحسّ بانزعاج عندما تضطر للنزول إلى بيروت؟ وأي آفاق الأدب عندك أوسع في المدن أم في القرى النائية؟

يزعجني في بيروت هذه الفوضى الدائمة في السير وفي الحياة التجارية والمدنية والسياسية، وما يرافق ذلك من ضجيج وهواء فاسد، وروائح كريهة في بعض الأماكن.. على قدر ما تزعجني هذه الأمور يسرني أن ألتقي بعض الأصحاب والأدباء وأن أتنسم أخبارهم واتجاهاتهم..

ولست أشك في أن وجودي في المدينة ولو لفترات قصيرة يهيّىء لي

مواضيع كثيرة للكتابة.. ولكنني لا أستجليها بكل معانيها إلا في عزلتي في أعالي الجبل..

ماذا يستفيد المجتمع من الفلسفة الصوفية؟

ليست الفلسفة وقفاً على الفلاسفة.. فكل إنسان فيلسوف ما دام يفكر ثم يختار لحياته نهجاً معلوماً.. ولكن بعض الناس يتعمقون في التفكير إلى أبعد من مظاهر الحياة، فيبلغون نقطة توحي إليهم بأن وراء الظواهر بواطن، وأن الظواهر هي القشور والبواطن هي اللباب.. ولا عجب إذ ذاك أن يصرفوا همّهم إلى اللباب غير ناسين أن يعطوا القشور الأهمية التي تستحق.. وإذا أغرق أحدهم في السعي وراء اللباب قيل إنه متصوف وبعيد عن «الواقع»، وذلك عين الخطأ.. فما ندعوه واقعاً، ليس أحداً بالنسبة لجميع الناس. الروح عندي ـ ولست أجد كلمة أخرى أعبّر بها عن لباب الحياة ـ هو الواقع الأزلي الأبدي.. أما الأزياء التي تتزيّا بها الحياة من حين إلى حين فكالفصول تتقلب من يوم إلى يوم ومن ساعة إلى ساعة، ؛ فلا ثبات لها. وأنا إذ أذكر الكلام عن واقعي هذا، فلست أخدع نفسي بأنني سأجعل واقعي واقع جميع الناس.. ولولا شعوري بأن لي من قرائي جماعة مباركة تتأثر بما أقول لحطمت قلمي ولذت بالصمت!

أما زلت تهوى الأدب الروسي؟

ما زلت أعتقد أن الأدب الروسي الذي عرفه القرن الماضي ما يزال في قمة الأدب العالمي. أما كتّاب الثورة وما بعدها فلم أطّلع إلا على القليل من نتاجهم، وذلك لا يخولني إعطاء رأي فيهم..

ولمن تكون الغلبة، اللأدب الغربي أم للأدب الشرقي؟

في المدى الطويل سيتغلب الشرق على الغرب في أكثر من ميدان واحد.. ومن تلك الميادين الأدب. وإني لألمح يوماً ما يزال في مطاوي المستقبل سيعود الغرب فيه ينهل من أدب الشرق وفكره..

وتذكرت فيما أنا أتحدث مع الأستاذ نعيمه قول أحد الأدباء بأن الرياضة تبعد عن التفكير . وأردت أن أعلم رأيه فسألته :

هل تبعد الحركات الرياضية الجسمانية شبيبتنا عن زاد التفكير والنضج العقلي؟

فقال: إن الرياضة البدنية أمر جد مستحب. فليس أجمل من عقل قوي في جسم قوي. ولكنني أخشى إذا تمادى الشباب في تعشقهم الرياضة البدنية، وفي الطموح إلى الفوز بأمجادها أن يصرفهم ذلك عن التفكير فيما هم أحوج إليه من انتزاع البطولات وأعني التفكير في حياتهم ومعانيها البعيدة.

وأحببت أن أستطلع رأيه في مشكلة مشاكلنا ألا وهي معضلة التعليم في مدارسنا. فقلت:

عندما ابتدأتَ وأنت طفل، أول مرحلة الدراسة، فهل كانت المدارس تفرض عليك ٢٧ كتاباً كما تفرض اليوم على ابن ٧ سنوات؟ وهل زيادة الكتب وتضخمها في رأيك يزيدان في معرفة واطلاع الطالب الحديث؟

فأجاب:

عندما أفكر في أطفالنا والبرامج الكثيرة التي ترهق بها عقولهم وأجسادهم أعود إلى أيام دراستي الأولى فأشفق على أطفال اليوم. ولقد تلقنت أول دروسي العربية في كتاب كان يدعى «مدارج القراءة» وهو في نظري خير من كل ما وقعت عليه من كتب للقراءة الحديثة. ثم ما كنت أدرس الجبر والهندسة وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة، وخرجت مع ذلك من المدرسة وعندي إلمام لا بأس به بالحساب والعلوم الرياضية. وكان عدد الكتب والدفاتر لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

يقولون: إن الأدب المهجري كالأدب الأندلسي. فأين أوجه الشبه؟

إن الذين شبّهوا الأدب المهجري بالأدب الأندلسي لم يبصروا من الاثنين

سوى الطفرة نحو التجديد. في حين أن الأدب الأندلسي اكتفى من ذلك باللباس الخارجي. وأما الأدب المهجري فلم يقف عند اللباس بل تجاوزه إلى مفاهيم الأدب الأساسية. لذلك وسّع في نطاق الأدب من حيث الموضوع والمعالجة إلى حدٍ ما عرفه الأدب العربي من قبل.

هنالك وجه شبه آخر بين الأدبين، الأندلسي والمهجري، وهو أن كليهما نشأ في ديار الغربة... وما من شك في أن ابتعاد الاثنين عن الأرض الأمّ قد أتاح لهما شيئاً من الحرية ما كانا ليحصلا عليها في ديارهما الأصلية لكثرة ما فيها من تعنت وانكماش.

ما هي الكتب الجديدة التي ألّفتها أخيراً أو في صدد تأليفها؟

صدر لي في هذه السنة كتاب «أبعد من موسكو ومن واشنطن» وهو كتاب أوحته إليّ رحلة قمت بها إلى الاتحاد السوفياتي في الصيف الماضي بدعوة من اتحاد الكتاب هناك. وقد حاولت في هذا الكتاب أن أخرج بما يدعونه صراعاً بين الرأسمالية والشيوعية من نطاق الدعايات المسمومة إلى حيث يبدو النهجان الرأسمالي والشيوعي مجريين طبيعيين من مجاري الحياة الكونية. وإذا ذاك فالصراع هو هدر جهود جبارة في غير منفعة لكلا المعسكرين، وللإنسانية.

ولي كتاب آخر صدر في هذا الأسبوع باللغة الانكليزية في مدينة بانغالور (من بلاد الهند) وهو مجموعة من قصصي العربية بما فيها قصة «لقاء» وقد ترجمتها بنفسي... وفي رأسي مشاريع كثيرة لكنني أكره التحدث عنها إلى أن تصبح كائنات حية...

أخيراً أيهما تفضل الجمال المادي أم الجمال الروحي؟

إذا اضطررت إلى الاختيار بين الاثنين فإني أفضل جمال الروح على جمال المادة. ولكنني أحبهما أكثر إذا هما اجتمعا..

(جريدة الجريدة، بيروت ٢٠ ـ ١٠ ـ ١٩٥٧)

لماذا انهارت جمعية أهل القلم؟

ما هي فلسفتك في الحياة؟

كتبت عدّة مؤلفات أشرح فيها جهات من تلك الفلسفة. فكيف تريدني الآن أن ألخصها لك في كلمات معدودات؟ أما إذا لم يكن بد من ذلك، ففلسفتي تتلخص في اعتقادي أن الإنسان مُجهّز بكل ما يحتاجه من صفات ومواهب ليبلغ درجة الألوهة. أما متى يتم له ذلك فليس من شأني أن أجيب عليه ما دمت لا أعرف للزمان بداية أو نهاية.

ما هي أحب الذكريات إليك؟

من الصعب أن تنتقي من ذكريات حياة تبلغ سبعة عقود ذكرى بعينها لتقول إنها الأحبّ إليك. ففي الواقع، ليس في حياتي ما أذكره وأودّ لو لم يكن.

هل عندك مؤلفات قيد الطبع!

عندي مؤلف لم أنته منه بعد. وآمل أن أقدمه للطبع في خريف هذه السنة. ولست أحب التحدث عنه الآن، وأمتنع حتى عن ذكر العنوان.

هل أحببت، ومن؟

أحببت أكثر من مرة. ولكنني لا أرى من حقي أن أذكر الأسماء.

هل أثرت المرأة في حياتك الأدبية؟

من غير شك.

ما هو الوقت المناسب لعقد مقالاتك؟

عندما كنت في المهجر ولم يكن لي متسع من الوقت للتأليف في النهار. كانت أحبّ ساعات الكتابة إليّ من العاشرة مساء حتى بعد منتصف الليل.

أما بعد أن عدت إلى لبنان وكرّست حياتي للأدب وحده، فقد اعتدت أن أكتب من الصباح الباكر حتى بعد الظهر، ومن الساعة الرابعة بعد الظهر حتى هبوط الظلمة. أما في المساء فأنصرف إلى الراحة والتأمل.

وكيف تمضي وقت الفراغ؟

أحَبّ شيء لديّ بعد الكتابة هو العمل في الأرض وتحسينها. لذلك تراني أتعشق «الشخروب»، وهو مزرعة جبلية تحدّرت إلينا من أجدادنا ـ ففي «الشخروب» أمضي معظم الصيف، وأعاشر الصخر والشجر وأسعى ما استطعت لأحوّل بعض وعورة إلى جنائن.

ما هو الكتاب الذي أثار ضجة أكثر مما أنشأت حتى اليوم؟

كتابي عن المرحوم جبران خليل جبران، ثم كتاب مرداد.

فقد ثارت حول الأول ضجة واسعة من قِبَل أناس لم يكن لهم ولا ذرة مما لي من المعرفة بجبران. وثارت حول الكتاب الثاني ضجة من قِبَل رجال الدين، حتى أن أحدهم ألّف كتاباً كاملاً في الرد عليه.

هل الأديب مرآه عصره؟

الأديب مرآة نفسه، وليس عليه أن يكون مرآة عصره إلّا على قدر ما ينعكس عصره في نفسه. فقد يسبق الأديب عصره. والمهم أن يكون مرآة صادقة لنفسه.

هل الأدب هواية أم صناعة؟

الأدب رسالة حياة. فلا هو بالهواية ولا هو بالصناعة، ولكنه يغدو هواية عند من يضعه في المرتبة الثانية بعد عمل يكرس له حياته.

وهو صناعة عند الذين يتوخون الكسب منه لا أكثر.

هل أنت راضٍ عن حركة الفكر عندنا؟

كنت أتمنى لو كان الفكر في دنيا العرب أكثر انطلاقاً وحرارة مما هو عليه الآن. ولكنني أسير مع القول المأثور: ليس في الإمكان أحسن مما كان. ولا أطلب من الناس فوق ما في مستطاعهم أن يعطوه.

ما العوامل التي تحدّ من نشاط الأدباء الكبار عندنا في هذه الآونة؟

إنها كثيرة. منها العوامل السياسية ومنها العوامل الاجتماعية التي لا تزال تسد على الأديب أبواباً كثيرة لا يستطيع ولوجها كالأمور التي يدعونها «مقدسات» ومنها العوامل المادية التي تُكرِه معظم الكتّاب عندنا على الالتجاء إلى مورد آخر للرزق غير القلم.

هل يرجى الخير من الشباب الذين يعالجون القصة اليوم؟

أجل. فالقصة عندنا قد خطت خطوة واسعة إلى الأمام. ويبدو أنها بدأت تتأقلم.

ما رأيك بالأدب النسوي المعاصر؟

إنه لمن دواعي سروري أن أرى المرأة قد أخذت تحتل مكاناً مرموقاً في أدبنا المعاصر. وأرجو أن يزداد مع الزمان عدد الكاتبات والشاعرات عندنا.

لماذا لم يصِرْ عندنا جمعية أدبية تهتم بالأدب وشؤونه؟

إن الأسباب التي أدت إلى انهيار جمعية أهل القلم ما تزال قائمة حتى الآن. وأخشى إذا لم يحدث تغيير في أوضاعنا، أن لا تقوم أية قائمة لأية جمعية

أدبية في الوقت الحاضر.

هل بمقدور أديب الضاد أن يدير وجهه عن الثقافة الغربية؟

لقد قام بين العرب أفراد أنتجوا من الأدب ما نعتز به ولم تكن لهم أية صلة بآداب أخرى.

ليس ما يمنع أن يقوم بيننا عبقري لا يعرف حرفاً واحداً من أية لغة أجنبية على أنني أؤثر أن يكون للأديب اطّلاع واسع على ما عند غيرنا من ثقافات كي يستطيع أن يقيس ما ينتج بمقاييس أوسع بكثير من تلك التي يعرفها في بيئته الضيقة.

وأخيراً قلت لأديبنا الكبير:

هل تؤمن بمدرسة الشعر الحديث؟

فأجاب بعد تفكير قصير:

ليست القضية قضية إيمان. إنها واقع نشهده ونعيشه.

فالشعر الحديث ـ على كثرة ألوانه ـ لا يعدو أن يكون انتفاضة ضد سيطرة الشعر القديم سيطرة كادت تكون مطلقة، وفي التخلص من تلك السيطرة ما يبعث الأمل بأنه لا يزال عندنا بقية من قوة الابداع وخلق أشياء جديدة بقطع النظر عما إذا كانت هذه الأشياء ستعمّر طويلاً أم لا.

(جريدة الأنباء، بيروت ٢٠ ـ ٦ ـ ١٩٥٩)

حتى يصبح أدبنا عالميا؟

أنت من أوائل الذين كتبوا في النقد. فما هي المقاييس التي كنت تقيم بها الأثر الأدبي؟ وهل تطورت هذه المقاييس الآن؟

في كتابي: الغربال، مقال بعنوان «المقاييس الأدبية» حاولت فيه أن أجد بعض المقاييس الثابتة التي نستطيع بها أن نقيم الأثر الأدبي. فلم أجد غير الحقيقة والجمال والموسيقى من حيث إنها حاجات دائمة وملازمة أبداً للنفس البشرية. غير أنني وقد مضى على كتابة ذلك المقال أكثر من أربعين سنة أعود فأقول إن الحقيقة والجمال والموسيقى لا بد في تفسيرها من الرجوع إلى الناقد نفسه. فهي أمور نسبية. وإذ ذاك فالمقاييس الأدبية لا تعدو كونها مقاييس شخصية يخلقّها الناقد من ذاته. فهو إما أن يتوافر له الذوق مع رهافة الحس بالأمور التي هي أساسية في الحياة مع الاطلاع الواسع على ما أنتجه الأدب العالمي حتى اليوم فيفرض حسه وذوقه على قارئه. وإما أن يكون مقلداً لغيره من النقاد فنقده لا يعدو كونه إظهار رأي وحسب. لذلك ترى أن بعض النقاد حتى من الأقدمين لا يزالون ذوي تأثير بعيد في الأدب كما نعرفه اليوم. وترى أيضاً نقاداً حديثين يثيرون ضجة إلى حين، فلا تلبث الضجة أن تهدأ.

خلاصة القول إن النقاد يولدون ولا يصنعون.

أنت أيضاً من أوائل المجددين في الشعر إذ إنك خرجت في ديوانك «همس الجفون» على الأسلوب الشعري التقليدي ـ فما هو رأيك في التطور الذي يحدث الآن على يد بعض الشعراء المحدثين؟

إذا شئت أن تعدّني مجدداً في الشعر فالتجديد الذي أحسبني جئت به يقوم أولاً على الانعتاق من القافية الواحدة. ولقد كتبت أكثر من مقال في الموضوع ونظمت أكثر من قصيدة تتنوع فيها القافية منتهى التنويع من غير أن يضيع شيء من الموسيقى الشعرية. بل على العكس فلعل ذلك التنويع كانت ترافقه موسيقى أحب إلى الأذن من وقع القافية الواحدة.

ثانياً، إني أوجدت للقصيدة وحدة وكانت من قبل مفككة، فالقصيدة عندي تعبر عن حالة نفسانية واحدة. ولا تنسَ أن يأتي ذلك التعبير في صور تختلف شكلاً ولوناً ولكنها تتجانس روحاً.

ثالثاً، إني نزلت بالشعر إلى الحياة التي أحسها ويحسها الناس من حولي في كل يوم. فابتعدت عن الفخامة في اللفظ وجنحت إلى البساطة. ولعلني أول من استعمل في الشعر كلمات الرفش والمعول وخاطب الناس بقوله «أخي». ثم إنني ابتعدت كل الابتعاد عن الموضوعات الشعرية المألوفة فليس عندي رثاء ولا هجاء ولا مدح ولا فخر ولا غزل على الطريقة المشهورة. فإذا نظمت غزلاً لم أذكر القد والنهد ولا الوجه والعنق ولا الحاجب والشعر بل تكلمت عن انفعالات نفسانية تعود إلى أعمق وأبعد من الشكل الخارجي بكثير.

رابعاً، ولعلني كنت أول من وصل البيت بالبيت فتجاوز القاعدة التي تفرض اكتمال المعنى في البيت الواحد. ثم لعلني أول من تلاعب بالأوزان فجاوز بين كاملها ومجزوئها مع الحفاظ على الرنة الشعرية. وأخيراً أظنني أول من تجاسر أن يطلق بعض الأبيات في القصيدة الواحدة من القافية وأن يسكّن صدر البيت وعجزه حيث لا يجوز التسكين حسب القواعد المرعية. والأهم من ذلك كله، أنني حولت نظري إلى باطن الإنسان أكثر من خارجه. فالإنسان

عندي يعيش بفكره وإحساسه قبل أن يعيش بجسده.

أما شعراؤنا المحدثون وما يرمون إليه من تجديد على التجديد فلا يلاقون مني غير صدر رحب ولا يسمعون غير كلمة «مرحى» فاليوم يومهم والميدان ميدانهم ومن العار عليهم أن يعيشوا على فتات من سبقوا. إلا أنني كنت أرجو للكثير منهم ألا يجعلوا الإبهام ميزة لا بد منها في تجديدهم. فالشعر ما وجد ليقرأه ناظمه وحده بل ليقرأه غيره. وليس من المستحب أبداً أن يحتمي شعراؤنا المجددون بالقول المأثور «المعنى بقلب الشاعر».

ما هي المزايا التي يجب أن تتوفر في أدبنا كي يصبح أدباً عالمياً؟

من الغبن القول أَنْ ليس في أدبنا الحديث ما يصلح أن يقرأه الناس في كل مكان. ولكن اللغة تحجب هذا القليل من الأدب العربي عن القارىء في ديار تجهل العربية وليس بينها إلا حفنة من الرجال الذين يهتمون بأدبنا. واللوم في ذلك يعود في الدرجة الأولى إلى الذين يتقنون لغات أجنبية ولا يختارون النفيس من آدابنا ويترجمونه إلى تلك اللغات. ومن ثم نحن في بدء نهضتنا الأدبية ولا نزال نعاني الكثير من مركب النقص فينا. فنحن نتعامى عن الجليل عندنا ونتهافت حتى على التافه عند غيرنا.

ولكن لا بد من القول بأن السواد الأعظم من كتابنا تنقصه الثقافة الواسعة والثقة بالنفس والاخلاص للكلمة وقدسية الكلمة. فإذا قام بيننا كاتب موهوب ونال شيئاً من الشهرة أسكرته شهرته وباتت هي الهدف وباتت الموهبة جارية عندها. ولو كان لنا عباقرة لطغت عبقريتهم على شهوة الشهرة وعلى شهوة الكسب وفرضوا أنفسهم على الشرق والغرب بالسواء.

ما هي في رأيك أسباب الضجة التي أثيرت حول كتابك عن جبران؟

إن الضجة التي أثارها البعض حول كتابي عن جبران قد تلاشت إلى حد بعيد. ذلك أنها لم تكن ترتكز على أي أساس. والغريب أن الذين أثاروها لم يكن بينهم واحد يعرف جبران إلا من بعض ما قرأ له. وهؤلاء كانوا يتوقعون مني

أن أصوِّر لهم جبران مسيحاً ثانياً كما فعلت بربارا يونغ في أميركا. ولأنني رجل مخلص لنفسي ولفني ولصديقي جبران فلا ذوقي ولا قلمي ولا روحي كانت تطاوعني في أن أصوره على غير ما عرفته. لقد صورني جبران بريشته فلم أقل له «هذا غير أنا يا جبران» لأنه هكذا رآني وهكذا صورني. وجبران كان فناناً وأميناً لفنه وكنت أجلّه في أمانته. وصورت أنا جبران بقلمي، وكنت أميناً لفني، فما أظن جبران لو قام من قبره يقول لي «هذا غير أنا يا ميشا» لأنني هكذا عرفته وهكذا رأيته وهكذا صورته. وليس يعيب جبران أن أصوره بشراً سوياً بدلاً من أن أصوره كائناً سماوياً.

هل لأدبك ونظرتك للحياة جذور في تاريخ وحياة بلادك؟

أجل. فأنا من بعد أن خبرت المدنية الغربية وتشبعت من شتى ألوانها وجدتني عن غير وعي مني أعود للشرق لأجد فيه نفسي. فالعلم الحديث الذي تقوم عليه المدنية الغربية والذي يرتكز على الحواس الخارجية وما تؤديه إلى العقل من انطباعات كاذبة لم يحلّ لي شيئاً من معضلات الوجود كالخير والشر والحياة والموت والتفاوت بين حظوظ الناس والغاية من وجودهم على الأرض، لذلك عدت إلى الشرق فوجدت نفسي وجميع ما تصبو إليه في الهند وتعاليمها والصين وتعاليمها وفي ما أعطته أرضنا المباركة من هداية ونور.

فأنا أؤمن بأن الحياة قوة أزلية أبدية، وبأنها عاقلة وبأنها تسير على نظام منطو بأكمله في الإنسان وبأن الإنسان مسلح بكل ما يحتاجه من القوى لفهم ذلك النظام والاتحاد به من بعد أن يكتمل بالتجربة وتصبح له القدرة على استخدام جميع مؤهلاته. أما الآن فهو إذا استخدم عقله أدماه عقله. وإذا استخدم وجدانه أضناه وجدانه ولا لوم عليه إذا هو تعثر هنا وهناك. فهو ما يزال طفلاً. ولكن الزمان كله أمامه ليملك جميع قواه ويستخدمها إلى آخر حدودها. وإذ ذاك يصبح في غنى عن جسده ويفلت من قبضة الثنائية فيتحد بالله ويصبح خالقاً يمثل القوة التي خلقته.

(جريدة البناء، بيروت ٤ - ٣ - ١٩٥٩)

العروبة والقومية العربية

قلت له وأنا أطارحه الحديث: هل لي أن أنقلكم لقراء «الحياة» في بعض خواطركم؟

فأجاب: حباً وكرامة.

قلت: ومن أول الطريق!

قال: ومن أول الطريق...

قلت: متى ولدتم؟ وأين تلقيتم علومكم؟ ومتى هاجرتم؟ ومتى عدتم؟

فأجاب: ولدت في بسكنتا يوم ١٧ تشرين الأول عام ١٨٨٩، وبدأت دروسي الابتدائية في المدرسة الروسية في بسكنتا، وفي أيلول من عام ١٩٠٢ ودّعت بسكنتا إلى الناصرة لمتابعة دروسي في «دار المعلمين»، على نفقة «الجمعية الامبراطورية الروسية الفلسطينية». وفي عام ١٩٠٦ غادرت أرض الوطن إلى روسيا إلى مدينة «بولتافا» من أعمال «أوكرانيا»، حيث أنهيت دروسي الثانوية عام ١٩١١، ورجعت بعدها إلى أرض الوطن.

قيل إنكم نظمتم شعراً باللغة الروسية؟

أجاب: لقد نظمت في جملة ما نظمت قصيدة عام ١٩١٠ دعوتها «النهر المتجمد»، وكنت أرمز بالنهر إلى روسيا آنئذ. أما هجرتي إلى أميركا فكانت سنة

١٩١١، إلى جامعة ولاية واشنطن بمدينة «سياتل». ومما أذكره ولا أنساه أن الجامعة قبلتني بدون امتحان، واعتبرت شهادتي الروسية موازية لسنتين من الدراسة فيها، الأمر الذي مكّنني من انجاز دراستي في كلية الآداب وكلية الحقوق في سنوات أربع. وهي دراسة تستغرق عادة سبع سنوات. وقد عدت إلى أرض الوطن عام ١٩٣٢.

قلت: ما هو أول كتاب صدر لكم؟ وما هي مؤلفاتكم ونزعتكم فيها؟

فأجاب: «الآباء والبنون» عام ١٩١٨ وهو مسرحية. وقد نشرته مجلة «الفنون». ثم كتاب «الغربال» وقد صدر في مصر عام ١٩٢٣. ثم «همس الجفون» الذي أعيد طبعه حتى الآن ثلاث مرات وقد ترجم إلى الاسبانية في مدريد. ثم «كان ما كان»، وهو مجموعة قصص مهجرية نشرت في لبنان وأعيد طبعها للمرة الرابعة، و«المراحل» مجموعة مقالات في ظواهر الحياة وبواطنها وهو من نتاج المهجر وقد طبع عام ١٩٣٢. أما سائر المؤلفات فعددها ستة عشر بالعربية، وأربعة بالانكليزية وهي من نتاج لبنان.

قلت: هنالك من يزعم بأنكم من المشككين، وانكم تنزعون منازع الملحدين، وانكم تدعون إلى التفلت من المذاهب وقيودها؟

فأجاب: أنا من المؤمنين العنيدين في إيمانهم، ولكن إيماني لا يضيق بأي مذهب مهما يكن نوعه أو لونه، لأن لي من إيماني ثقة بحكمة الحياة ونظامها وعدلها وقدرتها على الدفاع عن نفسها. ومن ذلك الإيمان إيماني بقدرة الإنسان المتطور أن يبلغ من العظمة والجبروت فوق ما يستطيع اليوم أن يتخيله، حتى في أبعد وثبات خياله. وإن إيماني بالحياة ليسهل عليّ جداً أن أتقبلها بمنتهى الارتياح في أي زي تزيّت، وفي أية صورة تجلت. وإيماني بالإنسان لا يمنعني من أن أراه يتعثر هنا، ويتردد هناك، ولا أن أراه عاجزاً عن إدراك الكمال بقفزة واحدة. فالمهم انه يحبو إليه.

والآن دعني أمضي معك في الحديث عن الإيمان والإلحاد. فأسأل

المؤمنين عن إيمانهم ما هو، وماذا جنوا منه حتى اليوم، ولم يكن باستطاعتهم أن يجنوه إلا به؟ هل الإيمان أن تؤدّي فرائض بعينها، في أوقات وأماكن بعينها؟ ولماذا؟ ألكي تسترضي الله فيعطيك ما تشاء، ويردّ عنك ما لا تشاء؟ فما قولك بالأمم التي بادت عن وجه الأرض، وكانت تفعل ذلك بالتمام، وتفعله في كل يوم من كل عام، تحت أثقال الفقر والجوع والجهل، وكانت صلواتها لا تنقطع طالبة عكس ذلك بالتمام؟ ما قولك باليهود «شعب الله المختار»، يبددهم إلٓههم في أنحاء المعمور برغم جميع ما رفعوا ويرفعون إليه من صلوات وذبائح؟.

ما قولك بالمسيحيين يشيدون الهياكل الفخمة ويضرعون إلى الله في الغداة والعشية، فلا ينقذهم من الحروب وويلات الحروب، ولا من الثورات والنكبات؟ ما قولك بالمسلمين يصومون ويصلّون ويشهدون أن لا إله إلا الله، فما انقضت سنوات على موت نبيهم حتى ذر قرن الفتنة بينهم، وراحوا يتقاتلون ويتطاحنون؟ أتقول إن معاوية كان أكثر أو أصدق إيماناً من علي، فنصره الله عليه، أم تقول إن المسلمين كانوا في عهد الفتوح أكثر إسلاماً منهم في عهود انحطاطهم وانخذالهم؟

لكَم صلى الفرنسيون لمليكهم لويس السادس عشر فما نجّته صلواتهم من المقصلة، ولأمبراطورهم نابليون الأول فما سدّوا الطريق بينه وبين جزيرة القديسة هيلانة، ولكَم رفع الروس ضراعاتهم من أجل قيصرهم نقولا الثاني وأفراد عائلته، فكانت نتيجة ضراعاتهم ان قضى القيصر وأفراد عائلته ببضع رصاصات أطلقها جنود كانوا في السابق يصلون من أجل سعادتهم وعظمتهم وطول حياتهم!

لست أريد أن يفهم قارىء «الحياة» من كلامي هذا أنني لا أقيم وزناً للصلاة وللكتب الدينية، فالصلاة غير الطقوس، وغير الكهانة. ومن الكتب الدينية ما لو فقدته البشرية لفقدت أعز ما تملك. ولكن الذي لا أقيم له وزناً هو الإيمان الذي لا يكون إيماناً إلا إذا انصب في قالب من الطقوس التي لا تتغير

ولا تتبدل، وإلا إذا استوسط فئة من الناس بين المؤمن وبين ربه، ثم دفع «ثمن» الوساطة من جيبه أو من فكره. أو من قلبه، ورضي أن يكون غير الله وصياً عليه وعلى وجدانه. أما الإيمان النابع من أعماق النفس والمحصّن بشغاف القلب، والذي هو الصلة المباشرة ما بين المؤمن وربه، فليست جميع قوى الأرض بقادرة على أن تمسّه بسوء!

قلت: يسرني أن أرجع معكم بالسؤال عن انتاجكم. هل أنتم راضون عنه؟ وهل دعوتكم إلى الأخذ بالروحيات والبعد عن المادة، كانت نتيجة لتأثركم بمدرسة ما، أو بفيلسوف سبق، أم أنها بواعث نفسية خاصة؟

فأجاب: لكل كتاب مقاييس، أهمها رضى الكاتب عنها. ثم رضى القارىء، ثم نوع القارىء الذي يرضى عنها. فهنالك كتب ترضي الجماهير ولكنها لا ترضي الخاصة، وهنالك كتب على العكس، ترضي الخاصة ولا ترضي الجماهير. أما أنا فأستطيع القول إني لم أطلق كتاباً من يدي إلا لأني كنت راضياً عنه. وأما رضى القارىء فباستطاعتك أن تستنتجه من رسائله لو اطلعت عليها. ثم من إعادة طبعها مرات عديدة. في جملة كتبي واحد أسميته «المراحل»، وشرحت الاسم بقولي: «إنه سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها». وجميع كتبي هي سياحات من ذلك النوع، فأنا لا يرضيني أن أتقبل الحياة كما تبدو لحواسي وحدها. وفي اعتقادي أن ما تبديه لي هذه الحواس من الحياة ليس أكثر من رغوتها. لذلك صرفت جلّ همي إلى التفتيش عما يختبىء تحت الرغوة. وتفتيشي بلغ بي نتيجة لا أستطيع التهرب منها، وهي أن الإنسان ينطوي كيانه على كل ما يصبو إليه من المقدرة والمعرفة. ودليلي في ذلك أنه منذ أن كان لا يزال يبتدع الغرائب والعجائب للتخلص من القيود التي تكبّله في وجوده على الأرض. ولو لم يكن للإنسان أن يبلغ بالمعرفة التي يصبو إليها، والحرية التي ترافق تلك المعرفة، لما كانت له هذه الأشواق التي تدفعه دائماً وأبداً إلى اختراق حجب المجهول، ولما كانت له هذه القدرة على تحدّي كل ما في عيشه من عقبات. فهو يتعلق بأذيال الحياة ولا يرهب الموت. ولنا في منجزات هذا

To: www.al-mostafa.com

العصر من التسلّط على الذرّة ومن أقمار صناعية تدور في الفضاء الأوسع، دليل على أن الإنسان سائر في طريقه إلى التفتح الأكمل. وسيأتي يوم تبدو فيه جميع المعجزات التي حققها حتى الآن ألاعيب صبيانية!

قلت: والأدب الحديث، هل هو مرآة لتطور هذا العصر ونزعات أبنائه؟ وهل هو، وبخاصة العربي منه، معبّر عن حاجات الأمة وخلجاتها الانسانية والقومية؟

فأجاب: يختلف الأدب باختلاف الأدباء. فهنالك أدباء لا يتناولون من الحياة غير سطحياتها، وهؤلاء يعبّرون عن أنفسهم فيما يكتبون. وهنالك أدباء يحاولون الغوص إلى أكثر من السطوح، وهؤلاء يعبّرون عن العالم الذي يعيشون فيه، كل على قدر استطاعته ومواهبه. فالأديب يعبر عن نفسه أولاً. وبقدر ما تتصل نفسه بنفس أمته يمكن القول إنه يعبر عن أمته كذلك إذ هو يعبر عن نفسه. إما أن يكون الأديب صورة لزمانه أو موجّهاً لأمته، فذلك يتوقف على مدى شعوره بأمته وزمانه، وعلى عمق ذلك الشعور أو سطحيته. ومن هذا القبيل يمكن القول إن الأدب المهجري كان أصدق تعبيراً عن نفسية الأدباء الذين أنتجوه، ثم عن نفسية أمتهم. فبُعدهم عن ديارهم جعل لديارهم قيمة في حياتهم ليست للمقيمين!

قلت: رحابة صدركم تشجعني على المضي في الحديث، وان أسألكم رأيكم في الأحزاب التي تتقاذف عالم اليوم وبخاصة، ما هو رأيكم في العروبة والقومية العربية؟

فأجاب: لم يعد بالإمكان اليوم التحدث عن أية مشكلة إنسانية إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار جميع التيارات التي تتقاذف عالم اليوم. فالعروبة كنبتة قامت للدفاع عن حقوق العرب المهضومة، ولردّ كرامتهم اليهم، ولرفع كابوس الاستعمار عن صدورهم، لا شك مباركة. أما أن تصلح أن تكون الشجرة الوحيدة التي يتفيّؤها العرب ويعيشون من ثمارها على المدى الطويل فأمر آخر.

إذ إنها بعد أن تقوم بالغاية التي من أجلها وُجدت، ستجد نفسها مضطرة أن تتناول غذاءها وحياتها من كل مكان في الأرض. فسيأتي يوم، ليس ببعيد، تنمحي فيه أو تتضاءل جميع الحدود القومية بين الناس. ذلك إذا هم شاؤوا أن يعيشوا على هذه الأرض في رخاء وسلام.

ويقيني أن التجارب التي يمرّ بها العرب الآن في شتى ديارهم هي التي ستهديهم إلى الأنفع والأبقى من هذه التيارات التي تتقاذفنا اليوم. ولا همّ لي أيّ اتجاه يتجهونه في الغد أو ما بعد الغد، لأني واثق كل الثقة بأن طبيعتهم ستصهر هذه المبادىء المختلفة في مصهرها الخاص لتغدو صالحة لتقدمهم ونجاحهم وبقائهم. فليس من مذهب قام في الأرض، ثم مر به الزمان وبقي كما كان ساعة قيامه. فكل أرض يمر بها تصبغه بصبغتها. وهكذا سيكون نصيب الماركسية والديمقراطية وغيرهما من المذاهب، فجميعها في تطور دائم. وهي حالما تنتقل من بلد إلى آخر تتغير ألوانها حسب مؤهلات ذلك البلد. لذلك أقول ألاّ خوف على العرب من أي مذهب سياسي واقتصادي قد يتمذهبون به اليوم. فلا شك أنهم سيجعلونه عربياً يوماً ما، سواء أطال بهم الزمن أم قصر!

قلت: لا بد وأن الشكوى التي تنطلق هنا وهناك من التعليم في لبنان وأساليب التعليم ومناهج التعليم الحكومية وغير الحكومية من المدارس الخاصة قد انتهت إليكم، ولا بد أن لكم رأياً في الناحية التي يتعلق عليها مستقبل هذا البلد. . .

فأجاب: من المؤسف أن نرانا في هذه الأيام قد وضعنا المدرسة في القمة، لاعتقادنا أنها مصدر المعرفة، والباب الذي إذا خرج منه الطالب فقد خرج وفي يده سلاح قوي لمجابهة كل ما قد يعتريه من مشكلات. في حين أننا جعلنا من المدرسة شبه سجن للنشء، وقالباً نسكب فيه أفكارهم وميولهم. لقد أرهقنا المدارس بمناهج انقطعت الصلة بينها وبين الحياة، وبات همّها الأكبر أن تقذف بالألوف من الشبان والشابات، ولا سلاح في أيديهم سوى وريقة يدعونها إما الابتدائية وإما الثانوية أو التكميلية أو البكالوريا أو الليسانس وما أشبه. ولو أن

الصلة كانت وثيقة بين المدرسة والحياة كما نعيشها في كل يوم لما كان لنا هذا الجيش من حاملي الشهادات الذين يفتشون عن باب يرتزقون منه، وكأنهم يفتشون عن ذرة من التبر في جبل من التراب. ناهيك بأن ما يدعونه «التربية» لا أثر له في المدرسة على الاطلاق. وأعني تربية النفس، وتربية الفكر والقلب، بحيث يخرج الطالب من المدرسة وعنده شعور للجمال، للنظام، للمسؤولية تجاه نفسه وتجاه المجتمع الذي يعيش فيه. وبكلمة أوضح إن آخر ما تعيره المدرسة اهتمامها هو الأخلاق الكريمة، والحياة الفاضلة!

قلت: يسعدني أن أختتم هذا الحديث بالوقوف عند رأيكم في القلق الذي يساور شبابنا المثقف، وهم يتطلعون إلى الغد، وعند نصيحتكم للجيل العربي الصاعد في شتى أقطاره وأمصاره. . .

فأجاب: ليس من العجب أن يكون القلق الحالة النفسانية المسيطرة على النشء الحديث. والصراع القائم اليوم بين شتى المذاهب لم تشهد الأرض شبيهاً له قبل اليوم. إنه صراع عنيف جارف. وليس من السهل على فتى أو فتاة أن يختار أو تختار موقفاً صامداً من هذا الصراع. والأرض تبدو اليوم كما لو كانت على كف عفريت، والبشرية كما لو كانت على فوهة بركان. والذي نسمعه عن الأسلحة الفتاكة التي في استطاعتها أن تدمر الأرض وما عليها هو وحده كاف لأن يخنق الأمل ويشلّ العزيمة، ويجعل الناس ريشة في مهب الريح. لذلك كان أحوج ما يحتاجه النشء الجديد هو اليقين فيه بأن الإنسان أكبر بكثير وأقوى بكثير من كل ما صنعته يداه حتى الآن. فهو إذا ما تعثّر وإذا ما توجّع فلكي يستخلص من عثراته وأوجاعه المعرفة التي تؤهله لمتابعة سيره حتى يكون له الظفر، وحتى يبلغ جميع أهدافه. وأهدافه لن تقف عند الصواريخ والقنابل الذرية بل إنه سيجعل من الأرض سماء، وستصبح أبعد الأقمار موطئاً لقدمه، أو موطئاً لخياله يوماً ما!

(جريدة الحياة، بيروت ٣ - ٦ - ١٩٥٩)

أدب الخاصة وأدب العامة

ما رأيكم بمؤتمر أدباء العرب الأخير؟... وهل تعتقدون أن مثل هذه المؤتمرات المتكررة قد أدت إلى نتيجة عملية بالنسبة إلى الأدب؟

لم أتمكن ـ لسوء الحظ ـ من السفر إلى الكويت لحضور المؤتمر الرابع للأدباء العرب، وحتى اليوم لم أطلع على المقررات التي اتخذها. لذلك يصعب عليّ أن أبدي رأيي. على أنني آمل أن ينتج منه شيء لخير العرب والأدب العربي بنوع خاص، ولست أشك في أن مثل هذه المؤتمرات من شأنها أن تقرب وجهات النظر بين الأدباء العرب في مختلف ديارهم. وحسبها أن تسهّل الاتصالات بين الأدباء، وأن تُعرَض فيها شتى المشاكل التي يواجهها الأديب العربي في هذه الظروف التي نحياها الآن... أما النتائج العملية للمؤتمرات الأربعة التي عقدت حتى الآن فمن الصعب أن تجد لها أثراً محسوساً، ورجائي أن لا تبقى مقرراتها حبراً على ورق...

نحن نتحدث إليكم في دار للطباعة والنشر، فما هو واجب دور النشر بالنسبة إلى الأديب؟ وما هي أفضل الطرق لانتشار الكتاب الأدبي الصحيح؟

بقينا في العالم العربي مئات السنين من غير أن يكون لنا مؤسسات لا عمل لها إلا نشر الكتب. أما في العقدين الأخيرين من السنين فقد نشأت،

والحمدلله، في الديار العربية، مؤسسات عدّة تهتم بنشر الكتب، ومن الطبيعي أن تكون صلة الكاتب العربي بالناشر على شيء من الترجرج والقلق، لأن هذه الصلات لم ترتكز حتى الآن على أسس عملية مدروسة، كما هي الحال في الغرب. ومن الطبيعي أيضاً أن تقوم خلافات دائمة بين الأديب والناشر، فيحسب الأديب أن الناشر يستثمره، ويدّعي الناشر أن الأديب يسخّره. . . . ومن الطبيعي أن يشكو الأديب الناشيء جفاء دور النشر، ويرى أنها لا تنشر إلا للذين أصبح لهم اسم معروف في دنيا الأدب، إلا أن هذه الأمور ستسوّى مع الزمن، ولكننا لن نبلغ الحالة المثلى التي يرضى عنها الأديب والناشر على السواء.

جائزة نوبل، ما هي أسباب تخلف الأدباء العرب عن نيل هذه الجائزة؟. . . وهل هي اللغة التي قعدت بهم؟ أم أنه ليس في الأدب العربي ما يستحق هذه الجائزة العالمية؟

قد يكون هناك أكثر من سبب واحد. . . منها أن الأدب العربي الحديث لم يكد يبلغ حتى الآن شأناً يسترعي انتباه العالم الغربي، فالمؤلفات العربية الحديثة التي نقلت إلى لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية المعروفة قليلة جداً. ولذلك لا لوم على الأكاديمية السويدية إذا هي لم تعرف جميع ما ينتجه أدباء العرب. فاللغة من هذا القبيل، هي من بعض الأسباب التي حجبت العالم العربي عن اهتمام القائمين على جائزة نوبل. . .

هل هناك مبرر للحد من حرية الأديب والفنان في أية حال من الأحوال؟. . .

كلمة الحرية ما تزال كلمة غامضة جداً في قواميس الناس. . . فحيث أفهم الحرية، على أنها مطاوعة النظام، يفهمها غيري على أنها تطويع للنظام. . . وحيث لا أؤمن أنا بنظام غير النظام السرمدي الذي يسيّر الأكوان وكل ما فيها، يؤمن غيري بنظام هو من صنع البشر لا غير. إننا في علاقاتنا بعضنا ببعض، وبالكائنات من حولنا، نرانا مرغمين دائماً على تكييف حياتنا بحياة

غيرنا. وإذ ذاك فأنا مضطر أن أنزل عن الكثير من حريتي، ليبقى لغيري بعض الحرية. فلا أنا حر تماماً، ولا غيري حر تماماً فيما نفعل، ولكننا أحرار فيما نفكر، وإذا أردنا التعبير عن أفكارنا، نرانا مرغمين على الحد من حريتنا في التعبير. فحريتك في الحمّام مثلاً، هي غير حريتك في الصالون. وفي البرية غير ما هي في المسجد. وحرية الجندي في الجيش، تكاد تقتصر على الطاعة العمياء. فلا عجب أن تكون حريتنا مقيدة بألف قيد وقيد.

حضرت مرة مناظرة جرت في «الأونسكو» ببيروت، بين الدكتور «طه حسين»، والأستاذ «رئيف خوري»، كان محورها: أدب الخاصة، وأدب العامة، فهل يجوز هذا التقسيم في الأدب؟

لا حدود للأدب، إلا التي تفرضها حدود الموهبة التي يتحلى بها أي أديب... فهو إذا صدق مع نفسه، كان أدبه صادقاً مع الذين في مثل مرتبته في التفكير والشعور. وليس على الأديب كلما وضع كلمة سوداء على ورقة بيضاء أن يتساءل إلى أين تمضي هذه الكلمة، وفي أي الأذهان تعلق تلك، فالبعض من أفكاره قد يجد تجاوباً عند العامة، أسرع مما يجد عند الخاصة... وعلى العكس، فلا مجال للكلام عن أدب الخاصة وأدب العامة...

هل يساهم أدبنا المعاصر في خلق شخصية إنسان عربي فريد يمكننا أن نضعها على مستوى بعض الشخصيات في الأدب العالمي؟

لم يخلق الأدب العربي الحديث حتى الآن شخصية فذة تمثل إنساناً عربياً هو نسيج وحده، أي أنه لا يشبه غيره من الشعوب، ولا يمكن أن ينبت إلا في أرض عربية... ولعلنا بالغون ذلك من بعد أن تستقر الأحوال السياسية في شرقنا العربي، وينصرف الأدب عندنا لدرس النفسية العربية درساً عميقاً شاملاً.

إن كثيراً من الجهد البشري في العالم يضيع سدى في سبيل الترجمة من اللغات المختلفة، ألا تعتقدون أن وجود لغة عالمية تترجم إليها روائع الأدب ويصبح التأليف فيها فقط، هو أجدى للإنسانية وأحفظ للجهد الضائع... أم أن

هذا المشروع هو أقرب للخيال؟ . . .

المشروع ليس خيالياً، وهو قابل للتحقيق، وإذا ما فشلت المحاولات التي قام بها البعض لخلق لغة عالمية، فذلك لا يعني أن محاولات آتية ستفشل حتماً. فمن بعد أن تقلصت المسافات، وكادت تتلاشى الحدود بين الأمم، واختلط أسود الناس بأبيضهم، وأصفرهم بأحمرهم، وباتت «أذن» كل إنسان على «فم» كل انسان، فليس من المستبعد أبداً أن يحس الناس حاجتهم إلى لغة مشتركة للتفاهم وأن يقوم منهم من يسد تلك الحاجة. وفي اعتقادي أنه لو وجدت مثل تلك اللغة، لخفّ التوتر السائد اليوم بين الأمم، ولاقترب الناس بعضهم من بعض، إلى حد أنهم قد يؤثرون التفاهم والتعاون على التنافر والتباغض والحروب . . .

يقول البعض، إن أدبكم مولود أكثره في برج عاجي. . . فهل تنقضون هذه التهمة؟

تمنيت لو أن الذين يتهمونني بالبرج العاجي يرون الصخرة التي نبت فيها الكثير من أدبي، إنها أبعد ما تكون عن العاج. فمن حولها الصخور والأشواك والأدغال، حيث تدب الحشرات والزحافات بأنواعها، وحيث يمشي الضبّ والثعلب، ويرفرف العصفور والنسر، وترعى الشاة والبقرة، ويغني العامل والفلاح. هناك لا مجال للأدب العاجي بل هناك الشعور العميق بكل ما في الحياة البشرية من تيارات. . . ولولا ذلك الشعور لما كان التجاوب العفوي العميق بيني وبين قرائي . . .

يعتقد البعض أنكم أردتم نزع صفة القداسة عن جبران في تصويركم اياه عادياً في سلوكه لأسباب غامضة في نفسكم، فهل هذا صحيح؟

لو كان هذا صحيحاً لخجلت أن أكتب كتابي، إلا أنني صورت جبران كما عرفته تماماً، فإن لم يرق بعض الناس أن يروا جبران في كتابي بشراً سوياً، لا ملاكاً سماوياً، فما ذلك ذنبي . . .

يتهمكم البعض بأنكم متأثرون بأدب جبران وأسلوبه وأن نتاجكم هو استمرار لنتاجه، فما رأيكم؟

عندما يتاح لصديقين مثلي ومثل جبران أن يعيشا خمس عشرة سنة معاً، فلا مجال إذا ذاك للقول: أيهما كان أكثر تأثراً بالآخر. . . فلا أنا فقير لأغترف من معين جبران، ولا جبران فقير ليغترف من معيني. ولكننا إذا تشاركنا أحياناً في الزاد، فليس في ذلك غضاضة على أي منا. . .

هل كان للمرأة أثر على أدبكم، وفي أية ناحية؟

نعم. وذلك ظاهر في بعض ما نظمته من الشعر بالعربية والانكليزية. ولولا أنني أفهم المرأة، لما استطعت أن أكتب عن الانسان الذي هو الرجل والمرأة معاً. . .

هل ارتقاء الإنسان الحضاري يؤثر على اطمئنانه واستقراره؟ ونوع هذا التأثر، هل هو عكسي أم طردي؟

من المؤسف جداً أن نرى الانسان يتقدم بعقله، ولا يتقدم بعين النسبة بقلبه، فهو إذ أصبح في إمكانه أن يرود الفضاء الأوسع، نراه لا يزال من حيث شعوره بالمسؤولية تجاه غيره لا يزال حيث كان منذ آلاف السنين، بل لعله يتقهقر إذا ما وضعنا المحبة في كفة الميزان ووضعنا البغض في الأخرى. فهو من حيث سلوكه مع نفسه، ومع الناس، لا يزال يؤمن بقوة الظفر والناب، ولا يزال يسعى إلى تشييد سعادته على شقاء غيره، وذلك ما يحول دون بلوغه ما يصبو إليه من السلام والطمأنينة والاستقرار.

لا شك في أنكم تطالعون شيئاً من الشعر الجديد، فما هو رأيكم بهذا النوع من الشعر؟ . . . هل ستكتب له الحياة، أم أنه غيمة صيف وتمضي؟

من شأن الحياة التجدد. أما الجمود فهو النذير بالموت. . . وإذا قام اليوم شعراء لا يستسيغون الشعر القديم، ويميلون إلى نوع جديد من الشعر، فذلك

من حقهم، وذلك من بشائر الحيوية فيهم. . . فهم يريدون أن تكون للقصيدة وحدة، ويريدون أن يتصل البيت بما بعده، فلا يفرض على البيت أن يتم معناه في ذاته، وهم يريدون أن يتحرروا من القافية الرتيبة، التي تتكرر من أول القصيدة حتى آخرها. . . كل ذلك شيء مشروع، ولطيف. أما أن يغدو التجديد ضرباً من الافتنان برصف الكلمات بحيث لا يبقى للبيت الواحد لا صدر ولا عجز، وبحيث تضيع الموسيقى الشعرية، وتغدو القصيدة أحجية رياضية يشق فهمها وحل رموزها، فذلك ما لا أستسيغه، ولكنني لا ألوم غيري إذا هو استساغه. ومن ثم كنت أريد لهذا التجديد أن يكون نابعاً من صميم حياتنا وروح لغتنا، إلا أنه لا يزال حتى اليوم بعيداً إلى حد كبير عن ذوقنا وعن روح لغتنا. أما هل يكتب له البقاء؟. . . فما من شك في أن القليل منه سيبقى، وهو الذي يعبّر عن حالات نفسية لا تنتهي بنهاية الجيل الذي قيلت فيه، وكما أنه يعد تطوراً بالنسبة إلى ما سبق، فهو بدوره سيتطور إلى غير ما هو الآن، فما من جديد إلا ويصبح قديماً يوماً ما. . . إلا الذي يملك في ذاته عصارة قوية من الحياة من شأنها أن تتخطى الأجيال، وأن تبقى ذات قيمة ما دام الانسان إنساناً. . .

هل أديتم رسالتكم الفكرية والأدبية؟. . . وهل أنتم راضون عن نتاجكم؟ وهل لنا أن نعلم تأثير هذا الانتاج على المجتمع العربي؟ أم أنكم تعدون نتاجاً جديداً يفوق بروعته كل ما قدمتم حتى الآن؟. . .

لو مت غداً لما كان في قلبي أقل حسرة على أشياء لم أكتبها. . . ولكنني، ما دمت حياً ودامت لي القدرة على الكتابة، فلن انقطع عن التأليف. أما أن يكون ما سأكتبه خيراً مما كتبته، فذلك ما لا أستطيع الحكم فيه. . . ولكنه من غير شك سيكون متمماً للرسالة التي حملتها حتى الآن. . .

(مجلة العالم، آب ١٩٥٩)

لماذا أعتنق التقمص؟

سألته أن يشرح لي رسالته فقال:

«رسالتي هي البحث عن معنى الانسان والغاية من وجوده. أهو كائن طارىء تتحكم فيه أقدار عمياء أم أنه كائن ينطوي على قوى هائلة تمكّنه في المستقبل القريب أو البعيد من أن يبلغ منتهى ما يتشوق اليه من المعرفة والحرية؟

«والحد الذي بلغته الآن في تفكيري يعطيني ما يشبه اليقين بأن في استطاعة الإنسان أن يعرف كل أسرار الكون وأن يتسلط على كل قواه فيصبح خالقاً لا مخلوقاً، ولكي يتم له ذلك لا بد له من فسحة أطول بكثير من عمر واحد. فالزمان كله هو الفسحة المعدة له ليبلغ غايته. لذلك تراني اعتنق عقيدة التقمص.

«ولذلك يشق عليّ أن أرى الناس في حياتهم اليومية يتهافتون على كل تافه ويبتعدون منتهى الابتعاد عن السعي وراء الغاية الأساسية من وجودهم. فالإنسان لو عرف قيمة نفسه لتضاءلت في نظره كل هذه الأمور التي تثير حروبه وأحقاده وشهواته. فهو لا يحقق ذاته عن طريق انتسابه إلى أمة دون أمة، ولا عن طريق الدين بمعناه المألوف، ولا عن طريق الصناعات والاكتشافات العلمية،

ولا عن طريق التحاسد والتنابذ والتناحر، فهذه كلها أصداف لا جواهر فيها.

إنها تفتقر إلى خبز الحياة، إلى الجوهر الذي إذا اهتدينا إليه بات كل شيء غيره ثانوياً في نظرنا.

«لو عرفت غايتي من وجودي لوجهت كل سلوكي نحو تلك الغاية. وإذ ذاك لأدركت أن كل إنسان على الأرض هو مساعد لي في بلوغ غايتي وليس عقبة في سبيلي. وإذ ذاك لأحببت جميع الناس بقطع النظر عن ألوانهم ولغاتهم وأديانهم وأجناسهم».

وصمت ناسك الشخروب، ولزمت أنا الصمت أيضاً. لقد مر في خاطري سؤال تهيبت طرحه ثم نظرت إلى ابن شقيقه نديم أطلب النجدة. وأخيراً قلت:

أيمكننا أن نسألك لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

وابتسم المفكر الكبير، وأطرق قليلاً ثم قال:

«هنالك أسرار في حياة كل منا لا يفهمها ومن الصعب أن يفهمها غيره. فكرت بالزواج أكثر من مرة حتى سن الأربعين. وكانت صلات بيني وبين النساء تمنيت لو تنتهي بالزواج. ولكن ظروفاً حالت دون ذلك، والظروف لم تكن من خلقي ولا من خلقهن..

«ومن بعد أن عدت إلى لبنان وانصرفت إلى العمل الذي لا أزال أقوم به تبين لي أن تلك الظروف كانت موقعة أحسن التوقيع وكانت في صالحي وصالح الرسالة التي أحملها. وبات من الأكيد عندي أنني لم أولد لأكون بعلاً لأمرأة بل بالأحرى لأكون أخاً لها. وهكذا انتفت فكرة الزواج من رأسي منذ ثلاثين سنة.

«ومن ثم فإن تفكيري في هذا الأمر قادني في النهاية إلى أن الزواج وإن يكن ضرورة للأكثرية الساحقة من البشر ليس ضرورة لرجل مثلي. فقد تزوجت ما هو أبقى من المرأة. وشعوري نحو مؤلفاتي ونحو قرائي هو شعور الرجل الذي

عنده عيال لا عيلة واحدة.

«ومن حسن حظي أنني لم أحرم الحياة العائلية فقد هيأت لي القوى الخفية التي ندعوها الأقدار أن أعيش مع عائلة أخ لي كما لو أنها عائلتي أنا. فأنا من هذا القبيل أُحسد ولا أَحسد».

وفي الواقع أن الأستاذ ميخائيل نعيمه يعيش مع شقيقه نجيب وقرينته زكية وأولادهم الثلاثة يوسف (٣١ سنة) ومي. وله شقيق آخر في الولايات المتحدة يدعى أديب.

وعندما سألت الأستاذ نعيمه عن عمر ابنة شقيقه الآنسة مي قال:

«إن أعمار النساء لا تذكر عادة». وضحك الجميع.

وأحببت أن أعرف سبب ايثار ناسك الشخروب البقاء قرب صنين وعدم السكن في بيروت فقال:

«أكره ضجة المدينة حيث الحياة أصبحت اصطناعية إلى حد بعيد، وحيث الناس يعيشون في أوكار، وحيث الشهوات تصطرع اصطراعاً محموماً مستمراً مفضوحاً ومستوراً، والذي استتر منه أفظع بكثير من الذي ظهر. ولأنني أؤمن بأن الجو الذي أعيش فيه يؤثر إلى حد بعيد في مجرى تفكيري. فأنا أؤثر جواً أصفى من جو المدينة لأستطيع أن أفكر تفكيراً صحيحاً صافياً.

«وهذا ليس تهرباً من الناس بل بالأحرى حباً بهم، لأنني إذا لم يتح لي أن أراهم بمنظار صاف لما استطعت أن أرى ما فيهم من حسنات ولا أن أدلهم على طرق غير التي يسلكونها.

«ففي اعتقادي أن الإنسان أعظم بكثير من أعماله ومن الحرام أن يغرق في رغوة من الحركة لا بركة فيها».

وسألت الأستاذ نعيمه عما يطالع في هذه الأيام فقال:

«طالعت في حياتي من الروايات ما أشبعني، ومن الشعر ما روى غليلي،

ومن الفلسفة ما وجه الكثير من أفكاري.

«أما الآن فقلما يشوقني أن أطالع الرواية أو الشعر أو الفلسفة وأكتفي بالكتب التي تهتم بالإنسان من حيث هو كائن.

«فالكتب التي تعالج النواحي الباطنية من حياة الإنسان والقوى التي لا تزال مغلقة في كيانه هي الكتب التي تهمني بالدرجة الأولى. حتى هذه لا أطالعها إلا إذا وقع لي منها ما يستولي على ذهني إما بطريقة عرضه للموضوع وإما بكشفه أشياء جديدة لم تخطر لي في بال.

«ولأن مشاغلي الكتابية ومراسلاتي وزواري في ازدياد فالوقت المتبقي لي للمطالعة يضيق يوماً بعد يوم».

قلت: وهل هناك مؤلف على الطريق؟

وأومأ الأستاذ نعيمه بالايجاب وقال:

أنت أول من سيعلم بذلك. فسيصدر لي في السابع عشر من تشرين الأول المقبل، وهو عيد ميلادي السبعين كتاب اسمه: (سبعون حكاية عمر).

وسيصدر الجزء الأول منه، وأنا أسميه المرحلة الأولى، يوم عيد ميلادي بالذات كما اتفقت مع الناشرين.

وقد استأذنت من الأستاذ نعيمه أن أجتزىء بعض فقرات من مقدمة الكتاب الجديد الذي يتحدث فيه عن حياته فأذن لي وهأنذا أثبت في ما يلي هذه الفقرات:

قال الأستاذ نعيمه:

«سبعون سنة!..

«يهون عليك لفظها. ويهون عليك عدها ـ من الواحد حتى السبعين. ولا يستعصي عليك حصر شهورها، وأسابيعها، وأيامها، وساعاتها، ودقائقها

وثوانيها. ولكنه فوق طاقتك أن تعود بها القهقرى، ثم أن تعرضها لمحة لمحة حسب تسلسلها في الزمان والمكان، ثم أن تنتزع من كل لمحة جميع ما حملته إليك من موحيات وتخيلات وانفعالات، وجميع ما حمّلتَها من حركات عفوية وغير عفوية، ومن وساوس ورغبات، ومن أحلام حلمتها في اليقظة والمنام. وملذات وأوجاع كتمت بعضها عن الناس وفضحت بعضها عن قصد منك وعن غير قصد.

«إنك خادع ومخدوع كلما حاولت أن تحكي لنفسك أو للناس حكاية ساعة واحدة من ساعات عمرك. لأنك لن تحكي منها إلا بعض بعضها. فكيف بك تروي حكاية سبعين سنة؟!»(١).

ثم يذكر الأستاذ نعيمه أن فضول القراء هو الذي دفعه إلى خوض هذه المغامرة، ويضيف قائلاً:

«ثمة مبررات لهذه المغامرة غير التي ذكرت. منها واحد قد يكون محض أناني. وهو أنني، إذ أنكب على هذا الكتاب فأستعيد ذكريات ما كان من أمري في هذه الدنيا، سأكون كمن يعيش عمره مرتين، ويقيني أن ذلك، وإن لم يعد إليّ نضرة الصبا وزهو الشباب، سيساعدني على تصحيح حساباتي مع نفسي، ومع الناس ومع الكائنات التي كان لها في حياتي نصيب. ومن الخير للإنسان أن يتلفت من حين إلى حين إلى الوراء إذ هو يتطلع أبداً إلى الأمام. فما أكثر ما نحسب أننا تركنا هذا الأمر أو تلك المشكلة وراءنا وإذا بهما يترصداننا عند عطفة في الطريق أمامنا.

«هناك مبرر ما أظنه يخطر للقارىء في بال. وهو اللذة التي يلاقيها الإنسان إذا هو تعرى أمام إخوانه الناس من جميع «أسراره» وأوزاره. فبات وكأنه البيت من زجاج ـ كل ما فيه مكشوف للعيان. إلا ما كان منه أبعد، أو أعمق، من

(١) «سبعون»: مؤسسة نوفل، ط ٧، بيروت ١٩٨٧، ج ١، ص٧.

متناول أبصار الناس وأفكارهم. فذلك وحده يبقى له بمثابة قدس أقداسه، لا يدخله أحد غيره.

ومبرر آخر، ولعله الأهم. وهو انني، مهما يكن شأني اليوم أو غداً في دنيا الفكر والقلم، ما برحت واحداً من الناس، تنعكس حياتي في حياتهم، وحياتهم في حياتي. وما قيمة ما كتبته وسوف أكتبه إلا في التجاوب بيني وبين الذين يقرأونني من الناس، وفي مدى التفاعل بيني وبينهم. ولو لم تكن بيننا أشياء كثيرة مشتركة لما كان هناك تجاوب أو تفاعل. فطينتي طينتهم. وغريزتي غريزتهم. وأرضي أرضهم. وسمائي وهوائي سماؤهم وهواؤهم. وشعوري باللذة والألم شعورهم. وما الفرق بيني وبينهم إلا في أنني قد استنتج من هذه الأمور كلها غير ما يستنتجون، وقد أتكيف بها وأكيفها بغير الطريقة التي بها يتكيفون ويكيفون. ولولا ذلك الفارق في التكيف والتكييف، وفي تقييم الأحداث والأشياء بحيث يطمئن واحدنا إلى ما ينفر منه غيره، ويقبل على أشياء يدبر عنها سواه، لما كان من مسوغ لتبادل النظرات والاختبارات إن بالقلم وإن باللسان».

وختم ناسك الشخروب مقدمة كتابه الجديد قائلاً:

«والآن وقد فتحت لك باب هذا الكتاب على مصراعيه، فلنعد سبعين عاماً إلى الوراء، إذا كان في الزمان من «وراء» ومن «أمام».

واختتمت أسئلتي إلى الفيلسوف الكبير قائلاً:

هل لك أن تروي لقراء «الأنوار» كيف تقضي يومك عادة؟

قال الأستاذ نعيمه:

«لست من الذين يضعون برامج لحياتهم من يوم ليوم، وأوقاتي ليست مقسمة تقسيماً لا يطرأ عليه تبدل من ساعة لساعة. فإذا جاءني زائر كان هو شغلي وأعطيته من وقتي قدر ما يريد. وإذا جاءتني رسالة أعطيتها من وقتي كذلك قدر ما تستحق. وإذا جاءني كاتب ناشىء يحمل إليّ مخطوطاً ليأخذ رأيي

فيه تركت جميع أشغالي وأعطيته الوقت الكافي لقراءة مخطوطه ثم إبداء رأيي فيه.

«وما تبقى من وقت أصرفه في التأليف أو في التفكير أو في تصريف شؤون بيتية أراها ذات شأن في حياتي. فأنا من الذين يتعشقون الزراعة لأنني أحب الأرض وكل ما تنبته الأرض. ولي شغف خاص بأن أحيي الأرض الموات وأن أضفي عليها شيئاً من الجمال إذا كانت تفتقر إليه.

«ولست أنسى جسدي ومتطلباته فأنا أنفق وقتاً في الراحة، وفي التأمل، وفي النزهة، وفي العيش مع الطبيعة التي ما مستها بعد يد إنسان. فالطبيعة لا تزال عندي من أعذب الموارد التي أستقي منها تأملاتي وأفكاري.

«لذلك قلّ ما يتشابه يومان من حياتي. فقد يمر نهار لا أضع فيه كلمة واحدة على ورقة. وقد يمر نهار آخر لا أرى لي فيه عملاً إلا الكتابة إلى حد أن أنسى مواقيت الأكل والنوم».

* * *

وقد لاحظت خلال الأربع والعشرين ساعة التي قضيتها في منزل ناسك الشخروب في بسكنتا أنه استيقظ باكراً حوالى الساعة الخامسة صباحاً. وأول عمل قام به هو الاهتمام بحديقة صغيرة من الأزهار أمام منزله، وقد رواها بيديه وقام بتنقيتها من الأعشاب البرية ونكش التراب حواليها. وقد قال لي إنه يهتم بهذه الحديقة الجميلة من أول الربيع إلى آخر الخريف.

وتناول الفيلسوف اللبناني فطوره بعد ذلك وكان عبارة عن فنجان من الشاي مع كعكة «أرشلي». وقال إنه يتناول أحياناً قطعتين من الخبز المحمص (توست) مع شيء من العسل. وأضاف قائلاً إن فطوره قد يكون أحياناً نوعاً من الفاكهة في أوانها.

ثم انصرف الأستاذ نعيمه إلى مكتبه في حوالى الساعة الثامنة وبقي فيه

حتى دعي لتناول الغداء، وذلك في حوالى الساعة الواحدة والنصف. وقال الأستاذ نعيمه إن غداءه قد يتنوع من الفتوش والمجدرة إلى أنواع الطبخ، لكنه لا يكثر من أكل اللحوم ويؤثر البقول والفاكهة عليها. وأردف قائلاً إن ما يأكله في وجبة واحدة قد لا يكفي صبياً في الخامسة من عمره ومن المؤكد أنه لا يكفيه . . .

واستراح الأستاذ نعيمه بعد الغداء حوالى ساعة ونصف الساعة، وقال إنه لا يستريح عادة بعد الغداء إلا في الصيف، أما في الشتاء فلا يستسلم للقيلولة مطلقاً.

وعاد بعد القيلولة إلى مكتبه حيث انكب على عمله حتى هبوط الظلمة. وعندها خرج للنزهة حول منزله. وقال لي إنه قلما يبتعد كثيراً عن المنزل لأنه أصبح اليوم يفتقر إلى الهمة التي كانت له قبل سنوات عندما لم يكن يقعده شيء عن رحلة طويلة يقوم بها وحده في الأودية والجبال المجاورة، وحيث كان يمضي نهارات بكاملها متجولاً ولا ورقة بيده ولا قلم. وقال إنه كان في تلك الرحلات كمن يتزود للعمل في اليوم التالي.

وقال أيضاً: «لم تعد همتي تسعفني في تسلق الجبال وتفقد الأودية السحيقة. لذلك أكتفي بالمشي في جوار البيت. وإذا اضطررت إلى السير بعيداً اتكلت على السيارة برغم أنفي . . .».

ويأوي الأستاذ نعيمه إلى سريره في ساعة باكرة من المساء عادة.

(جريدة الأنوار، بيروت ١٦ ـ ٩ ـ ١٩٥٩)

المرأة عند جبران وعندي

أخذتَ على جبران استسلامه للمرأة!.. وفي «سبعون» ما يشير إلى أن في حياتك استسلاماً لا يقل عن استسلام جبران لها، كيف تبرر ذلك؟

يحاسَب الكاتب بالهدف الذي يضعه لنفسه، وبالأساليب التي يتبعها في بلوغ ذلك الهدف. فأنا لا أحاسب «بايرون» على حياته التهتكية، ولا غيره من مشاهير الكتاب أمثال: «بلزاك، وبودلير» وسواهم، لأن ما من واحد منهم، وضع لنفسه الكمال الإنساني هدفاً.

والكمال كلمة مطاطة لا تعني عندي ما قد تعنيه عند سواي. أما عند جبران فالكمال الذي هدف إليه كان واضحاً كل الوضوح في كتاباته، وهو هدف الكمال المسيحي، وأعني الترفع عن كل الدنايا والطموح إلى الاتحاد بالأب في بنوة وأُخوة تذوب عندهما كل أنانية فردية، ومن أركان هذا الكمال: العفة التامة في العلاقات الجنسية، ولذلك قال المسيح:

«إن من نظر إلى امرأة واشتهاها في قلبه لعلة الزنى، فقد زنى». وهذه الحقيقة لم تفت جبران في كتاباته، فقد نوه بها أكثر من مرة وحسبي أن أذكر بيتين من أبيات قصيدته «المواكب» حيث يقول:

والحب إن قادت الأجساد موكبه   إلى فراش من الأغراض ينتحر

والحب في الروح لا في الجسم نعرفه   كالراح للوحي لا للسكر تنعصر

ولأنني تلاقيت وجبران في الإيمان بقوة العفة المطهرة، ذكرت القليل مما اتصل بي عن علاقاته الجنسية، ولم أتورّع عندما جئت لأكتب عن نفسي أن أفضح علاقاتي الجنسية لأبين لنفسي وللغير أن العفة لا تأتي إلا بعد صراع عنيف.

وإذا ما ذكرت أشياء عن علاقات جبران بالنساء فلأبين من الجهة الثانية أنه ما انفك حتى آخر حياته يصارع نفسه، وفي ذلك شهادة مني صارخة ـ لمن يعرف كيف يسمع الشهادة ويفهمها ـ باخلاص جبران لنفسه وللهدف البعيد الذي وضعه لحياته، وهو هدف لا يقيمه لنفسه إلا الذين أوتوا أن يبصروا من الحياة غير قشورها وغير ظواهرها.

ما رأيك بالشعر الحر؟ وما هو مستقبل هذا الشعر بنظرك؟..

كنت أوّل الداعين إلى التحرر من قيود كثيرة يفرضها علم العروض كما وصل إلينا من الأقدمين. فالقافية الواحدة من أول القصيدة حتى آخرها قيد يحدّ كثيراً من الانطلاقة الشعرية لذلك قلت بتنويع القافية، كذلك قلت بالابتعاد عن الموضوعات الشعرية التي التزمها الأقدمون على مدى مئات السنين ولكنني ما قلت يوماً بالاستغناء عن الوزن، وعن القافية، حيث لا تبدو القافية مصطنعة ومفتعلة، فالشعر في أساسه وجد للغناء، وكل قول لا يغنى، ليس حقيقاً بأن يدعى شعراً!.

إلا أنني لا أنكر على دعاة الشعر الجديد رغبتهم في الانفلات من التقاليد الشعرية التي ورثوها حتى الآن. فالتجديد من طبيعة الحياة، وكل جمود هو موت!..

على أن لا يقضي التجديد في الشعر على روعته الغنائية، وعلى أن لا يكون من الابهام بحيث يغدو فك رموزه ضرباً من فك الطلاسم السحرية.

أما أن هذا الشعر سيكتب له البقاء أم لا، ففي اعتقادي أن القليل منه

سيبقى، وهو الذي فيه تعبير صادق وقوي عن خلجات القلب البشري وعما تتعرض له النفس من شتى التأثرات الداخلية والخارجية.

ما هو تعليقك على القصة الحديثة؟ هل بلغت المستوى العالمي؟

القصة العربية الحديثة في تقدم مستمر، وقد بات عندنا منها ما لو ترجم إلى لغات أجنبية لاستساغه غير العربي، وأعني أن عندنا من القصص ما يعالج مشاكل إنسانية عامة، ويعالجها بطريقة فنية لبقة دون أن يبدو عليها التكلّف والتصنع والابتذال. وهذا النوع من القصص الذي يمكن أن يسمى عالمياً لا يزال ضئيلاً جداً عندنا. ويقيني أنه لن ينقضي زمان طويل حتى يبرز في دنيا العرب قصاصون يرتفعون إلى المرتبة العالمية.

ما هي بنظرك المنابع العربية التي استقى منها جبران، في القرن التاسع عشر؟

من المعروف عن جبران أن دراسته كانت محدودة جداً ولكنه كان كثير المطالعة. وكان يبدو لي من كتاباته، ومن أحاديثي معه، أنه تأثر بالصوفية العربية فكان يجلّ ابن الفارض، والحلاج، وابن عربي، ويؤثر أبا العلاء على المتنبي، ومن الشعراء المحدثين كان يعد فرنسيس مراش الحلبي في طليعة المجددين.

أحب أمنية لك في ذكرى الميلاد؟

في هذه الأيام المضطربة والتي يهيمن عليها شبح حرب طاحنة قد لا تُبقي على شيء من المدنية التي نعيش في ظلها ونعتز بها. ما من أمنية أعز لديّ من أمنية سلام طويل يسود العالم، عسى أن تنقشع عن عينيه غشاوات المطامع والشهوات الجامحة ويدرك أن للإنسان هدفاً من وجوده يتعدى جميع المطامع التي تفسد عليه حياته في هذا الزمان المظلم. والمسيح الذي يعيِّد العالم لمولده قد دعي بحق «ملك السلام» ويا ليت الذين يعيدون لميلاد المسيح يتعظون بمثله العظيم، إذ أبى أن ينازل أعداءه بسلاحهم فلم يلعن الذين لعنوه ولم يبصق على الذين بصقوا عليه، بل صلى من أجلهم قائلاً:

«أبتاه! اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

إن الذين يعيدون لميلاد المسيح دون أن يعرفوا روح المسيح إنما يعيدون لبطونهم، والمسيح منهم براء!..

(جريدة الجريدة الأسبوعية، بيروت ١٩٦٠)

حياتي في يوم

قال ميخائيل نعيمه وهو يشعل سيكارة:

بعض الذين يزورونني من الصحفيين لا يضعون أسئلة، وإن طرحوا أسئلة فتكون مطلقة يمكن الجواب عليها بكلمات.. أو بمجلدات.. فهل لديكم أسئلة؟

قلت: إن أفكار ميخائيل نعيمه لا يجهلها إلا الجهلة. نريد أولاً أن ننقل إلى القراء صورة عن حياتك اليومية. إن الناس يتمنون أن يرافقوا حياتك في يوم.

فارتاح المفكر الكبير في جلسته وشعَّ بريق عينيه بابتسامة عذبة وقال:

أنا في هذا الشتاء فضلت البقاء في بسكنتا على النزول إلى بيروت. أنا هنا مع أخي وزوجته وابنته. أخي ذهب اليوم ليصطاد في صنين. وقد رأيتم زوجته وابنته أمام البيت؛ أما أنا فكما ترون. إني أكتب الآن رداً على رسالة وردتني من حلب. إن الرسائل تأخذ الكثير من وقتي. فهي تردني من كافة أقطار العالم العربي، ومن كافة أقطار العالم الخارجي. وهذه الرسائل بعضها يحمل الثناء والتقدير لمؤلفاتي، وبعضها يطلب مني مقالات لصحف ومجلات، وهناك الكتب ـ الهدايا التي تردني ويطلب مني مؤلفوها أن أعلق عليها. والكتاب الذي

ألمس فيه مجهوداً فكرياً نافعاً أقرأه كله، أما الكتب الأخرى فأتصفحها.

* * *

قال ميخائيل نعيمه إن الرسائل والمقالات التي يكتبها باللغة الأجنبية يطبعها على الآلة الكاتبة، أما الرسائل والمقالات العربية فيكتبها بيده ولا يحتفظ بنسخة عنها.

كانت أمامه في الملف رسالة من سيدة أميركية تقيم في ولاية كولورادو اسمها «تيشا ايفر». تقول الرسالة ما معناه:

«قرأت كتابك مرداد خمس مرات. وبعد المرة الخامسة وجدت نفسي مسوقة لأكتب إليك هذه الرسالة. . إن منزلي يبعد عن مركز البريد خمسة أميال، وليس لديّ سيارة ولا أي وسيلة نقل أخرى. إنك، يا مستر نعيمه، أكبر إنسان أثر في حياتي. إن كتابك مرداد ردني إلى حقيقتي فعرفت نفسي».

* * *

وهذه رسالة أخرى من زوجة مدعي عام في الهند سمح لها بترجمة كتاب مرداد.

ثم هناك رسالة من صحفية هندية أيضاً طلبت منه مقالة لمجلتها فلبّى طلبها. تقول الرسالة ما خلاصته ومعناه:

«لست أجد الكلمات التي اعبر فيها عن شكري لتلبية طلبي بهذه السرعة. إن المقالة ليست مفيدة جداً وموحية للتفكير فحسب، بل لها مكانة خاصة في ضميري».

وأكثر ما يضايق ميخائيل نعيمه الدعوات التي يتلقاها لحضور الاحتفالات في مناسبات مختلفة، فهو لا يستطيع أن يتخلف عن الحضور خوفاً من القول إن ميخائيل نعيمه «متكبر» وهو لا يستطيع أن يلبي كل الدعوات ويحضر لها الكلمات فتأخذ القسم الأكبر من وقته وجهده.

قال لنا: الناس يظنون أن ميخائيل نعيمه يعيش في برج عاجي. وهذا عكس الحقيقة. فأنا إنسان قريب من التراب، من الصخور، من الأشواك، من العصافير، من الأشجار. وكيف أكون في برج عاجي وأنا أعيش كأي فرد من أهالي بسكنتا. وأهالي ضيعتي مثل كل الناس إذاً فأنا أعيش مع كل الناس. أنا أكتب لهم. أنا أنقل الأفكار من حياتهم إليهم. إني أعيش بينهم وهم يعيشون في قلبي.

ثم قال: أنا أستيقظ في الخامسة صباحاً فأهتم بزهور الحديقة. أسقيها وأنزع عنها الأوراق اليابسة، أو أزرع زهرة جديدة عثرت عليها. ثم أتناول فطوري وأعود لأكتب، وقد تبلغ الساعة الثانية بعد الظهر ولا أتذكر أني بدون طعام حتى تأتي زوجة أخي فتنبهني. بعد الغداء أنام قليلاً، ثم انهض لأستأنف الكتابة، أما في المساء والسهرة فإني ارتاح لا أقرأ ولا أكتب، وأكتفي بالتحدث إلى زائرينا من أهل الضيعة.

هذا في أيام الشتاء، أما في أيام الربيع والصيف فأقضي معظم وقتي في الشخروب. هل تعرفون الشخروب؟ ـ قرأنا عنه ـ الأفضل أن نزوره. إنه على خمسة كيلومترات من هنا. في الشخروب أعز ذكريات العمر. هناك أجد العالم الفسيح الذي أحب. سنتحدث على الطريق.

وفي السيارة التي كانت تتسلق بنا ضلوع الشخروب مال ميخائيل نعيمه نحونا وقال: في أيام الميلاد تكثر الأحاديث عن السلام أو عن السلم.. الجميع يتحدثون عن السلم، الحكام والقادة العسكريون والكتّاب يشغلون الاذاعات وأجهزة التلفزيون والمنابر والأقلام، ولكن السلام يظل في خطر ما دام المتحدثون عنه هم هم لا يتغير في نفوسهم شيء.. الناس يطلبون السلام فلا يحصلون إلا على الخصام... السلام الذي يطلبه هؤلاء هو عدو السلام.. كل ما تسمعون وتقرأون عن مساعي الساسة والحكام عن السلام هو مجرد كلمات لا أكثر.. فكيف السبيل إلى السلام وهم يصنعون القنابل الذرية ويجهزون الجيوش وينشئون القواعد وينفقون القسم الأكبر من موازنات دولهم على انتاج

الأسلحة وأعتدة الدمار؟. السلام لا يسن بقانون في مجلس النواب، أو يبرم بميثاق في مؤتمر. والسلام لا يحمى بمدفع أو مدرعة أو صاروخ. السلام لا يحتاج إلى من يحميه.

أذكر أني قلت مرة في موضوع السلام: «ألاَ فتشوا عن السلام في قلوبكم. أما في غير القلب فعبثاً تفتشون.. في تلك الرمانة المرصوفة بكل أنواع الشهوات والنزعات.. هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلام. فإذا وفقتم بين ما فيكم من نزعات تشدكم إلى فوق وأخرى تجذبكم إلى أسفل، وشهوات تسير بكم غرباً وأخرى تقودكم شرقاً عرفتم السلام وكنتم في سلام مع العالم حتى وإن كان العالم في اضطراب. وإلا بقيت تجتاحكم عواصف النزاع، وتتقاذفكم أمواج الخصام حتى وإن لم يكن في جو العالم من حواليكم ولا غيمة واحدة».

قليلاً جداً ما تكتب في السياسة، فهل يعني هذا أنك لا تهتم بها ولا تقرأ فيها؟

قال: أنا أقرأ الصحف يومياً وأُتابع الأحداث العالمية بدقة. ومرة طلبت مني إحدى المجلات مقالاً في السياسة أوضح فيه رأيي في الوحدة العربية وقد كتبت ذلك المقال، وربما كان المقال الوحيد الذي كتبته بأسلوب سياسي.

وما رأيك في الوحدة العربية؟

ليس أجمل من الوحدة العربية ومن كل وحدة بين البشر. ولكن الوحدة لا تتم بالأمنيات. هناك طريق طويل إلى الوحدة يجب تمهيده وتذليل عقباته بصبر وأناة وحكمة. ليس المهم الوحدة بل المهم الحياة في الوحدة. لا قيمة للحياة وللوحدة مع الفقر والجهل والمرض والعبودية. وليس الاستعمار وحده عدو الوحدة. هناك ما هو أخطر من الاستعمار الخارجي، أعني خوف المواطن من الغد، خوفه من عدم الحصول على اللقمة.. خوفه من مرض يفتك به ولا يستطيع ردعه.. خوفه من فقر مدقع لا ينتشله منه أحد. وهناك خطر رجال الدين الذين يضعون العقبات في طريق تطور الانسان ويمنعونه من الانطلاق في أجواء الحرية والتحرر من الخوف والوهم.

متى يبلغ الإنسان ذروة الحرية؟

الإنسان الحر لا تقيده قوى الأرض. والإنسان لا يكون حراً بمجرد استقلال وطنه. الأميركي هل هو حر؟ الفرنسي هل هو حر؟ كيف يكون حراً وهو مرغم على دفع الضرائب والخضوع لأنظمة وقوانين يكفر بها؟ كيف يكون حراً وهو مدعو لخوض معارك الحروب ضد إخوان له في البشرية يسمونهم أعداء؟. حرية الإنسان في نفسه. أنت عندما تكون حر النفس طاهر الفكر والقلب تستطيع أن تمتلك الكون. تستطيع أن تزين سقف غرفتك بالأقمار والنجوم. والذي يحمل في نفسه بذور العبودية لا تحرره قوى الأرض. لقد استطاع الإنسان أن يروّض الثور ويستعمله للفلاحة، ولكن الإنسان لم يستطع أن يروض وحيد القرن. واستطاع الإنسان أن يجعل الكلب حارساً على باب منزله، ولكنه لم يستطع أن يروّض الأسد ويجعله حارساً له، لأن الشمم والقوة من طباع الأسد ووحيد القرن، والضعف والمذلة من طباع الثور والكلب. ونحن في بلاد العرب عندما تكون لنا طباع الأسد من حيث القوة والشمم لا يستطيع أحد أن يستعمرنا.

«لقد وصلنا...» قالها ميخائيل نعيمه. فوقفت بنا السيارة. ثم ترجّل أمامنا نحو الكوخ الذي شهد طفولته و «شيطنات» الصبا. ووقفنا تحت السنديانة التي بلغت من العمر ٢٠٠ سنة. إنها بمثابة خيمة كبيرة تكفي ظلالها لاستقبال أكثر من عشرين زائراً في أيام الصيف.

وأين الكهف؟

إنه فوق الطريق، على بعد ٢٠٠ متر.

ومشى ناسك الشخروب أمامنا نحو الكهف، أو «فلك نوح» كما يسميه. كانت الأرض موحلة قليلاً بعد ليلة ممطرة. وعلى الرغم من متاعب وأفكار السنوات السبعين فقد كان ابن «سبعون» يمشي بهمّة الشباب وعلى رأسه قبعة يتقي بها حرارة الشمس، وعند كل منعطف كان يقف ليروي لنا حكاية من حكايات الشخروب. قال إنه قبل أن يهتدي إلى الكهف أقام خيمة فوق الطريق

وجعلها «مكتباً» له ولكنه لم يجد الراحة والسكون فيها فقد كانت أصوات الفلاحين والمارة تعكر صفاء الجو.

وكنا قد بلغنا ربوة صغيرة حيث الكهف فقال: وأخيراً!! اهتديت إلى هذا المكان.. هذه هي الصخرة.. ألا تشبه سفينة في البحر؟!

ودخلنا..

إننا لا نجد في وصف هذه الصخرة المجوفة أدقّ وأشمل مما وصفها ناسك الشخروب في الجزء الثالث من «سبعون».. «إنها صخرة عاتية.. شامخة تشبه من إحدى جهاتها سفينة في بحر. والله أعلم كم أفنت الطبيعة من السنين في تكوين تلك الصخرة ثم في تفتيت قلبها الصلد بحيث بات فيه فراغ بطول أربعة أذرع وعرض ثلاثة وعلو عشرة، وبحيث بات له مدخل واسع وعال من الجنوب وآخر ضيق وواطىء من الشمال، وإلى جانبه نافذة غريبة الهندسة جميلتها.. ذلك بالاضافة إلى الكثير من الرفاريف والتجاويف عن جوانب ذلك الفراغ، وبالاضافة إلى طبقة رقيقة من التراب تغطي أرضه وقد نبتت فيها شتى الأعشاب البرية».

ويقول ناسك الشخروب إنه اتخذ هذه الصخرة صومعة له في النهار واتخذ من الحجارة في داخلها مقاعده ومن ركبتيه منضدة للكتابة.

قال لنا وهو يشير إلى حجر صغير: «هنا كتبت البيادر» و«جبران خليل جبران» و«سبعون» بأجزائه الثلاثة.. وهنا استقبلت الكثير من الزوار.. من لبنان والعالم العربي والخارج، بينهم رجل الأدب ورجل السياسة ورجل الدين وغيرهم.. وكلهم كنت أستضيفهم على هذه الحجارة إذ ليس لديّ هنا من الأثاث غير ما أعدته الطبيعة.. وفي قلب هذه الصخرة كنت ولا أزال أشعر أن أمواج العالم الصاخبة تتكسر على عتبتها وجوانبها وترتد خائبة كما كانت تتكسر وترتد أمواج الطوفان عن فلك نوح».

سألته: بماذا تستأنس في هذه البقعة؟

قال: «كل شيء، حياً كان أم جماداً، جميل هنا. السنونو وعصفور النقار والفراش والأشواك والأزهار والتراب والصخر حتى الزحافات والحشرات. ثم تطلَّع إلى قمة الصخرة وقال: لي صديق في أيام الصيف.. عصفور نقار يغط كل يوم على الصخرة ويأخذ بالترنيم وأُجاريه أنا بتصفير من فمي فيأخذ بالهبوط قفزاً حتى إذا رآني طار وغاب ليعود مرة أخرى.

ومرة كنت أكتب هنا فإذا بثعلب يمرّ أمام الصخرة ويقف باطمئنان كأنه يبحث عن شيء أضاعه. وقد بذلت جهدي كي لا يشعر بوجودي وتفرجت عليه.

وأذكر مرة أن نسراً كبيراً حط على تلك الصخرة ووقف يفلّي ريشه في الشمس.

وتوقف ناسك الشخروب لحظة ثم تابع: إن هذه البقعة من الأرض جنة جميلة في أيام الصيف.. فيها الكرز الشهي والعصافير اللطيفة والمياه العذبة وأنفاس صنين الباردة، أما اليوم فإنها جرداء كما ترون كرأس صنين.

قلت لناسك الشخروب: لقد كتبت الكثير عن حياة جبران فهل لا زلت تذكر حادثة طريفة من حياته الخاصة معك لم تنشر بعد؟

فوضع ميخائيل نعيمه كفه على جبهته كأنه يستعيد ذكريات أربعين سنة وقال:

علاقتي بجبران طوال خمس عشرة سنة أي منذ أن عرفته حتى أطبقت أجفانه كانت صافية شريفة.. إلا أن هناك لمحة ـ وأسميها لمحة ـ تظهر الوجه غير المستحب في جبران. فقد كان يشك في صداقة أعز المخلصين له. المعروف أننا كنا نلتقي في إدارة مجلة «الفنون» أنا وصاحبها نسيب عريضة وجبران وعبد المسيح حداد، مثلما كنا نلتقي للسهرة في شقة نسيب حيث كنا نطهو طعامنا بأيدينا ونغسل الصحون. وذات ليلة التقينا كالعادة فحضّرنا عشاءنا وتعشينا. ثم قام جبران وعبد المسيح حداد ليحضرا القهوة في المطبخ، وبقيت

أنا ونسيب على المائدة. وكان نسيب شاعراً رقيقاً دمثاً ـ فأخذنا نتحدث في الشعر ونستعرض قصائد بعض الشعراء فنثني أو ننتقد، ومن الأبيات التي رددتها:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السوء تبدي المساويا

وفي هذه الأثناء كان جبران قادماً من المطبخ عبر ممر قصير إلى غرفة السفرة فسمع هذا البيت من الشعر ثم اكتمل عقدنا حول القهوة فرأيت جبران وقد تغيرت ملامح وجهه وانقبضت أساريره. وعبثاً حاولنا أن نعرف ما الذي طرأ على جبران حتى نقله من جو المرح والدعابة إلى جو الصمت والعبوس.

ومضت ثلاثة أيام دون أن ينزل جبران إلى إدارة «الفنون» وكنا نتساءل عن السبب فلا نعرفه. ثم التقينا كالعادة في السهرة. وفي تلك الليلة شئنا أن نتناول العشاء في المدينة فخرجنا. ووجدتها مناسبة لأكتشف سر عبوس جبران وانقطاعه عنا مدة ثلاثة أيام.. فتأبطت ذراعه وسرت وإياه بعيداً عن الرفاق ثم سألته عن سبب تغيبه فلم يجب.. وبعد الحاح قال: ألم تكن تقصدني أنا بالذات في ذلك البيت من الشعر؟

وقد نسيت بيت الشعر ـ وأي بيت تعني؟

قال:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السوء تبدي المساويا

قلت: «يا عيب الشوم عليك يا جبران!» أنا نسيت هذا البيت من الشعر ولا أدري كيف ورد عرضاً أثناء حديثي مع نسيب، وهو حديث بعيد كل البعد عني وعنك.

قال جبران: ظننتك تقصدني بهذا البيت لأني أعرفك تحبني، ولأنك تحبني لا ترى فيّ عيوبي.

وبعد عتاب اقتنع جبران بأني لم أقصده في بيت الشعر وانتهت المشكلة. وهكذا يبدو أن جبران كان يميل دائماً إلى الشك في صداقة أعز أصدقائه حتى

ولو كان هذا الصديق هو ميخائيل نعيمه.

قلت لناسك الصومعة: بعد عمر طويل، بعد أن تتقاعد عن الكتابة والتأليف هل ترتاح مطمئناً إلى وجود أعمدة للفكر في لبنان والعالم العربي؟

قال: عندي إيمان عظيم جداً بالشرق وبخصبه الفكري والروحي. وأعتقد أن الشعوب كالأفراد تمر بها فترات هجوع وفترات اندفاع، أي أنها ككل شيء في الطبيعة تنغلق ثم تنطلق. وإذا كنت أحسبني من الذين انطلقوا في الفكر الشرقي بعد سبات طويل فإيماني وثقتي بأنه سيأتي بعدي من يتابع تلك الانطلاقة، ولعله يسير أشواطاً أبعد مما سرت. أما متى يكون ذلك ومن هو الذي سيحمل الراية فعلم ذلك عند الله لا عندي.

ما قولك في التقدير الذي يلقاه أعمدة الفكر من الحكومة والشعب؟

إن الحكومات عندما تكرم المفكرين إنما تكرم نفسها. فالمفكر خالد في كتبه ومؤلفاته... هي وحدها تكرمه، ولكن الحكام في هذا الشرق لم يبلغوا بعد مستوى الحكام في الغرب، أي أن حكام الشرق تنقصهم الثقافة.. إن القسم الأكبر منهم لا يعرف من المفكرين إلا أسماءهم.. لم يقرأ لهم. لم يفهم فلسفتهم. فكيف نطلب من شخص أن يقدّر شخصاً آخر لا يفهمه. في روسيا، مثلاً، يقدسون مؤلفات ومخلفات مفكريهم وشعرائهم الخالدين، يحفظون كل قصاصة ورق كتب عليها مفكر يستحق التكريم، ويحفظون الأقلام والأشياء التي لمسها في صناديق زجاجية، حتى أضحت قيمة هذه الأشياء أغلى من جواهر القيصر.

* * *

وفي طريق العودة من الشخروب حدثنا «الناسك» عن رأيه في تطور العلم فقال: إن العلم سيرتد في النهاية على نفسه. سيصطدم أخيراً بجدار لا يستطيع اختراقه. وفي اعتقادي أن كل الاختراعات التي جاء بها العلم الحديث لم تؤد الغاية الجوهرية منها.

عندما صافحت ناسك الشخروب مودعاً سألته :

«هل من رغبة أو وصية؟» قال : «أن تنقل آرائي وخلاصة حديثي بأمانة» .

وها أنا أضع الحديث بين يديه وأيدي القراء، فأرجو أن أكون قد أديت الأمانة .

(جريدة الكفاح، بيروت ٢ - ١ - ١٩٦١)

شيوخ الأدب الحديث

صدر منذ حين في القاهرة كتاب في النقد الأدبي بعنوان «شيوخ الأدب الحديث» للأستاذ حبيب الزحلاوي. وقد اطلع عليه الأديب الكبير الأستاذ ميخائيل نعيمه، فكتب للمؤلف رسالة طريفة ننشرها فيما يلي مع الجواب الذي كتبه الأستاذ الزحلاوي.

عزيزي الأستاذ الزحلاوي

قرأت كتابك «شيوخ الأدب الحديث» فخيل إليّ أنك شئته قذيفة لا تُبقي ولا تذر. ولعل في ذلك موطن ضعفه وقوته. فاتهاماتك الخطيرة التي توجهها إلى عدد من أولئك «الشيوخ» على ما فيها من زخم وحرارة واندفاع - تبدو وكأنها مغرضة من قبلك لهدم جميع ما شادوه وبنوا شهرتهم الأدبية عليه. حتى إنّ قارىء الكتاب يخرج منه شاعراً بأن الذين كان يحسبهم في القمة لم يكونوا في الواقع غير زمرة من لصوص الأدب، وغير دجالين انتحلوا ما ليس لهم، وعاشوا السنين بشهرة مزيفة ووجوه مستعارة.

ما أظن أن في الأرض خساسة تضاهي خساسة الأديب يسطو على نتاج أديب آخر ثم يدعيه لنفسه. إنه حسبما قلت في بعض مقالاتي «كمن يأكل لحم أخيه نيئاً». وإنها لخدمة كبيرة للأدب يؤديها الناقد إذا هو فضح أمر أولئك

اللصوص. على أن لا يغمطهم حقهم في أشياء أخرى استقلوا في إبداعها ولم يكن عليها أي لوثة من السرقة أو التقليد.

ولأنني قليل الاطلاع على نتاج أكثر الذين تتصدى لهم في كتابك فلست في مركز يساعدني على الدفاع عنهم أو على تقبل جميع التهم التي توجهها إليهم. وحسبي من كتابك أنه كشف لي عن شبهات في حياة بعض إخواننا من أدباء مصر كنت أعتقدهم منزهين عنها.

لئن كان قصدك أن تخفف من البريق الذي يرافق أسماءهم فقد أفلحت.

بسكنتا ـ لبنان

المخلص

ميخائيل نعيمه

سيدي الأستاذ الجليل ميخائيل نعيمه

أي والله، لقد أردت أن يكون كتابي عاصفة عارمة تعرِّي الأقزام من أرديتهم الفضفاضة بعمائمهم المكورة التي أوهمت جيلاً من القراء ـ بعض الوقت ـ بات يعتقد أن شيوخه عمالقة جبابرة وأن تحت قبابهم أولياء وقديسين. وشئته قذيفة لا تبقي على الدجل الأدبي ولا تدع للرياء مجالاً أيّ مجال.

أي والله، لقد استبدلت بالقلم سهماً وبالمداد سماً بغية مماشاة الثورة الاجتماعية في أغراضها من جانبها الأدبي، وأساير روحها في خطواتها الحكيمة ومراميها البعيدة، وتذرعت بالصراحة والصدق، وما كانت الصراحة ولا كان الصدق في أي زمان علامة على الضعف أو شبحاً له، بل كانا دائماً وسيبقيان أبداً صورة واضحة نقية للقوة المطلقة التي تمثل روح الأدب.

وهل ثمة من دليل على نفي الضعف وإثبات القوة أوضح من سكوت أولئك الشيوخ الأعلام عن دفع ما اتهمتهم به وألصقته بأدبهم؟.

لقد تعمدت أن يكون بياني زخماً وحاراً لأن لا محيد للناقد عن الفصل

بين أمس الغابر واليوم الحاضر، ولا مناص له من هز تلك الأدمغة القديمة وإفراغها مما عشش فيها وفرّخ، لا للتنبيه بضرورة شحنها بمواد حيوية جديدة تلائم روح العصر الجديد وتوافق أغراضه ومراميه، بل ليسجل على الشيوخ فعالهم في عصرهم، وليحذرهم من أن الانتقال من برزخ إلى آخر لا يتيسر إلا للذين في مقدورهم إثارة نفسهم على نفسهم ذاتها. أي تنقيتها من سخائم الماضي وتطهيرها من أدناسه الفتاكة. ففي ـ ثورة النفس على النفس ـ يستطيع الأديب أن يحيا حياة طيبة مع الثورة التي أشعل هو نارها، ولن يشعل نار الانقلابات والثورات سواه.

وبعد، ليس الهدم غرضاً من أغراض النقد، ولا أعتقد أن ناقداً مهماً أوتي من قوة أدبية جبارة يستطيع هدم أديب واحد راسخ القدم في ميدان النشر والتأليف. وأزعم أن النقد الزخم الحار يساوي على القد النقد معتدل الحرارة والبرودة. والعبرة ليست في ميزان الطقس الجوي أو المزاجي، بل في الأديب المنقود نفسه، في مزاجه الحساس، في ضميره، في أصالته، في الأمانة في نشر رسالة الأدب، في تقديره معاني الحياة، في شعوره بالحق والخير، في انجذابه نحو الجمال. أما الأديب الخطاف النشال السارق فيستوي النقد عنده زخماً حاراً كان أو معتدلاً أو بارداً، تكفيه الإشارة أو لا تكفيه. . كما أزعم أن حرارة الناقد وليدة الإيمان الصادق، والغيرة الصادقة والحرص الصادق. والغيرة الصادقة والحرص الصادق. وكيف لا يغضب الناقد، وكيف لا ينفعل ويقسو في نقده وقد تسلل إلى حلبة النقد ونقنق فيها نفر من أدعياء النقد حملة المباخر والقماقم والمأجورين على المدح والتقريظ والثناء والتسبيح! كيف لا يقسو الناقد الحر وقد لطخ بعض شيوخ الأدب سمعة عصر من أبهى عصور الأدب وأكثرها ازدهاراً وشوهوه بالسرقة واللصوصية؟ .

وأخيراً يطيب لي أن أطمئن أستاذنا الجليل أن قصدي لم يكن تخفيف البريق الذي رافق شيوخ الأدب بل تنبيه مؤرخ الأدب إلى أن في مصر نقاداً تجردوا عن الغرض، وضحوا بالصداقة الشخصية حباً بالأدب، ولم يراعوا المودة الفردية على حساب الأدب، والتزموا الحقيقة لوجه الحق، وناصروا الأدب للأدب ولم يحفلوا

بعواء أحمق واحد وموتور واحد. ولم يزدهوا بالأنصار والمؤيدين.

القاهرة

حبيب الزحلاوي

(جريدة السياسة، بيروت ٢٤ - ٣ - ١٩٦١)

العربية في حرف لاتيني

ما هو الحادث الذي أثر على حياتك الأدبية بطريقة فعّالة والذي دفعك إلى تحقيق رسالتك، رسالة الأديب الإنساني الخيّر؟

ما أظنني أستطيع، ولا أظن أي أديب يستطيع، أن يبيّن جميع العناصر التي تتكوّن منها شخصيته الأدبية والظروف التي ساعدت في تكوينها. ومن الخطأ أن نفتّش عن حادث واحد كان له التأثير الأكبر في تكوين أي أديب. والذي أعرفه عن نفسي هو أنني حالما اتقنت القراءة بدأت أحسّ شوقاً جارفاً إلى التعبير عن نفسي بواسطة الكلمة التي شعرت بعظمتها من غير أن أفهم السرّ في الشعور. ومن بعدها كان عليّ أن أتقن اللغة التي هي الأداة الوحيدة للتعبير عما في النفس بواسطة الكلمة ثم أن أطالع كثيراً وبغير انقطاع وبنهم زائد كل ما يمكنني مطالعته من الأدباء العرب والإفرنج. أما العامل الأكبر الذي وجّه أدبي فكان الأدب الروسي الذي اطّلعت عليه أثناء دراستي في روسيا.

هل ان نقصاً في الأدب العربي أسهم في توجيه أدبك؟

لقد كان من اطّلاعي على الأدب الروسي أولاً ثم على الآداب العالمية الأخرى أن شعرت بفقر اللغة العربية إلى التجديد في الشعر والنقد والقصة وغيرها من الأبواب الأدبية. لذلك ابتدأت حياتي ناقداً لعله يتاح لي أن أوجه

الأدب العربي توجيهاً جديداً. ولم يفتني إلى جانب النقد أن أنظم الشعر بطريقة جديدة وأن أعالج القصة والتمثيلية.

ماذا تقترح لتشجيع الانتاج الأدبي في لبنان وخاصةً الدراسات الأدبية التي ما تزال محصورة؟

من الأكيد أن لبنان لا يفتقر إلى المواهب. ولكن الأدب عندنا لا يزال يتعثّر لأسباب كثيرة منها أن الأديب في بلادنا لا يستطيع أن يعيش من شق قلمه. وذلك ما يحمل الكثير من الأدباء الموهوبين على الانصراف عن الأدب إلى وظيفة أو مهنة تكفل له من العيش ما لا يكفله قلمه. ومنها كذلك أن الكثير من أدبائنا يأبى أن يكرّس كل حياته للأدب ويكتفي بما يبلغه من شهرة ولو في بيئة ضيقة ناسياً أن العمل الأدبي يجب أن يكون عملاً موصولاً مهما كلّف من العناء والحرمان وأنه لا يطيق له مزاحماً. والأديب لكي يتقن عمله عليه أن يتفرّغ له وحده فيكون أدبه بمثابة المتن في حياته وما بقي يأتي على الهامش. ثم هنالك من يكتفي باليسير من الثقافة العامة في حين أن الأديب لا بدّ له من الاطّلاع على أقصى ما يمكنه مما أنتجته عقول الناس وقلوبهم في كل أقطار العالم.

ما هي بنظرك يا أستاذ رسالة الأديب الخيّر؟

الاتجاه اليوم نحو ما يدعونه الأدب الواقعي، ويعنون بهذا الأدب أن يصوّر الأديب الحياة من حواليه كما هي بالتمام فلا يحاول تفسيرها ولا توجيهها. وعندي أن الأدب أكثر من تصوير: إنه تفسير كذلك وإنه الدعوة إلى الإنسان لفهم غايته من وجوده ولذلك كان لا بدّ للكاتب من أن يسير بقارئه إلى أبعد من القشور. فللحياة ظاهر وباطن وقشور ولباب مثلما للثمرة. والأدب الخيّر هو الذي يدلّك على اللباب فلا يلهيك بالقشور.

ما رأيك في مشروع استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني؟

إني من القائلين بتقارب الشعوب في شتى الميادين وهذا التقارب يسعفه كثيراً التشابه حتى في الأزياء الخارجية. فلو كان لنا أن نخلق لغةً واحدةً يتفاهم

بها الناس أينما كانوا لخطونا خطوةً واسعةً نحو خلق عالم واحد ودولة واحدة. أما ونحن ما نزال بعيدين عن خلق لغة عالمية واحدة فقد كان من المستحب لو اعتمدت جميع الشعوب في كتاباتها أبجديةً واحدة. ولو صحّ ذلك (أي لو اعتمدت جميع الشعوب أبجديةً واحدةً) لكنت من أول القائلين بالتنازل عن الحرف العربي. إلا أنني، وباقي الشعوب لا تزال متمسكةً بحروفها فكرامتي تأبى عليَّ أن أتنازل عن حرف ألفته لأعتنق حرفاً غيره.

قد يكون أن الحرف اللاتيني يسهّل علينا القراءة فنحن كما هي حالنا اليوم مع أحرفنا العربية مكرهون على قراءة أحرف لا تبصرها عيوننا وأعني بذلك الحركات، وذلك ما يجعل القراءة العربية من المشقة بمكان. إلا أنني أحبّ شكل الحرف العربي وأؤثر لو يقوم بيننا من يعدّله بطريقة نستطيع معها أن نقرأ فيه الحركات. كذلك إن حاجتنا إلى تعديل الحرف العربي باتت ماسة إلى أقصى حدّ فالحركات تشكل وحدها أكثر من عشرة حروف. ثم تأتيك حروف مستحدثة لا تستطيع العربية اليوم أن تستغني عنها مثال ذلك حروف الـ «O» والـ «E» والـ «G» (بالمصرية).

ما رأيك في ابدال اللغة الفصحى بالعامية؟

لو كان لك أن تجوب العالم العربي من المغرب إلى المشرق ومن حدود تركيا إلى آخر حدود الجزيرة العربية لسمعت من اللهجات ما تفهم بعضه وما قد لا تفهم منه شيئاً، في حين أنك لو كتبت اللغة العربية الفصحى لقرأها رجل في الرباط مثلما يقرأها آخر في بغداد ولفهمها الإثنان. وإذ ذاك فمن الإثم أن نستغني عن الفصحى التي نستطيع بها أن نكلّم العرب في شتى أقطارهم في حين أننا إذا خاطبناهم بالعامية فهمها القليل منهم فقط. ومن ثم فمن الصعب جداً بل من المستحيل أن نضع للعامية قواعد تكون من الدقة كالقواعد التي للفصحى. إلا أنني قلت ولا أزال أقول إنه من الخير للعربية الفصحى أن تستعير من المفردات التي خلقتها العامية لأنها تفصح عن حاجات الشعوب المتطورة أكثر من اللغة الفصحى التي يبدو تطورها بطيئاً جداً. فكأنها تحدّ من تطور

العرب بدلاً من أن تكون أكبر العون لهم. وإنه من المؤسف حقاً كلما جرى الحديث عن العامية والفصحى أن يقوم بيننا أناس ينادون بالويل والثبور زاعمين أن طلّاب الاصلاح في اللغة إنما يقصدون هدمها والاساءة إلى العرب بدلاً من الاحسان إليهم.

ما رأيك في الشعر الحرّ أو في ما يسمونه الشعر المنثور؟

التجديد من سنة الطبيعة على أن لا يفسد الطبيعة. فلا لوم على شعراء اليوم أن يفتشوا عن قوالب جديدة إذا ضاقت بهم القوالب القديمة. وإني لأسأل: «هل ضاقت الأوزان العربية بشعرائنا إلى حدّ أن يستغنوا عنها ويجعلوا من الشعر نثراً؟» «وإذا أصبح الشعر نثراً فما الفرق بينه وبين النثر؟». لست أجهل أن من النثر ما يسمو إلى درجة الشعر بما فيه من جميل التلوين والايقاع، إلا أنه يبقى أحطَّ مرتبةً من الشعر الموزون البعيد عن التكلّف والتصنّع. والوزن قيد ما في ذلك شك ولكن أي فنّ لا قيود فيه؟ أليست الكلمة بحد ذاتها قيداً؟ فإذا كان القصد من الشعر المنثور أن يتحرّر الشاعر من الوزن والقافية لأنهما يقيدان قريحته فعلامَ لا يتحرّر من قيود القواعد اللغوية كذلك؟ ثم علامَ لا يتحرّر من الكلمة وهي قيد كبير لفكره وعاطفته؟ وبالتالي إذا تساهلنا في الوزن والقافية فأي مبرّر لنا أن نتساهل في المعاني؟ والذي أراه في أكثر الشعر الحديث موزونه ومنثوره أنه يكاد يكون معمّيات. فقلّما تفهم ما يرمي إليه الشاعر وذلك لأنه يحمّل الكلمات غير معانيها أو فوق معانيها فيغدو الشعر وكأنه طلاسم.

ما هي مآخذك على منهج التعليم في لبنان؟ وماذا تقترح لتحسين هذا التعليم؟

إنه لمن السخرية أن تكون لنا في لبنان وزارة تدعى «وزارة التربية والفنون الجميلة» وأن نرى معظم مدارسنا تهتم بكل شيء إلا بالتربية. والتربية عندي تعني تربية النفس على حب الجمال والحق والعدل والإنسانية والابتعاد عن الموبقات والمخازي التي تشوّه وجه الحياة وتجعل طعمها مرَّ المذاق. وإنه لمن

المؤسف حقاً أن نرانا في بلدٍ كل ما فيه جميل إلا الإنسان الذي لا يعرف لذلك الجمال معنى ولا يقيم له وزناً. والجمال ليس في الطبيعة وحدها بل هو في الخلق الكريم كذلك إذا عرفنا كيف نهتدي إليه وكيف نربّيه. أما فيما يتعلّق بالمناهج الدراسية عندنا فإني أراها محشوةً بالكثير مما يرهق الطالب ويجعل الشقة واسعة جداً بينه وبين الحياة التي يحياها في كل يوم. فجميل بنا أن نعرف كيف عاش أسلافنا وماذا فكّروا وكيف نظموا ونثروا، وقبيح أن لا نعرف كيف نعيش نحن اليوم وبماذا نفكّر وكيف نكتب ونتفاهم. والأقبح من ذلك أن تكون الصلة بين المدرسة والحياة العامة واهيةً إلى حدّ أن التلميذ الذي يخرج من المدرسة بشهادة البكالوريا نراه غريباً في عالمه ولا غربة رجل من الأسكيمو في بلاد الكونغو.

لا بدّ للقائمين على تعليم النشء عندنا وتربيته من أن يعيدوا النظر في مناهجنا الدراسية على ضوء متطلبات حياتنا الحديثة. لعلهم لو فعلوا ذلك لنسفوا تلك المناهج من الأساس.

ما هي مشاريعك في حقل الانتاج بعد أن أتممت مذكراتك «سبعون»؟

اعذرني عن هذا الجواب. . .

وأخيراً سألنا الأستاذ نعيمه عمّا إذا كان له من كلمة يوجهها إلى النشء الطالبي؟

فأجاب: على الطالب أن يفهم أن المدرسة لا تأتي بالعجائب وأن الشهادة لا قيمة لها إلا على قدر ما يودعها من نفسه. فوظيفة المدرسة أن تزوّد الطالب بالمفاتيح إلى شتى المقصورات التي تختزن فيها الانسانية اختباراتها. وعليه إذا شاء أن ينتفع بما في مثل هذه المقصورات أن يحسن استعمال المفاتيح. . وهو لن يحسن استعمالها إلا إذا هو أحسن الدخول إلى نفسه أولاً والوقوف على نزواتها وأشواقها وتطلباتها. وبكلمة أخرى على الطالب أن يقيم لحياته هدفاً بعيداً ثم أن يسعى بكل قواه نحو ذلك الهدف. من الخير له أن يكون هدفه أبعد

من التقاط اللذات العابرة واقتناص الشهرة من أقرب السبل. عليه أولاً أن يصفّي نفسه من أكدارها كيما يبدو العالم الذي حواليه صافياً في عينيه. . .

(مجلة كليتنا، فصلية، تصدرها الكلية اليسوعية في الجمهور، عدد الفصح ١٩٦١)

ثورة البلاشفة

هل تؤمن بإقليمية الأدب العربي وتعتقد أن هناك أدباً لبنانياً وأدباً مصرياً وأدباً مغربياً وأدباً تونسياً وأدباً جزائرياً؟

الصبغة التي يتميز بها أي أدب مستمدة أولاً من اللغة التي يكتب بها ثم من التربة التي ينبت فيها. ففي استطاعتك مثلاً أن تتحدث عن الأدب الانكليزي أي كل ما كتب باللغة الانكليزية، ولكنه لا بد لك من التوضيح فيما بعد إذا كان هذا الأدب قد نبت في الجزر البريطانية أو في الولايات المتحدة أو في كندا أو في أوستراليا أو غيرها من الأقاليم التي تغلب عليها اللغة الانكليزية، وعندئذ أنت على حق إذا تحدثت عن الأدب الأميركي ثم عن الأدب الانكليزي الخ.

وهذا هو الوضع بالنسبة إلينا نحن العرب فلا بد لكاتب مصري يكتب القصة أو التمثيلية ويستمد موضوعها من حياة مصر الخاصة أن يصبغها بصبغة مصرية، وعندئذ لا لوم عليك إذا دعوته أدباً مصرياً، وهكذا قل في باقي الأقطار العربية.

أما إذا تحدثت عن الأدب العربي إجمالاً من حيث هو أدب يرتكز إلى اللغة العربية كأداة للتعبير فكل ما يكتب في العربية عندئذ هو أدب عربي.

وليس على الأديب أن يحصر همه في وطنه إلا إذا هو شاء ذلك، وإذ ذاك

فأدبه إقليمي، أما الذي يتخذ مواضيع من أمور تتعدى حدود الإقليم فأدبه أدب عربي شامل.

على هذا النمط كان القدماء يميزون بين الشعر الأندلسي والشعر المغربي والشعر المشرقي من غير أن ينزعوا عنه صبغة الشعر العربي.

يقولون إن الحرب تقلب الأوضاع والمفاهيم. فهل ترى أن الحرب العالمية الثانية قد كان لها هذا الأثر في الأدب العربي والعقلية العربية؟

ما من شك بأن للحروب تأثيراً بالغاً على حياة الشعوب في كل مكان وعلى الأخص إذا كانت حروباً على نطاق عالمي بحيث لا ينجو من ويلها أي شعب من الشعوب. والحربان الأخيرتان كانتا على هذا النطاق، لذلك كان لهما أبعد الأثر في تحويل مجاري الحياة البشرية وتوجيهها في سبل لم تكن تخطر للناس في بال قبل حدوث هاتين الحربين.

والفرق بين الحرب الأولى والحرب الثانية هو أن الأولى عقبتها مدة هدوء واستراحة نسبية فانصرف العالم إلى مزاولة أعماله من غير أن يكون سيف حرب أخرى مسلطاً فوق رأسه، لذلك استطاع الأدباء بنوع خاص أن ينتجوا وأن يتبعوا طرقاً جديدة، فكانت لنا في الديار العربية تلك النهضة الأدبية التي ما تزال آثارها بادية حتى الآن.

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد اختلفت الحال اختلافاً كبيراً عما كانت عليه بعد الحرب العالمية الأولى ذلك لأن الحرب العالمية الثانية سببت للعالم دماراً أشد هولاً بكثير مما سببته الحرب العالمية الأولى، ثم عقبتها ما اصطلح الناس على تسميته بالحرب الباردة، فنحن نعيش اليوم في جو حربي وإن كنا لا نسمع المدافع تزأر ليل نهار ولا نشعر بالقنابل تنهلّ علينا من الفضاء فتدمر مساكننا وتتركنا مشردي الذهن والبال.

وهذه الحرب الباردة مردّها في الأساس إلى أن الحرب العالمية الأولى تمخضت عن ثورة لم يعرف العالم لها مثيلاً من قبل وأعني بها ثورة البلاشفة

فهذه الثورة وما جاءت به من تفكير جديد وأنماط جديدة للمعيشة قلبت الأوضاع رأساً على عقب وقسمت العالم إلى معسكرين يحاولان أن يتفاهما وأن يتعايشا ولكنهما حتى الآن لم يبلغا شيئاً من التفاهم في كيفية تعايشهما تعايشاً سلمياً على هذه الكرة الأرضية التي ليس لنا حتى الآن من مسكن سواها، ولعلنا في المستقبل البعيد ننزح عنها إلى أجرام أكبر منها وأغنى منها. أما في الوقت الحاضر فلا مندوحة لنا عنها. وأخشى حتى إذا اكتشفنا عوالم جديدة أن لا يكون شأننا معها خيراً من شأننا مع الأرض فنحمل إليها جميع خصوماتنا وترهاتنا التي تجعلنا شعوباً متناثرة في حين أنه كان في إمكاننا أن نعيش أسرة واحدة تشدها أواصر الإنسانية ويجمعها هدف إنساني واحد.

هل تؤدي اللهجات العامية في كل بلد من بلاد العرب التعبير الفني الكامل في الانتاج الأدبي؟

لا. فاللهجات العامية عند مختلف الشعوب العربية متباينة إلى حد أن رجلاً في الرباط يكاد لا يفهم رجلاً في العراق وأن عربياً في حلب لا يستطيع أن يتفاهم مع عربي في صنعاء. فنحن من حيث تعدد اللهجات في بلبلة دائمة. ومن حسن حظنا أن لنا لغة واحدة تجمعنا وهي اللغة الفصحى وهذه ذات تراث قديم غني، وإنه لمن الإثم أن نتخلى عن ذلك التراث في حين أن لهجاتنا العامية ليس لها أي تراث أدبي وهي لا تتسع للتعبير عن أشياء تتعدى حاجات الساعة، ومن ثم فهي لا تملك شيئاً من القواعد التي تضبط معانيها وتضبط حتى كتابتها بطريقة تسهل على القارىء قراءتها وفهمها.

ما هي في رأيك الوضعية الحالية للأدب العربي؟

الأدب العربي في الوقت الحاضر هو في حالة انتقال وإن شئت فقل في حالة مخاض. فأنت ترى من جهة أن المشكلات السياسية قد طغت على الأدب طغياناً لا يترك له الوقت للتنفس والتفكير فيما هو أبعد من السياسة. فالشعوب العربية التي عانت ما عانت من جور الاستعمار هي حديثة العهد بالاستقلال ولم

يتسع لها الوقت حتى الآن لترتيب بيتها ولمّ شعثها والتفكير فيما هو أبعد من تدعيم استقلالها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

لذلك لا يؤمل للأدب العربي في الوقت الحاضر أن يتخلص بسهولة من هذه العوامل التي تؤثر في حياة شعوبه أبعد التأثير.

أما إذا استطاع العالم أن يتجنب حرباً نووية وأن ينعم بفترة طويلة من السلم وتمكن العرب من أن يطمئنوا إلى حاضرهم ومستقبلهم فلست أشك أننا سنعطي العالم أدباً يتجاوز حدودنا ويجد فيه غير العربي غذاء لذوقه وفكره وروحه.

بماذا تنصح شباب المتأدبين العرب؟

أنصح الشباب العربي:

أولاً ـ أن لا ينطوي على نفسه وأن لا يقنع من إنسانيته بعروبته.

ثانياً ـ أن يقيم لحياته هدفاً أبعد من المتعة والكسب والوصول إلى شيء من الثروة والشهرة.

ثالثاً ـ أن يُخلص لنفسه فلا يقول غير ما يعتقد ولا يعتقد غير ما يقول وبكلمة أخرى أن لا يخدع نفسه ولا يخدع غيره. أن تكن مخافة الله هي رأس الحكمة في نظر رجال الدين فالصدق يجب أن يكون رأس الحكمة في نظر الأديب والمتأدب.

رابعاً ـ لا بد للأديب أو المتأدب أن يؤمن بنفسه أولاً وبما يقوله ثانياً لكي يكون ما يعطيه للناس ذا قيمة وشأن. فأنت إن لم تؤمن بنفسك لا تستطيع أن تعزز الإيمان في نفس غيرك، وأعني أنك إن لم تكرم نفسك كإنسان فلن تكرم الإنسان في غيرك وإذ ذاك فلا أنت إنسان ولا هو إنسان.

ونصيحتي الأخيرة للشباب المتأدب هي أن يكرع من الثقافة ما استطاع فليس يكفيك في هذه الأيام أن تعرف تاريخ العرب مثلاً وتجهل كيف عاش غير

العرب من الشعوب وماذا أنتجوا وماذا قدموا للبشرية، فإذا توفرت الموهبة وتوفرت الثقافة كان من السهل على من يحلم بمجد الأدب أن يسجل اسمه بين الأدباء الذين لهم قيمة.

(جريدة الصباح، تونس، ١٧ - ٦ - ١٩٦١)

العين الثالثة

كيف بدأتم حياتكم الأدبية وما هي العوامل التي دفعتكم إلى الاشتغال بالأدب؟

في كتابي «سبعون» الذي صدر المجلد الثالث والأخير منه في العام الماضي أحكي حكاية عمري منذ أن وعيت نفسي وحتى بلوغي السبعين. ومن مطالعة ذلك الكتاب يتضح للقارىء أن النزعة إلى الكتابة تملكتني في سن مبكرة جداً ثم طغت على جميع نزعاتي أيام دراستي في روسيا ما بين ١٩٠٦ و ١٩١١ فما أن اتقنت لغة البلاد حتى رحت أنظم الشعر وأقوم ببعض المحاولات في كتابة القصة والمقالة ومن منظوماتي في تلك الفترة باللغة الروسية قصيدة «النهر المتجمد» التي نقلتها بعد سنوات إلى العربية فلاقت انتشاراً واسعاً. وهي مدرجة في مجموعتي الشعرية «همس الجفون».

أما حياتي الأدبية كما يعرفها العالم العربي فقد ابتدأت بمقال نقدي كتبته عام ١٩١٢ إذ كنت طالباً في جامعة واشنطن بالولايات المتحدة. وذلك المقال كان النواة لمقالات نقدية أخرى دخلت فيما بعد في كتابي «الغربال».

نعلم أنكم تأثرتم بالكتّاب الروسيين. فما هو الوجه الخاص الذي تأثرتم به من الروح الروسية؟

إن ما يعرف اليوم بالأدب الواقعي بلغ ذروته على أيدي الكتّاب الروس أمثال غوغول وتورغينيف ودوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف وغوركي. وهؤلاء فتحوا لي الباب إلى الأدب الإنساني الرحب، فنهجت نهجهم في ما صنفت من قصص. أما في النقد فقد وجدت في بيلينسكي ـ إمام النقّاد الروس ـ مثلاً رائعاً للنقد الرفيع. وأما في الشعر فقد أعجبت كثيراً ببوشكين ولرمونتوف ونكراسوف.

ما رأيكم في الأدب الملتزم؟ وهل أنتم ملتزمون لمذهب فكري؟

الالتزام في طبيعة الأدب فليس لأي أديب يحترم نفسه ويقيم وزناً لأدبه إلّا أن يلتزم ما تمليه عليه أحاسيسه وأفكاره وتخيلاته وتأملاته في الحياة التي يحياها. أما أن يُكره الأديب على التزام حياة غير حياته فأمر يتنافى وطبيعة الأدب.

وأما المذهب الفكري الذي ألتزمه فهو مذهبي. وهو يقوم على اعتبار الإنسان كائناً تتمثل فيه القدرة التي ندعوها الله كما تتمثل الشجرة في البذرة. فحياته في تطور مستمر من الناسوت إلى اللاهوت. وتطوره يكون بطيئاً أو سريعاً بنسبة إدراكه لحقيقة كيانه، وبنسبة ما يبذله من جهد لبلوغ تلك الحقيقة.

هل تنتمون إلى الفلسفة المادية أم المثالية، ولماذا؟

إذا كان ما يعنيه السؤال بالمادية والمثالية هو أن الأولى تنفي وجود الروح، وأن الثانية تؤمن به فأنا مثالي. فالذي يبدو لي هو أن في الكون قوة أزلية أبدية هي منه بمثابة المحور. وهذه القوة لا تنفك تشعّ وتنبض بغير انقطاع دون أن تزيد أو تنقص فهي أبداً هي ولكن ما يصدر عنها من اشعاع ونبض يتكاثف ويتباطأ بنسبة ابتعاده عن المحور. فيتكون منه ما ندعوه «مادة» بمختلف أشكالها وألوانها: على حد ما يتكون الضباب والسحاب من الأبخرة الشفافة التي لا تبصرها العين. فالمادة لا وجود لها في ذاتها. وإنما تستمد وجودها من القوة التي في المحور، والتي لا ندركها بحواسنا. وهي عرضة للتغير المستمر ما بين ولادة ونمو وانحلال وموت إلا متى عادت إلى مصدرها.

ولأن الإنسان، بالاضافة إلى جسده المادي، يملك القدرة على التفكير والتمييز وعلى التخيل والإرادة، فقد بات لا يهنأُ له عيش في دنيا لا تستقر على حال، وجميع ما فيها إلى الزوال. وبات يشويه الشوق إلى كينونة لا تولد ولا تنمو. فلا تنحلّ ولا تموت. وهي كينونة القدرة التي في المحور. وبكلمة أخرى، لقد بات الإنسان يشتاق العودة إلى مصدره الذي انفصل عنه غير واع ما هو ليعود إليه وهو يعي ما هو. وهذا الشوق يختلف في الناس حرارة ومدى باختلاف المستوى الذي بلغه كل منهم في تَفَتُّحِه الفكري والروحي. فلا عجب أن تجد بينهم من ليس يبصر من الحياة غير جانبها المادي، ومن هو على نقيض ذلك، فلا يهمّه من الحياة غير جانبها الروحي.

ولكننا، ما دمنا من لحم ودم، فمن الإثم أن نتجاهل البريء والصالح من حاجات اللحم والدم. أما الإثم الأكبر فهو أن نتجاهل حاجات الروح فنحصر همّنا في المادة كما لو كانت هي البداية والنهاية والغاية التي منها تنبع وإليها تعود كل غاية.

هل بلغت القصة العربية في نظركم المستوى الإنساني العالمي الذي يؤهلها لجائزة نوبل؟

القصة العربية، على حداثة عهدنا بها، في تقدم مستمر. وعندنا منها ما لو تُرجم إلى لغات أجنبية للقي من يقرأه. إلا أننا لم نخلق حتى اليوم روايات عربية تستحق أن تقف بجانب الروايات الغربية الشهيرة، وأن تحظى بجائزة نوبل.

هل توجد آداب عربية محلية أم أن الآداب العربية تعبّر كلها عن النفس العربية إجمالاً؟

للأدب في كل قطر عربي لونه الخاص تضفيه عليه طبيعة ذلك القطر من حيث تكوينه الجغرافي والسياسي والاجتماعي ومن حيث مستواه الثقافي، ونزعاته وعاداته، ومزاجه ومشكلاته. إلا أنه أدب يكتبه عرب بلغة عربية ويقرأه

العرب في شتى ديارهم فهو أدب عربي وللعرب أجمعين، وهو بالتالي يعبّر عن بعض الصفات المشتركة بين العرب التي يمكن أن ندعوها «النفس العربية».

يقولون إن الشرق بدأ يفقد روحه ويعتنق فلسفات أجنبية عنه. فهل هذا صحيح وما هي نتائج ذلك؟

بين الشرق والغرب فوارق كثيرة. وأهمها، في اعتقادي، هي الطريقة التي يتّبعها كل منهما في مواجهة عقدة الوجود، وفي كيفية حلّها حلاً يرضى عنه الفكر والوجدان. وعقدة الوجود تتمثل لنا في أسئلة ثلاثة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

أما الشرق الذي هو أعتق من الغرب بكثير فقد واجه هذه العقدة بالتأمل الباطني. فوجد المفتاح إلى حلها في القوى الهاجعة في أعماق كيانه. وأبرزها قوة البصيرة أو ما يمكن أن ندعوه «العين الثالثة». فهذه، إذا انفتحت، كان في إمكانها أن تنفذ من خلال أكسية الأشياء المتغيرة إلى جوهرها الذي لا يتغير - إلى الله. ولا تنفتح البصيرة إلّا في الذين يكرّسون جلّ قواهم لفتحها. فيوجهون إليها أشواقهم ويطهّرون قلوبهم وأفكارهم من الشهوات التي تنسدل ستاراً كثيفاً بينها وبين الحقيقة كما ينسدل الضباب ستاراً بين العين والشمس. ولأن الشرق في تاريخه الطويل قد عرف أكثر من واحد انفتحت بصيرته فلا عجب أن يكون منبتاً خصباً للأديان.

وأما الغرب فقد آثر أن يعالج عقدة الوجود بالعمل المنظّم لا بالتأمل المضني، وأن يهتم ببصره قبل اهتمامه ببصيرته. وإذا هو اتخذ له ديناً من أديان الشرق فلكي يخدّر به أشواقه إلى معرفة مصدره ومآبه والغاية من وجوده كيما ينصرف بكل قواه إلى تنظيم حياته المادية دون التلفّت كثيراً إلى أبعد مما يتناوله بالخبرة الحسيّة. ومن هنا كان اعتماده الأكبر على العلم. ولعل العلم، متى بلغ أشده، انتهى بأهله إلى حيث انتهى من قبله أهل الديانات الشرقية.

إلا أن الناس في الشرق ليسوا كلهم أنبياء انفتحت بصائرهم على حقيقة

الوجود. لذلك تمسكوا من دياناتهم بالقشور فخسروا الأرض ولم يظفروا بالسماء. ولا الناس في الغرب كلهم علماء. ولكنهم أقبلوا بنَهم على ما حققه لهم العلم من منجزات. فربحوا الأرض وأفلتت منهم السماء.

والذي يبدو لي في هذه الفترة من حياة الناس أن الموجة التي أطلقها العلم ستطغى على العالم شرقاً وغرباً إلى أن تتكسر على صخور الأسئلة الثلاثة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وإذ ذاك تنكفىء لتحل محلها الموجة التي أطلقها الشرق من زمان، والتي لا خلاص للعالم إلا بها. أما الآن فلا مفر للشرق من موجة المادية التي أخذت تجتاحه من الغرب، ولا قدرة له على محاربتها قبل أن تستنفد قوتها. وهذه الموجة لا تخلو من الخير للشرق، وعلى الأخص فيما يتعلق بتنظيم حياته الاقتصادية والاجتماعية. وبالتخلص من رواسب كثيرة ورثها من الماضي فحدّث من تطوره المادي والروحي بالسواء.

كيف ترون الوصول إلى العدالة الاجتماعية والسياسية في الشرق العربي وبين البشر عامة؟

ليس يعرف العدالة الاجتماعية والسياسية إلاّ من ساوى الناس بنفسه في الحقوق والواجبات. فما شبع وجاره جائع. ولا تنمرد وجاره ذليل. وهؤلاء قلة ضئيلة في الأرض. أما التباين في حظوظ الناس من حيث مواهبهم ومؤهلاتهم للعيش فسيبقى قائماً ما دام التفاوت قائماً بين ما يبذله الواحد والآخر من الجهد في تفهم الكون، وبين الهدف الذي يقيمه هذا وذاك لنفسه من حياته والوسائل التي يلجأ كل منهما اليها في تحقيق ذلك الهدف.

والعدالة الاجتماعية والسياسية، كما أفهمها، لا تحققها الثورات المسلحة. وتحققها ثورة فكرية، روحية تبني الإنسان من الداخل لا من الخارج، فتحرره من جميع التّرّهات التي أصبحت أغلالاً لفكره وروحه على مدى العصور.

ما هي انطباعاتكم عن إقامتكم بتونس، وما هي وجوه الشبه في نظركم

بين تونس ولبنان؟

لم تكن الأيام العشرة التي أمضيتها في تونس بكافية لتعطيني صورة كاملة عن الحياة التونسية في مختلف مجاريها. إلا أن ما أبصرته بعيني وسمعته بأذني أثار إعجابي بل أكاد أقول دهشتي. فالبلاد، على حداثة عهدها بالاستقلال، تغلي وتفور بالحركة. وحركتها كلها بركة.

ولقد سرني بنوع خاص إقبال الأجيال التونسية الطالعة على اللغة العربية وآدابها. حتى لتحسبهم ركباً برّح به العطش في الصحراء وبغتة وقع على واحة. ومما لفت نظري أن التونسيين في طموحهم وأخلاقهم وحتى في تكوينهم الجسداني، يشبهون إخوانهم اللبنانيين إلى حد بعيد. ولا عجب فالصلة بين لبنان وتونس تعود إلى ما قبل المسيح بمئات السنين.

(جريدة العمل، بيروت ٣٠- ١١- ١٩٦١)

جائزة رئيس الجمهورية

لقد كان من الطبيعي أن يكون أسبوع الكتاب أول ناحية تناولها حديثنا، ليس من أجل جائزة الخمسة آلاف ليرة التي منحت للأستاذ ميخائيل نعيمه بل من أجل الناحية المعنوية فيها، وبادرة الدولة الأولى في هذا المجال.

وقد تحدث الأستاذ نعيمه عن هذه البادرة فقال:

أنا لا ألوم الدولة إذا لم تمنحني أو تمنح أياً من الكتاب والأدباء جائزة باسمها، فالدولة يجب أن تقرأ ما نكتب أولاً، وعلى أساس اقتناعها تمنح الجائزة.. أما وأنها لا تقرأ فلا لوم عليها إذا لم تمنح أية جائزة، لأنه من الضروري أن تعرف لماذا تمنح الجائزة. وهذا لعمري أضعف الإيمان.

ثم لخص الأستاذ نعيمه الكلمة التي ألقاها في النادي الثقافي العربي بعد اعلان فوزه بجائزة رئيس الجمهورية فقال:

لقد اقترحت أولاً: إنشاء جمعية لأصدقاء الكتاب في كل من البلدان العربية على غرار الجمعية التي تألفت في لبنان على أن يكون لهذه الجمعيات دستور واحد ونهج واحد.

ثانياً: أن تقيم هذه الجمعيات في جميع البلدان العربية أسبوعاً للكتاب

على غرار الأسبوع الذي تقيمه جمعية لبنان.

ثالثاً: أن يجري في نهاية أسبوع الكتاب مؤتمر عام لجمعيات أصدقاء الكتاب في كافة البلاد العربية، وتبحث في هذا المؤتمر مشكلة الكتاب وكيفية النهوض بالكتاب وتيسير تبادله بين البلاد العربية إلى آخره.

ثم اقترحت أن تسعى هذه الجمعيات إلى إقناع أحد الأثرياء العرب وهم الآن يعدّون بالمئات في المغرب، في الخليج العربي، في السعودية، في ليبيا، إلى آخره. يكفينا البترول العربي أنْ نستثمر من هذه الثروة الهائلة ولو مليوناً واحداً يخصص ريعه لجوائز تمنح في البلاد العربية لِعَربٍ خدموا القضية العربية عن طريق الأدب أو العلم أو الفن إلى ما هنالك من المجالات والنشاطات البشرية. وبكلمة أخرى اقترحت أن تكون لنا جائزة عربية على غرار جائزة نوبل في العالم.

ثم انتقلت إلى الجائزة التي كانت من نصيبي فقلت إنها ذات وجهين: وجه ماديّ ووجه معنوي. والذين عرفوني على حقيقتي يعرفون أيّ الوجهين أحَبّ إليّ، فالفلس ما استطاع أن يسترقّني وأن يجعلني أحرق له البخور والشموع وأقدم على مذبحه القرابين برغم أن جيبي عرف من القحط ألواناً ولم يُصِب في أيّ يوم بما يشبه التخمة ولو من بعيد. ذلك أنني عرفت في الفلس أكبر ساحر وأعظم ماكر. ففي استطاعته أن يتحول ما يشاء ساعة يشاء، كأنْ يغدو عرشاً أو نعشاً، وقلادة من اللؤلؤ أو حبل مشنقة، ورصاصة في ضرس نَخِرة أو رصاصة في دماغ حيّ، وبيتاً للعبادة أو بيتاً للدعارة. إلى آخر ما هنالك من أسباب تعود إلى شقاء الناس وهنائهم. ولأني عرفت مكر الفلس وسحره فما مكنته يوماً من أن يطيل الإقامة في جيبي.

أما الوجه المعنوي للجائزة فهو الشهادة التي يحملها إليّ نفر كريم من زملائي بأنّ ما قدمته من نتاج قلمي في خلال نصف قرن كان حرياً بتقديرهم وهي شهادة أتقبّلها بمثل الروح الطيبة التي حملتها إليّ، وأتقبلها عالماً حق

العلم أنها لن تزيد في قامتي الأدبية قيد شعرة ولكنها تزيد في ثروتي الروحية زيادة أعتزّ بها، إذ إنها تنطوي إلى جانب التقدير على شيء من المحبة، والمحبة هي الثروة التي أجمعها قطرة قطرة ولا أفرّط بقطرة واحدة منها، وهي الثروة التي لا يسرقها مني سارق ولا يغتصبها مني غاصب ولا يتطرق إليها أيّ سوس أو عفن.

ثم تمنيت أن تزكّي الأيام شهادة جمعية أصدقاء الكتاب في أدبي وأن يتاح للجمعية تأدية مثل هذه الشهادة في كل عام أو أحسن منها لأذباء من الأجيال الطالعة في لبنان. فسماء لبنان ما أقفرت يوماً ولن تقفر من نجوم يمتد نورها إلى أبعد من تخوم لبنان.

قلت للأستاذ نعيمه: يبدو أنك متفائل بوضع الأدب اللبناني. فكيف ترى تطور هذا الأدب حتى الآن، وما رأيك بالأدباء المتجددين؟

أجاب: أحياناً أسمع الناس يتكلمون عن «حركة بلا بركة»، وفي اعتقادي أن ليس هناك حركة بلا بركة، فالأدب في لبنان أدب متحرك والحركة علامة الحياة ويكفي أيّ حركة أن تكون فيها حياة لتكون حَريّة باهتمامنا. وليس يعنيني الآن أن أتنبّأ عن الحركة الأدبية في لبنان إلى أين تنتهي بعد يوم أو بعد جيل، فالمهم أننا نتحرك، والمهم أن أشواقنا إلى الأفضل والأجمل لم تنطفىء. أمّا أننا لا نتفق الآن ولم نتفق في أي يوم ولن نتفق في المستقبل في نظرنا إلى ما هو الجمال والحق والخير - فليس في ذلك ما يضيرنا ويضير الأدب على الاطلاق.

وانتقلنا إلى الناحية الفلسفية من أدب ميخائيل نعيمه فقلت له: المفروض أن يكون لكل فيلسوف قاعدة معينة يركز فلسفته عليها ونظرية خاصة به تنطلق منها هذه الفلسفة. فهل لك أن توضح لنا هذه الناحية في فلسفتك؟

أجاب: أظن أن هذه الفلسفة تبرز واضحة في أكثر من مقال أو كتاب وضعته وعلى الأخص في كتاب مرداد. فهناك أتكلم عن الإنسان كما لو كان إلّهاً طفلاً ولكنه يملك جميع أسرار الألوهة، وهو في سبيله إلى اكتشافها سراً سراً

على مدى الزمان الذي لا نعرف له نهاية. وهذا في نظري منتهى التفاؤل بالإنسان وحياته. ثم إني أشدّد على امتداد الشخصية الإنسانية وخلودها حتى تبلغ الألوهة. ففي اعتقادي أن الإنسان الذي يملك قوة الفكر وقوة الخيال وقوة الوجدان وقوة الإرادة بات مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من أعمال وأفكار وشهوات. وهذه المسؤولية لا يمكن أن يتحملها غيره. ولأنّ العمر الواحد لا يتسع للقيام بكل ما يترتب على الإنسان من مسؤوليات تجاه نفسه وتجاه الكون فقد وجدت في عقيدة التقمص ما يمكّن الإنسان من القيام بتلك المسؤوليات.

فالموت في نظري هو مرحلة تفرض على الإنسان استراحة من مسؤوليات عمر واحد كما يفرض النوم استراحة من مسؤوليات يوم واحد. ومثلما تعقب النوم استفاقة على يوم جديد تعقب الموت استفاقة على عمر جديد ليمضي الإنسان في تحمل مسؤولياته التي تركها عند حافة القبر. وهكذا ينتقل من عمر إلى عمر إلى أن تتحقق جميع أشواقه إلى المعرفة التي لا يختفي عنها شيء وإلى الحرية التي لا يحد منها حدّ وهي معرفة الله بذاته وحرّية الله في ذاته.

عندما أنهى الأستاذ نعيمه عبارته الأخيرة خطرت ببالي فكرة بسؤال ربما كان فريداً من نوعه فقلت: من المفروض أن يكون السؤال الذي أوجّهه إليك محدداً ويدور حول نقطة معينة، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون هناك موضوع محبب إلى نفسك تجد راحة إذ تتحدث فيه. وفي هذا الموضوع أرجو أن تحدثني.

وأطرق الأديب الفيلسوف لحظة ثم قال: أنا اليوم في سبيل تأليف كتاب جديد. وأمس أنهيت فصلاً من فصوله. وفي هذا الفصل أتحدث عن الحياة كما لو كانت وليمة وكان كلّ من فيها مدعواً إليها. وحسبك أن تصوّر الكون كله وليمة ثم إن تصوّر كل ما في الكون ضيوفاً فيها، وماذا ترى؟

ترى أن المدعوين إلى الوليمة هم الوليمة وأنهم يأكلون أنفسهم ويشربون أنفسهم باستمرار وكلهم يحاول أن يأكل ولا يؤكل، وأن يَشرب ولا يُشرب. فلا

يتأتّى له ذلك. ومن هنا ما نجده في العالم من ألم وغصص ومرارة وشعور بالفشل والخيبة. ولأن معظم أعمال الناس تتركز على الهرب من الجوع والعطش والمرارة والألم والخيبة، فهي مقضيّ عليها بالفشل مسبقاً إلا إذا عرف الناس ماذا يأكلون ويشربون. وهذا هو السرّ الذي أفتش عنه وأكرّس له حياتي وقلمي. وأعني سرّ الطعام الذي إذا أكلت منه شبعت إلى الأبد والشرب الذي إذا شربت منه ارتويت إلى الأبد. أما ما تبقّى فهو في نظري لا يفرق كثيراً عن محاولة ولد بأن يحفن البحر بصدفة.

قلنا: إلى أيّ مدى أثرت الكلمة في مجال الحياة البشرية، سيما وأنك شخصياً من الذين تميزوا بأدبهم الإنساني الرفيع؟

أجاب: الكلمة قوة هائلة ولكن في يد الذين يقدّسونها فلا يستعملونها إلا للخير والهداية. ومن المؤسف أن لا يكون تأثير الكلمة واحداً في جميع الناس. فالناس من حيث مقدرتهم على تقبل الكلمة وتفهمها والتأثر بها طبقات طبقات. فهناك الذين في القمة وهم القلة. وهؤلاء في استطاعتهم أن يتأثروا بالكلمة الحية فيترجموها إلى حياة كما تأثّر تبّاع بوذا بكلمات بوذا، وحواريو المسيح بكلمات المسيح، وصحابة محمد بكلمات محمد. لكن هؤلاء كانت حواليهم جماهير لم تستطع أن تتأثر بتلك الكلمات مثل تأثّرهم. ولو أن الجماهير كانت لها عين الطاقة على الفهم والتأثر بما للقلة الممتازة لكان عالمنا اليوم عالماً يسوده السلام والمحبة والبحبوحة والرفاهية.

تلك كانت حال الجماهير مع الكلمة منذ أقدم الأزمان وستبقى كذلك إلى أزمان بعيدة. وذلك لا يعني أن مستوى الجماهير ليس في ارتفاع مستمر ولكنه ارتفاع لا تكاد تبصره إلا على مدى أجيال طويلة.

فإذا سلمنا بأنّ ثورات كثيرة قامت في العالم من أشياء كتبها أدباء ومفكرون، فليس في استطاعتنا القول بأن هذه الثورات قد رفعت كثيراً في مستوى الجماهير العقليّ والمادي وإلاّ لما كان ما نشاهده اليوم في العالم من

قلق وذعر واستعداد محموم لحروب قد تكون القاضية على البشرية بأسرها.

قلنا: ربما لم تبد رأيك حتى الآن بالفلسفة الوجودية التي يحمل لواءها بعض رجال الفكر في الوقت الحاضر فهل نسمع منك هذا الرأي الآن؟

أجاب: الغاية من أية فلسفة هي أن تجيب الإنسان على جميع ما قد يخطر على باله من أسئلة عن نفسه وعن الكون الذي هو فيه وعن الغاية من وجوده ووجود الكون. ولأن الناس ليسوا من مزاج واحد واستعداد واحد فقد كثرت فلسفاتهم وكثرت المسالك الفكرية التي يسيرون فيها. فالفلسفة التي تُرضيني قد لا تُرضي غيري. ولولا أنّ الوجودية ترضي بعض الناس لما وُجدت ولما كان لها تباع. وهذه الفلسفة بعيدة جداً عن نظرتي إلى الكون وإلى الإنسان ومقامه في الكون. والذي يبدو لي هو أن الكثير من تبّاع هذه الفلسفة قد فهموها فهماً لا يشرفها إذا اتخذوها وسيلة إلى نوع من الاباحية والاستهتار بالقيم الروحية. وهي ليست كذلك. ومن المؤسف أن تتفشّى هذه الأباحية حتى في الأدب الحديث إلى حد بعيد. وقد يكون في ما جاءتنا به الحرب الأخيرة من فظائع وفي ما نسمعه اليوم عن أهوال الحروب الذرية ما يفسر ذلك الاستهتار وتلك الاباحية وإن هو لم يبررهما. وإنيّ لأرجو أن تنحسر هذه الوجة قريباً فلا تمتد أبعد مما امتدت بكثير وأن تعقبها موجة من ضبط النفس والتطلع إلى قيم روحية يبلى الزمان ولا تبلى.

* * *

انقضى من الوقت حوالى ساعتين بين آراء سجلناها وأخرى أراد أديبنا الكبير ألاّ نسجلها باعتبارها مناقشات خاصة. ولم أنتبه لمرور الوقت إلاّ عندما «غمز» أحد زملائي بطرف عينه مذكراً بأننا أطلنا الزيارة وربما أرهقنا محدثنا بأسئلتنا واستيضاحاتنا المتتالية... ولما كانت هنالك أسئلة عديدة ما زالت تتزاحم في رأسي محاولة الانطلاق فقد تجاهلت «غمزة» الزميل..

وفيما كان الأستاذ ميخائيل نعيمه يشعل سيجارته، ربما العاشرة.
قلت له متسائلاً:

أيّ الأدباء العالميين أثّر فيك شخصياً من حيث فلسفته وأدبه ونظرياته؟

ومن خلال حلقات دخان سيجارته المتصاعدة في جو الغرفة أجاب: أنا مدين في تفتحي الأدبي للكتّاب الروس بالدرجة الأولى ثم لغيرهم من الأعلام البارزين في الأدب العالمي. ففي بدء نشأتي الأدبية كان لتولستوي ودوستويفسكي، وتورغينيف، وغوغول، وغوركي، من الكتّاب الروس أثر كبير في نفسي وكذلك لبوشكين، ولرمونتوف، ونكراسوف من الشعراء الروس. ولا أنسى الناقد بيلنسكي. فعليه تتلمذت في النقد أوّلاً. ولا حاجة بعد ذلك إلى ذكر الشوامخ للآداب العالمية وقد اطلعت على آثارهم جميعاً. إلاّ أنني في النهاية عدت إلى نفسي فهي الينبوع الذي أغرف منه دائماً أبداً وحتى اليوم لم أبلغ نهايته.

مرة أخرى تجاهلت الساعة والوقت وقلت للأستاذ نعيمه: إن وطننا العربي وربما معظم أقطار العالم تسعى اليوم لتركيز اقتصادها السياسي على أساس النظام الاشتراكي. فما رأيك بهذه الخطوة الجديدة؟

فأجاب: في كتابي «سبعون» فصل أتحدث فيه عن الطبيعة فأقول: «إن الطبيعة اشتراكية في كل مظاهرها. فليس من شيء في الكون يحيا لنفسه إلاّ ويحيا في الوقت ذاته لغيره. فالوردة مثلاً هي للوردة أولاً، ولكن ألوانها وشذاها وشكلها هي كلها لي مثل ما هي للوردة. وكذلك التفاحة فهي تحيا للتفاحة أولاً ولكنني أشاركها في جذوعها وأغصانها وأوراقها وأزهارها ثم أغتذي من ثمارها من دون أن أسلبها شيئاً أو تسلبني شيئاً. وبكلمة أخرى: فالحياة كلها شركة شاملة وليس لأيّ شيء فيها أن يستقل بما له إلا إذا هو استغنى عن غيره. وأيّ شيء، أو أيّ إنسان يستطيع أن يستغني عن غيره؟ إلاّ أن الاشتراكية كمذهب ماديّ يحاول الناس تطبيقه بالقانون فهو غير الاشتراكية التي نشاهدها في

الطبيعة. والاشتراكية التي يفرضها القانون فرضاً ليست سوى محاولة لتنبيه الإنسان بأنه في حقيقته كائن اشتراكي. وقد لا تكون الاشتراكية بمعناها المألوف سوى خطوة إلى اشتراكية أوسع منها يدعونها اليوم الشيوعية.

ثم قد لا تكون الشيوعية سوى خطوة إلى عالم أعمّ وأوسع يغدو فيها الإنسان أخا الإنسان لا شريكه فحسب. وإذّاك يتعاون الناس جميعاً في الوصول إلى حياة لا تستبدّ بها النفعية الفردية ولا يسيطر عليها الذعر والقلق والخوف من الموت أو الخوف من التلاشي في الموت.

فالاشتراكية في البلاد العربية لا بدّ لها من تمهيد خلقيّ ونفساني قويم قبل أن تغدو اشتراكية مثمرة وقبل أن تمتد لها جذور في الحياة العربية.

(جريدة الكفاح، بيروت ١ - ١ - ١٩٦٢)

المرأة والنيابة

كانت هذه المرة الأولى التي أتحدث فيها إلى ميخائيل نعيمه.

وقد أجابني عن الحب، والغيرة، والزواج، والمرأة بصراحة وإسهاب.

قلت له: هل نفى نعيمه فكرة الزواج من رأسه؟ وهل ينصح بعدم الزواج؟

فقال:

ألّفت كتاباً عن حياتي اسمه «سبعون» لمناسبة بلوغي السبعين عاماً. وقد صدر في ثلاثة مجلدات أو مراحل:

١ ـ الأول يتناول حياتي منذ ولادتي سنة ١٨٨٩ وحتى نهاية دراستي في روسيا سنة ١٩١١.

٢ ـ والثاني يتناول الفترة التي قضيتها في الولايات المتحدة ما بين ١٩١١ ـ ١٩٣٢.

٣ ـ والثالث يتناول حياتي منذ عودتي إلى لبنان سنة ١٩٣٢ حتى ١٧ تشرين الأول سنة ١٩٥٩ حيث أتممت السبعين. ومن قراءة هذا الكتاب يتبين للقارىء أن فكرة الزواج لم تنتف من رأسي تماماً إلا بعد أن تطورت حياتي وأفكاري في اتجاه بتّ أرى فيه الزواج عقبة في سبيل انفتاح حياتي الروحية.

وإذا كان عدم الزواج يناسب شخصاً مثلي فلا أستطيع أن أنصح لجميع الناس أن يقتفوا أثري لأن ذلك غير ممكن.

ولكن ألم تحب؟

لم يكن لإنسان مثلي مكتمل الرجولة أن يعيش شبابه من غير أن يحس بحاجته إلى الجنس الآخر، والعلاقات التي قامت بيني وبين أفراد مما يدعونه الجنس اللطيف ـ مفصلة بأقصى ما يمكن من الصدق والصراحة في الكتاب الذي ذكرت «سبعون».

ما رأيك في المرأة اللبنانية المتحررة، والأديبة الواقعية؟

عندما نتكلم عن الإنسان المتحرر رجلاً كان أم امرأة فإنما نتكلم عن شيء مبهم، إذ ما هي الحرية التي بلغها الرجل المتحرر؟ والمرأة المتحررة؟ إلا إذا قصدنا تحرراً من بعض التقاليد والعادات لا أكثر، كأنْ تتحرر المرأة المسلمة من الحجاب مثلاً، والمرأة المسيحية من سلطان البيت بحيث يصبح في استطاعتها أن تدرس في مدارس مختلطة ثم أن تتخذ لها مهنة تستطيع أن تعيش بها من غير أن تتكل على أهلها، أو أن تبتعد عن التقاليد الاجتماعية والدينية الموروثة، فهذا الضرب من التحرر لا يعني الحرية كما أفهمها أنا.

أما الأديبات اللواتي يكتبن ما يدعونه أدباً واقعياً فلا يتورعن في أدبهن عن الكفر بالكثير من القيم الروحية، فهذا ما يخالف ذوقي الخاص. فأنا في تفكيري وحياتي بعيد جداً عن الفلسفة الوجودية التي تطورت على أيدي الكثير من الشبان والشابات فبلغت درجة الاباحية والاستهتار بالقيم الخلقية الأصيلة. وإنه لمن الخطأ أن ندعو مثل هذا الأدب واقعياً لأنه لا يمثّل إلا جانباً ضئيلاً جداً من واقع الحياة البشرية. فالمجتمع في هذه البلاد وفي كل بلاد لم يخلُ يوماً من أناس يحاسبون أنفسهم أدق الحساب على كل عمل يعملونه، ومن أناس يطمحون إلى حياة روحية أفضل وأسمى. فواقع هؤلاء هو غير واقع الذين لا

يستسيغون من الدنيا سوى الملذات الجسدية، والملاهي التي تصرفهم عن حاجاتهم الروحية.

هل تصلح المرأة اللبنانية للنيابة؟

ما من شك أن المرأة في هذه البلاد وفي كل بلاد تستطيع أن تقوم بأعمال كثيرة، نعتبرها كما لو كانت خاصة بالرجل. من هذه الأعمال النيابة. لو فكرت أنا في المجلس النيابي اللبناني لاستطعت في أي ساعة أن أختار من بين النساء تسعاً وتسعين يكنّ أصلح بكثير من التسعة والتسعين نائباً الذين يدّعون تمثيلنا الآن.

يبدو من حديثك أنك تفضل للمرأة أن تشتغل. فهل ترى ضرورياً أن تشتغل المرأة ولو كانت بغير حاجة للمال؟

حياة الزوج والزوجة يجب أن تكون خير مثال للتعاون. فإذا استطاعت المرأة أن تقوم بواجباتها الزوجية والبيتية تجاه أولادها وأن تعمل بالاضافة إلى ذلك عملاً يدر عليها بعض الربح، فعملها مشكور ومبرور، أما إذا كان ربحها المادي من عملها يسبب لزوجها أو لأولادها خسارة عائلية من حيث التربية والراحة فربحها إذ ذاك خسارة. أما الزوجة التي هي في غنى عن أي عمل تعمله للكسب، ففي استطاعتها أن تستعمل الوقت الذي يفيض عن شغلها في البيت لتوسيع آفاقها الثقافية، كأن تطالع كثيراً، وأن يكون لها هوايات جميلة وبريئة، كالرسم، أو الموسيقى، أو أعمال البر والإحسان وما إليها. المهم أن نستعمل وقتنا للخير وأن لا نترك منه للشيطان حصّة.

والرجل الذي يغار، ما دواء غيرته؟

لا دواء للغيرة على الاطلاق إلا الثقة. وهذه يربيها الإنسان في نفسه، وقلما تأتيه من الخارج. «والغيرة تعني الخوف من أن يسلبنا الغير ما نعتبره حقاً من حقوقنا، والخوف هو دليل الضعف في ناحية من النواحي والضعف لا يكون إلا حيث تُفتقد الثقة، فمن كان واثقاً من حقه كانت ثقته الدرع التي تقيه من

الخوف على ذلك الحق، ومن كان في شك من حقه كان أبداً عرضة للخوف من أن يذهب ذلك الحق منه».

هل تنصح الأب أن يضرب ابنه؟

لا يليق الضرب بالحيوان، فكيف بالإنسان؟ ومن الأفضل جداً أن يُستغنى عنه كأداة للاصلاح. أما الرفق، واللطف، والمحبة، فهي أقوى بكثير من أي صنف من أصناف التعذيب.

إذاً فالسجن ليس أداة للاصلاح؟

السجين هو الإنسان الذي يقترف جريمة ضد النظام القائم ويكتشفه النظام. أما الذين يخالفون النظم القائمة بكثير أو بقليل فهم الناس على بكرة أبيهم.

ما هو آخر انتاج أدبي لديك؟

آخر انتاج أدبي أقوم به ولم أتممه للآن هو «اليوم الأخير». وقد كان عنوان هذا الكتاب سراً ومن حيث لا أدري رأيته مفشياً. أما مضمونه ففي عالم السر، ولكن من الصعب أن أنجزه سريعاً، وأن أكتب فيه بصورة متواصلة لأن الأعمال الكثيرة تعترض طريقي فيه.

ما هي الأعمال التي تعملها زيادة على التأليف؟

١ ـ مراسلاتي.

٢ ـ استقبال الزوار وعلى الأخص في فصل الصيف وهم من جميع الأقطار... ونهض ليحضر مجموعة من الرسائل والأجوبة ويعرضها علينا وهو يتمتم «أما في الصباح وعند المساء فإنني أنصرف للاعتناء بحديقة الزهور، فهذه هي السلوى الوحيدة».

هل تؤمن بشيطان الكتابة؟

في بعض الحالات يحسّ الكاتب كما تحسّ الحامل وقد حان وقت

الوضع. أي أن العمل الكتابي لا يمكن تأجيله أبداً. أما من أين تتجمع هذه العناصر كلها، وهذه الدوافع التي تأبى السكوت والتأجيل، فذلك أمر يستحيل تعليله وتحليله. فأنا وإن مرّ بي يوم كامل من غير أن أمسك قلم فإنني أتعرض لمؤثرات كثيرة لا أستطيع حصرها والوصول إلى منابعها ومنابتها. إلا أنها في النهاية تتجمع بشكل أفكار ومؤثرات تدفعني للتعبير عنها دفعاً لا يقبل المقاومة. وعندئذ أعود إلى قلمي وأوراقي.

أي أنك تؤمن بالاختيار؟

أحياناً أختار الموضوع وأحياناً يختارني الموضوع.

إذاً عندما تختار الموضوع تكون محترفاً؟

لا أعني عندما أختار الموضوع يكون عملي نتيجة غربلة طويلة وتفضيل بين هذا الاتجاه أو ذاك. وعندما يختارني الموضوع يفرض عليّ نفسه فرضاً كأني أنا الرجل المهيأ لمعالجته.

ما أطرف حادثة أدبية وقعت لك؟

بعدما عدت من الولايات المتحدة إلى لبنان أخذت تتوالى عليّ الدعوات لإلقاء محاضرات هنا وهناك، وعندما تجمّع لديّ عدد من هذه الخطب أحببت أن أصدرها في كتاب، وبقيت زماناً أفتش عن عنوان صالح له ولكني لم أجد عنواناً يرضيني. وذات يوم وفي مثل لمحة الطرف خطر لي عنوان «زاد المعاد» ووجدت في هذا العنوان ما يفي بغرضي تماماً، ففيه ما ينمّ عن موضوع الكتاب بمعنى أن الخطب التي ألقيتها كانت تدور جميعها حول معاني الحياة البشرية البعيدة، وكيف يحسن بنا أن نعيش لنتزود من الأرض ما يكفينا للوصول إلى السماء، أو ما يصلح زاداً للعودة إلى المصدر الذي منه انبثقنا. وكلمتا «زاد المعاد» تؤديان ذلك المعنى بالتمام، ومن بعد أن صدر الكتاب بسنة، اتفق أن كنت في مكتبة من مكتبات بيروت وإذا بشكري زيدان أحد صاحبي مجلة الهلال يدخل المكتبة، فيعرّفه صاحب المكتبة عليّ. ويسألني السيد شكري عن

آخر إنتاج لي فأجبته أنه كتاب «زاد المعاد». وللحال يأخذ الرجل يردد الكلمتين ويفرك جبهته كمن يستعيد ذكرى قديمة ثم يقول: كأني سمعت بهذا العنوان من زمان. وفجأة يضيف «زاد المعاد في هدي خير العباد». قال: هذا كتاب قديم قرأته من زمان. والأدهى من ذلك أنه التفت إلى رف من رفوف المكتبة ثم انتشل كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد». وأنا لم أكن بحياتي قد سمعت بهذا الكتاب.

ماذا تتمنى؟

أتمنى للعالم السلام كما يتاح له أن يكمل طريقه إلى حيث المعرفة نور وطمأنينة، وغلبة على الموت، وعلى الشرور التي تجعل من وجود الإنسان على الأرض مشكلة معقدة وصراعاً دائماً. والذي أتمناه للعالم أتمناه لنفسي فأنا من القائلين بأن الإنسان عالم لا نهاية لما فيه من الخير، وأنه إذا استطاع أن يستعمل قواه الهائلة للتخلص من جميع آلامه لما طال به الوقت حتى يتخلص من تلك الآلام ويطل على دنيا يرى فيها نفسه شريكاً لله في الخلق والإبداع.

وسألته بعد أن أتممت تدوين ما قاله: هل كان لإحدى مؤلفاتك صدى في نفسك لم يوازه في نفوس الجماهير؟

فقال:

مؤلفاتي العربية تزيد الآن عن العشرين. ولي في الانكليزية أربعة مؤلفات. ومؤلفاتي العربية يعاد طبعها باستمرار حتى أن بعضها قد تجاوز طبعته السادسة، وذلك يعني أنها تلاقي ترحيباً من قبل القراء. إلا أنني أشعر أن البعض منها أقل ترحيباً عند الجماهير من غيره وأظن أنه فوق مستوى الجماهير.

من ذلك كتاب «مرداد». فقد وضعته بالانكليزية ثم ترجمته إلى العربية، وأظن أنه الآن في طبعته الثالثة[1] في حين أن الطبعة الأولى منه بالانكليزية صدرت

(١) «فرداد»: مؤسسة نوفل، الطبعة السابعة، بيروت ١٩٨٥.

في لبنان سنة ١٩٤٩ فما لبثت أن وصلت نسخ منها إلى الهند وإذا بدار نشر في بومباي تستأذنني إصدار طبعة منه في بلاد الهند. وهكذا صدرت الطبعة الهندية منه. ثم ما لبثت أن تلقيت طلباً من هولندا بترجمة ذلك الكتاب إلى الهولندية وقد صدرت تلك الترجمة منذ سنتين. وفي هذه السنة تلقيت طلباً من دار نشر في لندن تطلب السماح لها بإصدار طبعة منه في انكلترا مع الحق بتوزيعها في جميع دول الكومنولث والولايات المتحدة الأميركية، وهذه الطبعة ستصدر في نهاية الصيف. وهكذا نرى أن الاقبال على هذا الكتاب وتقديره خارج البلاد العربية هما أكثر بكثير منهما في لبنان وغيره من البلاد العربية.

(جريدة النهار، بيروت ٢٨ - ٧ - ١٩٦٢)

أدب النساء وأدب الرجال

قلت: متى بدأت هوايتك للأدب؟

قال: لا أستطيع تحديد هذا الأمر بالضبط لأنني أذكر فيما أذكر أنّ ميلي للكتابة ابتدأ حالما فهمت شيئاً من قواعد اللغة وأصبحت أحس السحر في تركيب بعض الكلمات بقصد إبراز بعض المعاني وتصوير بعض الانفعالات. فكنت من حين إلى حين وأنا ما أزال في دور دراستي الثانوية، أكتب المقالة أو أنظم القصيدة للتفريج عن النفس ولكنها بالطبع كانت مقالات وقصائد تطغى عليها صفة العجين ولا خميرة فيه!

أما متى بدأت أكتب أشياء كانت في نظري حَرِيّة بالنشر فذلك يعود إلى أيام دراستي في روسيا. وقد أخذت أنظم شعراً حاز تقديراً عالياً عند البعض من أساتذتي ورفاقي. ومن ذلك قصيدتي (النهر المتجمد) التي نظمتها بالروسية عام ١٩١٠ ثم ترجمتها بعد سنين إلى العربية ونشرتها في مجلة الفنون في نيويورك عام ١٩١٦ على ما أذكر.

وتحدث نعيمه عن مؤلفاته فقال: إن عددها بلغ لحد الآن ٢٢ وعندي في الانكليزية ٤ مؤلفات وأهمها كتاب (مرداد) الذي وضعته أولاً بالانكليزية ثم نقلته بنفسي إلى العربية. وهذا الكتاب نشر أولاً في لبنان لأسباب لا سبيل إلى سردها

الآن. وكما يجري للكتب وعن غير علم من قبل صاحبها، وصلت بعض نسخ من هذا الكتاب إلى الهند فاتصلت بي دار نشر في بومباي تستأذنني إصدار طبعة من الكتاب لأجل بلاد الهند والشرق. وهكذا صدرت تلك النشرة وسار الكتاب في سبيله إلى أن جاءني طلب في الربع الأول من هذه السنة من دار نشر في لندن تطلب إصدار طبعه منه بالانكليزية، وقد صدرت هذه الطبعة منذ شهرين. وحدث قبل ذلك بسنين أن ترجم الكتاب إلى اللغة الهولندية وقد صدرت تلك الطبعة. والذين ترجموها كتبوا إليّ مؤخراً يؤكدون أنهم في سبيلهم إلى ترجمتها إلى الألمانية والفرنسية. وهناك ترجمة إلى البرتغالية يجري إعدادها الآن في البرازيل. أما آخر مؤلفاتي العربية فهو كتاب بعنوان (اليوم الأخير)[1] وهذا سيصدر في بيروت بعد أسبوع أو أسبوعين.

قلت: على هذا الأساس هل تعتبر (مرداد) مؤلفك المفضل أم أن هناك مؤلفات أخرى تفضلها على غيرها من مؤلفاتك؟

أجاب: إذا استطاع الوالد أن يميز بين الواحد والآخر من أولاده استطاع الكاتب أن يفعل ذلك فيما يتعلق بمؤلفاته. فأنا ما وضعت حتى الآن مؤلفاً واحداً ثم ندمت على تأليفه. ذلك لأنه كان يعبّر عن ناحية من نواحي تطوري الفكريّ وعن حاجة في نفسي دعتني إلى تأليفه!

أما إذا طلب إليّ أن أصرّح أيّ مؤلفاتي يعبّر عن اتجاهاتي الفكرية أوسع التعبير فأنا أقول إن ذلك هو كتاب (مرداد) ولكن الكتاب ـ أي كتاب ـ لا يستطيع أن يعبّر عن جميع خلجات النفس. فهناك مثلاً الحسّ بالجمال ـ جمال الهندسة وجمال الايقاع وجمال البساطة مع الابتعاد عن الغموض والتعقيد. فمن هذه الناحية أراني أميل إلى كتابي عن المرحوم جبران خليل جبران وإلى كتاب آخر دعوته (مذكرات الأرقش)[2].

---

(١) «اليوم الأخير»: مؤسسة نوفل، الطبعة السابعة بيروت ١٩٨٨.

(٢) «مذكرات الأرقش»: مؤسسة نوفل، الطبعة الثامنة بيروت ١٩٨٨.

ما هو رأيك في الأدب النسوي الذي برز في المدة الأخيرة؟

إن ما يدعونه بالأدب النسوي هو عندنا في بدء تكوينه وفيه من الحيوية ما يبشر بانطلاقة واسعة. فعندنا في دنيا الشعر أسماء نسائية تحتل مرتبة عالية ولا يقلّ عن شعر الرجال في شيء. إلا أنني لا أحب أن أميز في الأدب بين أدب النساء وأدب الرجال.. فالأدب أدب مهما يكن الينبوع الذي يفيض منه. على أنني أشعر بالكثير من الغبطة إذْ أرى المرأة العربية تشقّ لها طريقاً واسعاً في دنيا الأدب سواء في الشعر أو النثر!

وماذا كان أثر المرأة في حياتك؟

أثر المرأة في حياتي تحدثت عنه بشيء من التفصيل في كتابي ـ سبعون. ففي هذا الكتاب أفضح ما كان بيني وبين النساء من علاقات عاطفية. ومن يطالع مجموعتي الشعرية ـ همس الجفون[1] ـ يستطيع أن يتميّز بوضوح في بعض قصائدي ما أثارته علاقاتي بالمرأة من ثورات عاطفية وفكرية. إلّا أنني لم أكتب في حياتي ولم أنظم غزلاً على الطريقة المألوفة في الأدب العربي. فحيث أتكلم عن الحب أبتعد كل الابتعاد عن التعابير المألوفة والمطروقة. ولعلّ ذلك يبدو لقارىء قصائدي العاطفية وكأنني لا أتحدث عن عاطفة بل عن شيء عام يمتد إلى أبعد من ذاتي. فالعاطفة والفكر لم ينفصلا أبداً في حياتي. فما من قصيدة نظمتها إلّا وفيها الشيء الكثير من العاطفة والكثير من الفكر وذلك يصح قوله في نثري كذلك.

وكان سؤالي الذي طرحته على الأستاذ نعيمه وأثاره حقاً: ما هو رأيك في البدعة التي شاعت مؤخراً باستبدال الحرف العربي الخالد بآخر لاتيني؟

فقال: لست أشك في أن القارىء العربي يعاني الكثير من المشقة في قراءة لغته غير المشكولة فهو مطالب بأن يقرأ ما ليس مكتوباً. وغير المكتوب

---

(1) «همس الجفون»: مؤسسة نوفل، الطبعة الخامسة بيروت ١٩٨٨.

عندنا هي الحركات. في حين أن بعض اللغات الأجنبية تعاني عكس ما نعانيه نحن ولكن على طريقة أضيق بكثير. فهناك لغات فيها أحرف تكتب ولا تقرأ وحتى الضليعون في اللغة لا يستطيعون القراءة الصحيحة إلّا عن طريق القرينة. ولكن هذا النقص لا يمكن تلافيه باستبدال الحروف العربية باللاتينية فقد وصلني منذ مدة قريبة كتاب مطبوع بالحروف اللاتينية ولكنه في الواقع منظومات عربية باللهجة اللبنانية. ولقد عانيت من المشقة في قراءة صفحة واحدة منه ما جعلني استغني عن متابعة القراءة وأكفر بهذه البدعة. من ثم فلو صح ووجدنا أحرفاً لاتينية تقوم بكل الواجبات التي يقوم بها الحرف العربي لترتّب علينا أن ننقل تراثنا الضخم بالحروف الجديدة وذلك ما يفوق طاقة جميع الشعوب العربية مجتمعة. ولست أظن أن بيننا من يريد أن يخسر شيئاً من تراثنا العربي القديم فكيف بنا نخسره كله ونعيش بدونه فنشعر كاليتامى أو كما لو كنا على حد تعبير القدامى في منزلة (هيُّ ابن بيّ؟!).

قلت سؤالي الأخير: ماذا رأيت في بغداد؟

قال: أتيح لي اليوم أن أرى شيئاً من نهضة بغداد العمرانية الجبارة فقد كنت أرى الهدم والبناء وكأنهما في سباق. وآية العمران أن لا ينقطع الهدم ولا ينقطع البناء. فالويل كل الويل لشعب يهدم ولا يبني ولشعب يبني ويُهدم!

وأخيراً بقي أن تعرف أن للأديب الكبير أمنيات عديدة أهمها أن يتحد العالم العربي ليستعيد من قدرته على الابداع الجماعي وأن يسود العالم جوّ من السلام والتفاهم. وهواياته بعد الكتابة الفن على أنواعه من موسيقى ونحت وتصوير ورقص وغناء.

(جريدة الأخبار، بغداد ٥ - ١٢ - ١٩٦٢)

هل انتهى الأدب المهجري؟

ما اسم كتابكم الجديد؟ وما هي المواضيع التي يتناولها؟

«اليوم الأخير». وقد دعوته كذلك لأن البطل فيه جاءه نبأ بأنه يعيش آخر يوم من عمره. لذلك فالكتاب يتناول حياة هذا الرجل في خلال أربع وعشرين ساعة. وهو يسايره في يومه ساعة بعد ساعة ويصور ما يطرأ على الرجل من انفعالات وثورات فكرية ونفسانية في ذهابه لمقابلة الموت. ولقد جعلته أستاذاً للفلسفة في جامعة من الجامعات. وهو رجل تلقن الفلسفة من الكتب وراح يلقنها من الكتب من غير أن يكون لما تلقنه ويلقنه أي أثر عملي في حياته. ولقد خلقتُ له من الظروف ما جعله يفكر جدياً في حياته ومعانيها ومقاصدها لعلّه يهتدي إلى أساس ثابت تقوم عليه حياته وحياة الناس أجمعين. هذه، بالاختصار، هي خلاصة كتابي. وهي بالطبع لا تعطي صورة عنه يستطيع القارىء أن يكتفي بها. فلا بد من العودة إلى التفاصيل لتبرز الصورة كاملة، وليظهر الرجل إنساناً سوياً في عين القارىء من بعد أن يرافقه في خلال الأربع والعشرين ساعة التي عاشها وكأنه يعيش حياة الإنسانية كلها في يوم واحد.

هل أخذت شخصاً بالذات من المجتمع؟

لم أعتدْ في كل ما صنفت من قصص حتى الآن أن آخذ أشخاصاً عرفتهم

في حياتي من يوم ليوم. ولكنني أخلق أشخاصي خلقاً ثم ازوّدهم من الصفات والأذواق والأمزجة ما يجعلهم يبدون للقارىء وكأنهم أخذوا من الحياة التي حوالي. فالخلق شيء والتصوير الفوتوغرافي شيء آخر. وأنا ما كنت ولن أكون مصوراً فوتوغرافياً.

يردد البعض عندنا أصداء ناقوس الخطر في مصير الأدب المهجري فهل هذا صحيح؟ أي: هل انتهى حقاً الأدب المهجري؟

إذا كنت تعني بسؤالك أن المَهاجر تكاد تقفر اليوم من الكّتاب والشعراء فذلك صحيح إلى حد بعيد. أما إذا كنت تعني أن تأثير الأدب المهجري قد انتهى وأن دولته قد دالت فلستُ أوافقك في ذلك. ودليلك على أن الحركة التي قام بها الأدباء المهجريون، وبالأخص أدباء الرابطة القلمية، لا يزال لها تأثيرها هو كثرة الكتب التي تصدر في كل سنة عن الأدب المهجري في دنيا العرب. ففي كل سنة ينهض أدباء وناقدون في شتّى الديار العربية لدراسة الأدب المهجري وأثره في النهضة الأدبية الحديثة. وأنا أعرف لا أقل من عشرة مؤلفات حديثة كرّسها أصحابها للأدب المهجري وحده.

إن الصحافة العربية في المهاجر تعاني اليوم أزمة حادة وما ذلك إلا لأن أبناء المهاجرين يجهلون لغة آبائهم وأجدادهم فلا يهتمون بها والباقون على قيد الحياة من المهاجرين القدامى باتوا في سبيل الانقراض. ومن ثمّ فقوانين أكثر الدول التي كان يهاجر إليها اللبنانيون والعرب باتت لا تسمح اليوم إلا بهجرة عدد قليل منهم. وذلك يعني أن المهاجرين في جميع أقطارهم أصبحوا في حاجة إلى دم جديد لم يعد يأتيهم من بلادهم الأصلية. وهكذا فاللغة العربية بحكم الظروف الحاضرة أصبحت تعاني الكثير من الضيق في مهاجرها. فلا عجب إذا هي تلاشت تماماً في المهاجر بعد جيل أو جيلين.

ما قولكم في ما تفعله بعض الارساليات الدينية إذْ تحاول فتح مدارس في المهاجر وتعليم أبناء المهاجرين اللغة الأم؟

ما أظن أن هذه الوسائل ستُجدي في الابقاء على اللغة العربية في المهاجر. وما ذلك إلا لأن أكثر الدول الأميركية التي هاجر إليها اللبنانيون من قبل تعمل كل ما في طاقتها لصهر العناصر الغريبة عنها في بوتقة قوميتها. فالولايات المتحدة لا تطيق للأجانب أن يبقوا إلى الأبد أجانب عنها. بل تريدهم أن يشعروا بالقول وبالفعل كما لو كانوا من صميم البلاد يعتزّون بأمجادها ويضحّون حتى بدمائهم في سبيلها. وكذلك هي الحال في أميركا اللاتينية وفي غيرها من البلدان التي يهاجر إليها اللبنانيون وغيرهم من العرب.

على أنه قد يكون لما تفعله الإرساليات بعض النفع في الابقاء على أثرٍ للغة العربية في المهاجر.

هل أصابت الدراسات التي أشرتم إليها في نقد الأدب المهجري؟

إن أكثر الذين درسوا الأدب المهجري حتى الآن لم يدرسوه في منابعه وأعني أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء السفر إلى الولايات المتحدة أو البرازيل ليبحثوا هناك عن نشأة الأدب المهجري وعن الظروف التي نشأ فيها. بل كانوا يكتفون بما يجمعونه من معلومات من بعض الذين كانت لهم صلة مباشرة بذلك الأدب. وقد أستثني منهم الأستاذ جورج صيدح. فهو أحد الشعراء المهجريين الذين رافقوا النهضة الأدبية في البرازيل. ثم زاد على ذلك فزار الولايات المتحدة حيث اتصل ببعض أعضاء الرابطة القلمية الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة. هذا من جهة. ومن جهة ثانية فالدراسات التي نتحدث عنها تتفاوت في وقتها واتساعها بتفاوت أذواق مؤلفيها ونزعاتهم واتجاهاتهم. ولكنها على الاجمال دراسات تفيد الطالب إفادة كبيرة.

يلاحظ القارىء أن المرأة تلعب الدور الثاني أو تأخذ المركز الثاني في قصصكم فما قولكم بهذه الملاحظة؟

ليس هذا القول بصحيح. وحسبك أن أذكر من قصصي قصة «العاقر»[1].

---

(١) «كان ما كان»: مؤسسة نوفل، الطبعة الرابعة عشرة بيروت ١٩٨٧، ص ٥٩.

فهذه القصة تدور كلها على امرأة ظنها زوجها وجيرانها عاقراً فتحمّلت بسبب ذلك من المضض والاهانات النفسية ما تنوء به أيّ نفس. ثم تبين في النهاية أن زوجها كان العاقر وليست هي. وهناك قصة «لقاء»[1] فالبطلة في هذه القصة فتاة قلّ أن تجد لها مثيلاً بين النساء. ولست أريد أن آتي على ذكر جميع القصص التي كتبتها. فقد قلّ أن تجد بينها قصة لا ذكر فيها للمرأة. وماذا أقول في كتابي «سبعون» حيث آتي على ذكر ما كان من علاقات بيني وبين بعض النساء. أمّا في شعري فقد يبدو للذين تعودوا ضرباً واحداً من الغزل المألوف أنني لم أتأثر بالمرأة على الاطلاق. وذلك خطأ لأنني في أكثر من قصيدة أتعرض للجهة العاطفية من حياتي ولكن بطريقة لم يألفها الشعر العربي.

أي أثر تركت في نفسكم مهرجانات بغداد الأخيرة؟

بدأنا نحن العرب في الزمان الأخير نأخذ أشياء كثيرة عن الغرب. منها الجميل ومنها القبيح ومنها المفيد ومنها الضارّ. ولعل أجمل ما اقتبسناه هو الاحتفاء بذكرى الأحداث الجسام والرجال العظام في ماضينا. ولقد أحسنت الجمهورية العراقية إذا احتفلت في أول هذا الشهر حتى الثامن منه بالذكرى الألفية لبغداد ولفيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندي. وأحسنت إذ وجهت الدعوة إلى دول كثيرة فتمثل في احتفالاتها لا أقل من سبعين دولة بين شرقية وغربية. فاحتفالات من هذا النوع من شأنها أن تزيد التعارف بين أقطار العالم وأدبائه ومفكريه وأن تجدد إيماننا بمستقبلنا إذ هي تسلط الأنوار على المجيد من ماضينا. فليس ينفعنا أن نعيش في الماضي وحده. وينفعنا، إذ نحن نتلفت إلى الماضي باعتزاز، أن ننظر إلى المستقبل باعتزاز أكبر. وإني لأشفق على الأمم التي تعيش في ماضيها فقط والتي أبداً دائماً تستعير من ماضيها ألقاً تضفيه على حاضرها. في حين أن الأمم الحيّة تضفي من حاضرها ألقاً على ماضيها. فهي في وثبة دائمة إلى الأمام. وهي لا تشعر، إذ تتلفت إلى ماضيها، أنها قد

---

(١) «لقاء: مؤسسة نوفل، الطبعة الحادية عشرة بيروت ١٩٨٧.

استنفدت جميع طاقاتها على الخلق والابداع. وإني لأرجو من العرب أينما كانوا أن يحيوا أمجادهم السالفة وقلوبهم مفعمة بالإيمان أنّهم سيخلقون أمجاداً جديدة تتضاءل أمامها جميع أمجادهم القديمة.

إلى هنا، وقطعت علينا جلستنا هذه وفود عديدة أتت مهنئة فقمت مودعاً وشاكراً وفي البال أسئلة عديدة وددت لو اتسع الوقت لطرحها على الأديب الكبير. وأدرك هو ما يجول في خاطري، فودعني قائلاً: «علها تطرح في جلسة قادمة».

(مجلة الأسبوع العربي، بيروت ١٤ - ١ - ١٩٦٣)

لبنان ودوره العربي

هل تعتقد أن لبنان مؤهّل لدور مميّز في وسطه العربي؟

مثلما يتميز لبنان من باقي البلاد العربية بطبيعة أرضه وطبيعة سكانه يتميز كذلك بالدور الذي عليه أن يمثّله في وسطه العربي.

ليس من ينكر الجمال الطبيعي الذي يتفرد به لبنان، والنشاط الذي اشتهر به سكانه. وحسبك دليلاً على ذلك النشاط أنّ عدد المهاجرين من أبناء لبنان وبناته يوازي، أو يفوق عدد المقيمين، وأنّ المهاجرين والمقيمين معاً قد جعلوا من لبنان الصغير الأجرد جنة يقصدها السوري والأردني والعراقي والكويتي والسعودي وغيرهم من دنيا العرب فيشعر جميعهم بالكثير من الغبطة والطمأنينة والراحة والحرية، ويتمنون لو أنهم لا يفارقون أرض لبنان وبحره. وكذلك هي الحال مع الأغلبية الساحقة من الأجانب القادمين إلى لبنان.

ناهيك بأن مستوى المعيشة ومستوى الثقافة في لبنان هما أرفع منهما في أي بلد عربي آخر.

وهكذا فطبيعة لبنان، وطبيعة سكانه تفرضان عليه فرضاً أن يكون همزة وصل بين العرب؛ ونجعة لطالبي العافية والراحة والحرية والمعرفة والسلوى؛ وخميرة خير وسلام وجمال ووئام. وإنه لمن صالح العرب أينما كانوا أن يحافظوا

على استقلال لبنان، وعلى طابعه الخاص ودوره المميز. ذلك خير لهم وللبنان.

ألا تعتقد أن مواهب كثيرة تُهدر بسبب عدم تعهّدها ومساعدتها؟

في اعتقادي أن المواهب متى آن أوانها لا تعدم وسيلة للظهور. فالحياة تسخّر لها جميع القوى الضرورية لظهورها. أما المواهب التي تبقى مغمورة فساعتها لم تأزف بعد. ولست أعني أن أرفع عن عاتق الدولة المسؤولية في تيسير الظروف المؤاتية لتفتح المواهب في جميع طبقات الأمة. وأعني أنه، مع تيسير الظروف المؤاتية، فلن تبرز إلى الوجود إلّا الموهبة التي استوفت شروط البروز إلى الوجود.

هل لك كلمة توجهها إلى الجيل الطالع والقائمين على تربيته؟

البون شاسع جداً بين التعليم والتربية. فالتعليم هو حشو الدماغ بشتى المعلومات التي قد يكون ضررها أكثر من نفعها بكثير. أما التربية فهي تهذيب النفس وترويضها على الخلق الكريم، وعلى حب الخير والجمال، ومعاملة الغير بمثل ما تريد أن يعاملها الغير. وإنه لمن السخرية أن ندعو وزارة التعليم وزارة التربية. لأن التربية التي تكلمتُ عنها هي آخر ما تعنى به وزارة التعليم.

لقد كانت أمهاتنا إذا اقتادت إحداهن ولداً من أولادها إلى مدرسة القرية لأول مرة أوصت المعلم هكذا. «هذا الولد هو الآن وديعة بين يديك. علّمه وأدّبه ولا تشفق عليه. لك اللحم ولي العظم». فالتأديب كان يمشي يداً بيد مع التعليم.

أما اليوم فقد باتت المدرسة تحصر همّها في حشو دماغ الطالب دون أن تلقي أيّ بال إلى تربيته الخلقية والجمالية والاجتماعية. وما نفع صاحب العلم من علمه إذا هو لم يحسن استعماله لتجميل نفسه وأنفُس الذين يتصل بهم من الناس؟ إنما العلم العميم لا يدعمه الخلق الكريم لأشدّ خطراً على صاحبه والناس من القنبلة في يد الطفل.

وأيّ خير في عالم كثر مهندسوه وأطباؤه، ومخترعوه، وفقهاؤه، وقل صالحوه ومؤمنوه وأتقياؤه؟ وأنْ تشهد لك أعمالك بأنك رجل صالح لخير من أن تشهد لك أكبر الجامعات بأنك تتقن علم الذرّة أو أي علم غيره من علوم الناس، ولكنك لا تتقن فن السلوك مع الناس والمخلوقات سلوكاً يشرّفك ويشرّف الناس والمخلوقات.

ولأن المربي لا يستطيع أن يربي غيره إلا إذا هو أحسن تربية نفسه، فنصيحتي لكل مُربٍّ أن يبدأ بتربية نفسه قبل أن يحاول تربية غيره. ولتكن تربيته بالمثال قبل الأقوال. وليذكر ما قاله أمرسون في هذا المعنى:

«إن ما تفعله ليضج إلى حدّ أنه لا يترك لي مجالاً لسماع ما تقوله».

(مجلة صوت الطالب، فصلية، يصدرها معهد القديس
يوسف، حارة حريك - بيروت نيسان ١٩٦٣)

أمام الموت وجهاً لوجه

ثمة من يقول إن أديب الشخروب أخذ ينحو في مؤلفاته الأخيرة منحى فلسفياً معيناً ذا طابع اصلاحي إنساني خالص، لكنه يتسم بمثالية قد لا يكون لها مرتكزات واقعية.

فما هو ردك على هذا الموضوع؟

يبدو أن الذين يقولون هذا القول لم يطالعوا كل ما كتبه ميخائيل نعيمه. ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا حتى في مؤلفاتي الأولى بذور ما يتراءى لهم وكأنه اتجاهات جديدة. ففي «الغربال» وكتاب «المراحل» الذي تلاه تفتيش عنيد عن معنى الحياة الشامل ومحاولات لتفهم الغاية من وجود الإنسان على الأرض بمعنى أنني منذ بدأت أفكر أخذت أتعمّق أكثر فأكثر في حياة الإنسان. وقد بدت لي هذه الحياة ذات وجهين: وجه يمكن أن ندعوه السطح وآخر يمكن أن ندعوه الغور أو الجوهر. لذلك دعوت كتاب المراحل «سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها». فأنا لا يهمّني من الحياة ما أتناوله ويتناوله غيري بالحس مباشرة على قدر ما يهمني الجوهر الذي تتبطن عنه المحسوسات. فلو أن الحياة كانت عندي صراعاً دائماً بين الخير والشر دون أن يكون لأيّ من الإثنين مجال للغلبة على الآخر لعفتها من زمان. فحياة كهذه ليست في نظري حرية بأن تحيا. ولكنني بالتفكير المستمر توصلت إلى اليقين بأن وراء الخير والشر قوة ثابتة سرمدية هي

فوق الخير والشر. وهذه القوة هي التي تحرّكني وتدفعني دائماً بما تولّده من أشواق إلى الكشف عن وجهها الحقيقي والاتحاد بها اتحاداً لا انفصام بعده. وهذا اليقين هو الذي يدفعني على التأليف لعلّني أستطيع بواسطة الكلمة أن أكشف ما اكتشفته بنفسي. فقد لجأت في عملي هذا إلى جميع أصناف البيان من نقد وقصة وشعر وروايات تتّسم بميسم القصة ولكنها ترمي إلى الهدف البعيد الذي ذكرته. والأدب عندي نوعان: نوع للتسلية والمتعة ونوع للهداية. وإني أريد لأدبي أن يكون أدب هداية على أن يكون فيه من جمال الفن وقوة الصدق ما يجعله مستساغاً لدى القارىء. وإذا ما لجأت إلى الرمز في بعض الأحيان فلأنّ من الحقائق ومن الحالات النفسية ما لا يمكن الكشف عنه إلا عن طريق الرمز.

قيل عن كتاب «دون كيشوت» للكاتب الأسباني الشهير سرفانتس أنه يعتبر بحق (انجيل الحماقة البشرية). وما دام الشيء بالشيء يذكر فأرى أن كتاب «مرداد» يعتبر «انجيل الصفاء الإنساني» إنْ صح التعبير. غير أنّ بعض القراء شكوا من أسلوبه، وقد يكون فات عليهم إدراك مرماه البعيد. فهل أنت مرتاح إلى هذا الأسلوب المغلّف بنوع من الرمزية الذي ينسحب على «مذكرات الأرقش» و «مرداد» و «اليوم الأخير»؟ وهل تعتقد أن القراء سيألفونه ذات يوم؟

ليس من المفروض في أي كتاب أن يرضي جميع القراء. فكيف به إذا كان كتاباً يتوغل في أمور تتجاوز حدود الحسّ والمنطق وتسمو إلى ما فوق الإثنين. ولست أجهل أن في كتاب مرداد الشيء الكثير من ذلك. إلاّ أنني لم أكتبه لنفسي ولولا ثقتي في أن في الناس من يستطيع السير معي في شتّى جولاته ومنعرجاته لما كتبته. ويبدو أن عدد هؤلاء كان فوق ما تخيّلت إذ إن الكتاب في نصه الانكليزي قد طبع في لبنان أولاً ثم في بومباي من بلاد الهند ثانياً ثم في لندن منذ نصف سنة. وقد صدرت عنه ترجمة هولندية منذ سنتين وقريباً تصدر ترجمة برتغالية وأخرى ألمانية. وهكذا نرى أن الكتاب يشقّ طريقه إلى جمهور واسع في العالم دون دعاية ودون أي طبل وزمر. ولو كان لك أن تطّلع على

بعض ما نشرته الصحف الأجنبية عنه لأيقنت مثلي أن في الناس وفي كل مكان شوقاً كبيراً إلى الآفاق الواسعة التي يفتحها «مرداد» أمام الإنسان. أما في ترجمته العربية فقد أُعيد طبع الكتاب حتى اليوم ثلاث مرات. وقريباً تصدر الطبعة الرابعة. وهذا يشهد أن في العالم العربي كذلك قوماً يتشوقون إلى الرسالة التي يحملها مرداد.

الذي يقرأ كتابك «اليوم الأخير» لا بد أن يخطر بذهنه هذا السؤال:

أين تقف شخصية المؤلف إزاء شخصية الدكتور موسى العسكري؟ وهل كان لا بُدّ لموسى العسكري من تجربة «اليوم الأخير» ليتحول إلى شخص آخر جديد يركب الزورق الذي يجري ضد مجرى النهر؟

«اليوم الأخير» هو خلق من أوله إلى آخره. وأعني أن جميع الأشخاص والأحداث فيه هم مختلفون وليس ما يربط بيني وبين بطل الكتاب إلاّ أنه يهتدي في النهاية إلى بعض الحقائق عن الحياة البشرية التي كتبت عنها من زمان. فموسى العسكري الذي خلقته من مخيلتي وجعلته دكتوراً في الفلسفة وأستاذ الفلسفة في جامعة محترمة كان في الواقع رجلاً لا فلسفة له في الحياة. فكأنّ الفلسفة التي تلقنها من الكتب والتي كان يلقّنها من الكتب لم يكن يربطها بحياته أي رابط. ولكن الأحداث التي جعلته يمرّ بها في حياته دفعته على التفكير في قيمة الحياة ومعناها إذ جعلته يقف أمام الموت وجهاً لوجه. وهكذا مشيت به من حادث إلى حادث إلى أن بلغ نقطة اليقين بأن معنى الحياة لن ينكشف له إلاّ في معاكسة التيار الذي يجرف الناس جرفاً ولا يترك لهم مجالاً للتفكير في الزمان وما هو وراء الزمان. وأظنني نجحت في حمل القارىء على مرافقة موسى العسكري في رحلته التي لم تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة، والتي في الواقع كانت رحلة حياة لا بداية لها ولا نهاية. المهم في نظري أن أفتح للقارىء نوافذ جديدة لا أن أفرض عليه هذه العقدة أو تلك. فحسبه أن ينظر من خلال النوافذ التي أفتحها له وأن يخلص إلى النتيجة التي توافق مستواه الفكري وتركيبه الروحي. ولن أتأثر

أبداً إذا هو بلغ عكس النتيجة التي كنت أحاول أن أقوده إليها. وحسبي منه أن يبلغ نتيجة ما، لا أن يبقى خشبة على وجه اليمّ تتقاذفها الأمواج أينما شاءت.

كثيرون كتبوا عن جبران بعد وفاته، غير أن كتاب «جبران خليل جبران» يظل في نظري من أفضل من وفى جبران حقه، إن بأسلوبه القصصي الشيّق أو بمحتواه الأدبي الرفيع. فعن أية روح صدر هذا الكتاب؟ أهي روح الصداقة ورابطة القلم أم غير ذلك؟

في المقدمة القصيرة التي وضعتها في هذا الكتاب جواب صريح على سؤالك فأنا أقول في تلك المقدمة: إني ألّفت الكتاب «على أمل أن يطالع القارىء من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا تاريخ حياته الذي لا يعرفه أحد، وأن يقع فيه على دروس في الحياة التي يشترك فيها كل الناس بالسواء. وها أنا أرسله في سبيله عالماً حق العلم أن ما فيه من صراحة سيرضي البعض ويغيظ البعض ويدهش الكثير ممن لم يعرفوا جبران إلا في ما قرأوه من أدبه واطلعوا عليه من فنه. لكنها صراحة لست لأتخلى عنها. فلولاها لما كان الكتاب أهلاً للنشر، ولولاها لانطمس أجمل ما في حياة جبران، وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمحه بخياله وبثه بسخاء في رسومه وسطوره»[1]. ولعل النقطة الأهم في تلك المقدمة هي النظرة التي أبديها في آخرها إذ أقول: «فالفن مهما تسامى في نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء ما لم يترجمه صاحبه والناس إلى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة إلى حرية الحياة التي لا تحد ـ من الإنسان في الله إلى الله في الإنسان. والأدب، مهما جمل، لا معنى له إلّا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذي هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء».

من المعلوم أنك منذ مطلع هذا القرن قد عالجت موضوع الرواية والقصة القصيرة. إلا أنك انقطعت فيما بعد عن تأليف هذا الضرب من الأدب وإن كنت

(١) «جبران خليل جبران»: مؤسسة نوفل، الطبعة العاشرة بيروت ١٩٨٥، ص ٧ ـ ٨.

قد لجأت إلى أسلوب آخر جديد كما في كتاب «مذكرات الأرقش» هذا الكتاب الطريف والقيم الذي تتجلى فيه البراعة الفنية.

أفيكون الأسلوب الجديد قد استهواك؟

تراني في كل ما أكتب اتنكّب المألوف والمطروق والعاديّ من الأحداث والأشخاص، وذلك ما تراه في أكثر القصص القصيرة التي ألّفتها وقد صدر لي منها حتى الآن ثلاث مجموعات هي: «كان ما كان» و«أكابر» و«أبو بطة». هذا بالاضافة إلى القصص الطويلة التي نهجت فيها نهجاً خاصاً ككتاب «مذكرات الأرقش» الذي ذكرت، وقصة «لقاء» و«اليوم الأخير» وغيرها. فأنا أؤثر أن أعالج ما يشذ عن القاعدة ذاتها، ففي، الشاذ وغير المألوف ما يحملك على التفكير أكثر بكثير من الأمور التي تتبع نمطاً واحداً وتبدو مألوفة لكل إنسان.

أين تقف في رأيك الحركة القصصية العربية في ميدان الأدب العالمي؟

إن القصة على حداثة عهدنا بها تخطو خطوات واسعة في العالم العربي. والإقبال عليها إنْ من الكتّاب وإن من القراء يتزايد يوماً بعد يوم. ولأنّ العالم العربي في حالة غليان سياسي واقتصادي في هذه الأيام فلم يُتَحْ له بعد أن يُنتج القصة التي ترتفع إلى المستوى العالمي. إلاّ أن تباشير تلك القصة أخذت تبدو في الأفق، ولن يطول الزمان الذي يغدو للعرب فيه مركز مرموق في دنيا القصة العالمية.

هل أنت متفائل بأدبنا المحلي في لبنان؟

أنا متفائل في كل شيء بصرف النظر عما يتخبط العالم فيه اليوم من قلق وخوف على مصيره. وإذا كنا نشهد اليوم فترة ركود أدبيّ في لبنان فيقيني أن هذه الفترة لن تطول.

هل ترى أن الأديب عندنا أياً كان شأنه يمكنه أن يعيش من أدبه إذا ظل في معزل عن تشجيع الدولة؟

لست أريد للأدب أن يكون عالة على الدولة. وأؤثر للأديب المخلص

لأدبه أن يجاهد ويعمل بقوته الخاصة حتى وإن كان في جهاده شيء من الشقاء. فليس ألذّ من الشعور ببلوغ الغاية إذا نحن دفعنا ثمن الظفر تعباً مُمِضاً وسَهَراً طويلاً وجهاداً لا يأبه بالفقر والحرمان إذا هما كانا السبيل لبلوغ الهدف.

هل في جعبتك مشاريع أدبية جديدة؟

حياة الأديب حَبَل فولادة ثم حبل فولادة ثم حبل فولادة وهذا يعني أنني ما دمت حياً فأنا أتزوّد من يومي لغدي. أما ماذا سيكون الطفل الجديد فأمر أجهله اليوم ولا أريد التكهن به. هذا مع اعتقادي بأن الأديب يحقّ له أن يتقاعد عن العمل من بعد أن يحسّ عبء السنين على كاهله. وهو جدير، وقد صرف السنين في العمل، أن يصرف ما تبقّى له من العمر في التأمل.

(جريدة الطيار- تلغراف، بيروت ٦ - ٥ - ١٩٦٣)

الكهف والبرج العاجي

هل لك يا أستاذ نعيمه في اعطائنا ملخصاً عن بداية حياتك الأدبية؟

بدأت حياتي الأدبية في المهجر بكتابة مقالات نقدية دخلت فيما بعد في كتاب «الغربال»، ولكنني مع النقد كنت أعالج القصة كذلك فكتبت «العاقر» وغيرها من القصص. وفي صيف عام ١٩١٦ وهو الصيف الذي أنهيت فيه دروسي الجامعية وضعت مسرحيتي «الآباء والبنون» وهذه نشرتها لي مجلة الفنون في كتاب عام ١٩١٨ فكان أول كتاب صدر لي. وكانت القصة فاتحة مؤلفاتي التي يبلغ عددها الآن ما بين عربية وانكليزية نحو ٢٦.

يأخذ عليك معظم الأدباء عزلتك عن الناس والابتعاد عن المدينة. فهل لك أن تبرر لنا هذه العزلة وأسباب التوجه إلى كهف في جبل صنين كلما رغبت في الكتابة؟

كيف لمن كان مثلي يكتب للناس أن يعتزل الناس؟ فلو أني في الواقع كنت بعيداً عن الناس لما كان لي أن أفهم مشكلاتهم المادية والروحية وأن أكتب لهم عنها كتابة تلقى الرضى من قبل جمهور كبير منهم. ولو أن هذه الكتابة ما كانت تمس حياتهم لما أقبلوا على قراءتها. إلا أني أفضل العيش في قرية على العيش في المدينة لأنني لا أطيق صخب المدينة والكثير من البشاعات التي

تجري في حياتها يوماً بعد يوم. ومن ثم فلا بد لي من خلوات أستطيع أن أفكر فيها تفكيراً صادقاً عميقاً لأميز بين الجوهر والعرض في حياة الناس.

ويبدو أن البعض يفسر ميلي إلى هذه الخلوات مع الطبيعة تفسيراً خاطئاً فيحسبه ابتعاداً عن الناس، في حين أني ما ابتعدت عن الناس إلا لأقربهم مني. فلحمهم لحمي ودمهم دمي ومشكلاتهم الأساسية مشكلاتي أما المشكلات العرضية فلا تهمني إلا على قدر ما أستطيع أن أنفذ منها إلى المشكلات الأساسية، وهي مشكلة البقاء أو الفناء ومشكلة الخير والشر، ومشكلة الغشاوات التي تحجب الإنسان عن أخيه الإنسان.

اليوم وأنت تعيش في مسكن فخم وحديث في بسكنتا فهل نفهم من هذا أن إنتاجك قد طرأ عليه تغيير بعد انتقالك من الكهف المشهور في صنين؟

إني أؤثر الكتابة في أماكن ينقطع فيها الضجيج وتتجلى لي فيها الأشياء طاهرة وصافية من الكدر الذي تفرضه عليها تقاليد الناس ومعتقداتهم الجافة الخاطئة. لقد ألّفت الكثير من كتبي في كهف بديع أعدّته لي الطبيعة في سفح صنين وألّفت بعضها هنا في البيت. أما نتاجي في المهجر فقد جاءني في ساعات متأخرة من الليل عندما كنت أستطيع أن أنسى مشاغل النهار وأن أصم أذني دون ضجيج مدينة هائلة كمدينة نيويورك.

إذا كانت تلك طريقتك في الكتابة فهل توصلت إلى فلسفة خاصة في الحياة بعد عزلتك عن ضجيج المدينة والابتعاد عن حياتها الصاخبة؟

بعد تفكير طويل ممضّ توصلت إلى الاقتناع بأن الحياة في جوهرها واحدة وإن هي تلبست أشكالاً محسوسة لا حصر لعدّها. فالإنسان في نظري كائن عجيب تتمثل فيه جميع الكائنات وهو من هذا القبيل صورة كاملة للقدر التي منها جميع المحسوسات. وهذه الصورة تنجلي في الإنسان على مر الزمان الذي لا نعرف له بداية ولا نهاية ولا بد للإنسان من أن يخلص من الازدواجية إلى الأحدية فيعي نفسه كائناً لا بداية له ولا نهاية كالقدرة التي منها انبثق والتي إليها

سيعود حتماً.

هذه خلاصة الفلسفة التي ترتكز عليها حياتي، أما تفصيلها وتحليلها وتعليلها فقد كرست له أكثر من كتاب ولا مجال للخوض فيها في حديث صحفي كهذا الحديث.

أرجو الإجابة بكل صراحة عن السؤال التالي: هل تعتبر نفسك إنساناً فاعلاً في المجتمع؟ وما هي أوجه هذه الفاعلية؟

هذا سؤال غريب إذ كيف لي أن أعتبر نفسي غير إنسان في مجتمع وأنا القائل كما أسلفت إن الكون في أسره يتمثل فيّ وأتمثل فيه. أما ما ينتج عن وجودي من تأثير في الغير ومن تأثير الغير فيّ فأمر يعود تقديره إلى الذين يحتكون بي وأحتك بهم مباشرة أو بواسطة الكلمة الحية التي هي الأداة الوحيدة في يدي للتأثير على الغير.

مرة أخرى أرجو الصراحة في تحديد مركزك الأدبي، فما هو التصنيف الذي تصنف نفسك به: كاتب مقال: كاتب تأملات، مؤلف قصة أو مسرحية، أم ماذا؟

التصنيف هو أبعد ما يخطر في بالي. فليس أخطر من أن تصنف الناس كما يصنف التاجر بضاعته فيضع على كل صنف اسمه وسعره. إني كاتب وكفى. وقد ولجت من أبواب الأدب أكثر من باب، فكتبت المسرحية والنقد والقصة والمقالة والشعر. ولك إذا كان لا بد من التصنيف أن تصنفني كما تشاء.

هل لك في إعطاء رأيك في الشعر الحديث؟ وإذا كانت لديك بعض الانتقادات فلماذا لم تجهر بها حتى الآن وأنت المعروف بانتقاداتك الصريحة والجريئة؟

الشعر الحديث تيار من التيارات الأدبية التي لم يأتنا من الغيب بل ساعدت على خلقها ظروف كثيرة من حياتنا وحياة العالم الذي نحيا معه

وضمنه. ومجرد وجود أيّ تيار يعني أنه يعبّر عن حاجة من حاجات المجتمع. وهذه الحاجة قد تكون عميقة الجذور وقد لا تكون. والزمان وحده يكشف لنا قيمتها. لذلك لا أكلف نفسي العناء بتحبيذها أو تقبيحها لأني واثق من أن غربال الزمان لن يبقى فيه على المدى الطويل إلا الصالح والضروري لنمو الانسان وتفتحه.

ومن حق كل جيل أن يتبع ما يحلو له من التيارات الفنية والفكرية وإن هي لم تكن مستساغة لدى الكثير من معاصريه أو من الأجيال التي سبقته. فالمهم أن لا نُبتلى بالجمود لأن الجمود موت.

تعوّد قراء العربية أن تقدم لهم أعمالاً أدبية قيّمة، فهل لنا أن نعرف ما هو عملك الأدبي الجديد الذي تقوم به حالياً؟

كان آخر ما صدر لي رواية بعنوان «اليوم الأخير» وهذه لم يمض على صدورها أكثر من ٤ أشهر، ولأن الكتابة محنة لا يستطيع الكاتب التخلص منها أخذت أفكر في كتاب آخر. إلا أنه لم يتبلور في ذهني بعد ولذلك لا أحب الحديث عنه. وقد قررت أن أستريح في هذه الفترة فأنصرف إلى المطالعة وإلى الرسائل الكثيرة التي تستغرق قسماً كبيراً من وقتي، وكذلك إلى استقبال الزوار الذين يفدون عليّ كل يوم تقريباً. فلا أبخل على أيّ منهم بكل ما يطلبه من إفادة أو من وقت.

وعندما طلبت إلى أديبنا الكبير ميخائيل نعيمه إبداء رأيه في عدد من أدبائنا وشعرائنا المعاصرين قال:

«أرجو أن تعفيني من هذا السؤال لأني لا أبدي رأيي في الأحياء إذ يساء أحياناً تفسير كلامي. ثم إني لم أطلع على جميع انتاجهم لأتمكن من إبداء رأيي فيهم...».

هل قرأت مسرحية توفيق الحكيم الجديدة «يا طالع الشجرة»؟ وما رأيك

بمسرح اللامعقول؟

أولاً لم أقرأ هذه المسرحية، وثانياً أن تسألني رأيي في شيء تدعوه لا معقول هو ضرب من التهكم إذ كيف لي أن أعطيك جواباً معقولاً في شيء لا معقول؟.

في لبنان اليوم عدد كبير من الأديبات اللواتي أعطين انتاجاً أثار ضجة أدبية. فهل تعتقد بوجود أدب يمكن تسميته الأدب النسائي؟ وما هي أوجه وجوده أو عدم وجوده؟

أفضّل أن لا نقسم الأدب إلى أدب رجال وأدب نساء فالأدب أدب سواء أكتبه رجل أم امرأة. إلا أن المرأة في الأدب العربي اجمالاً والأدب الحديث على الأخص لم يكن لها حتى الآن إلا نصيب ضئيل جداً.

أما في الزمان الأخير فقد برزت في أدبنا أسماء نساء حملت البعض على التكلم عن الأدب النسوي. ولا بأس في ذلك فالمهم أن يكون هذا الأدب أدباً له قيمته ووزنه. وإنه ليسرني أن أسجل للمرأة في لبنان هذه القفزة المباركة التي قفزتها إلى عالم الحرف والكلمة.

وعندنا اليوم شاعرات وكاتبات يحق لنا أن نعتز بهن وإن يكنْ بعضهن يميل إلى الأدب الوجودي أو الجنسي المفضوح وهو أدب كنت أود لكتّابنا وكاتباتنا أن يبتعدوا عنه لا هرباً من الواقع بل هرباً من البشاعة.

وفي نهاية حديثنا مع أديب لبنان الكبير ميخائيل نعيمه سألته عن رأيه في إحياء التراث اللبناني القديم لما فيه من قيمة ثقافية كبرى لكل مواطن ولا سيما الفئة المثقفة فأجاب بقوله:

هنالك أسماء لمعت منذ نصف قرن أو أكثر ثم خبا لمعانها ولم يخبُ لمعانها إلا لأن الجيل الحاضر لا يحسّها قوة فعالة في حياته. فلا لوم عليه من هذا القبيل. ولكن هذه الأسماء كانت ولا تزال لَبِنات في تاريخ أدبنا. ومن

الحيف أن نهملها ولو من حيث قيمتها التاريخية. ولعل البعض منها سيعود ويحتل مكانه في تاريخ الأدب من بعد أن يصبح لنا تاريخ نغار عليه ونعتز به.

(جريدة الشعب، بيروت ٢٣ - ٥ - ١٩٦٣)

ازدواجية اللغة في المسرح العربي

أول سؤال طرحته عليه:

هل لديك جديد بعد رواية «اليوم الأخير»؟

عندي مشروع كتاب أشتغل فيه. كتبت عدة فصول منه ولكن لا أستطيع أن أتحدث عن موضوعه ولا عن اسمه ولا عن الوقت الذي يمكنني أن أنتهي منه. أما إطاره فهو واسع، كناية عن ألوان متعددة من الحياة.

ليس هو برواية ولا بقصة، ولكنه مجموعة من المشاهد القصيرة التي تتنوع في لونها ومضمونها ومغزاها.

تناول بعض النقاد كتابك «اليوم الأخير» بالمهاجمة. أين تقف من هذا الرأي؟

عندما وضعت الكتاب في شكل رواية، كنت أعرف حق المعرفة أن الذين ألفوا الرواية في الشكل الذي بلغته حتى اليوم سيعتبرونه شاذاً إلى حد ما لأنه لا ينطبق على مقاييسهم وموازينهم. أما أنا فقد رميت إلى الخروج في هذا الكتاب عن المقاييس والموازين المألوفة. على أنني حرصت منتهى الحرص أن يبقى الكتاب في أحداثه وأشخاصه ذا صلة متينة بالحياة التي يحياها الناس في كل يوم، بمعنى أنك تطال الكثير مما يحيا في الكتاب فلا تقول: إنه غير طبيعي

وغير واقعي. ولكنني في الوقت ذاته جعلت هذه الأشياء الواقعية ترتفع إلى ما فوق الواقع بمراميها البعيدة. فباستطاعتي القول إن كل شيء في العالم هو غريب وعجيب وغير مفهوم في كنهه. إلا أن الناس يألفونه فيحسبون أنهم باتوا يعرفونه. وأنْ تألف الشيء هو غير أن تعرفه. ولذلك وضعت بطل الكتاب في حالات نفسية وزمنية تدفعه دفعاً على التفتيش عما هو أعمق من الظواهر. وهكذا جعلته يتدرج من المألوف في الأشياء إلى معانيها الخفية.

ولذلك أدخلت في حياته بعض العناصر غير المألوفة لأحمله حملاً على البحث عن معانيها الخفية. فجعلت من ابنه هشام ولداً على مستوى أرفع بكثير من مستوى الأولاد الذين في سنه. ثم خلقت شخصاً دعوته «اللاّمسمّى». وجعلت بين هذا الشخص وبين هشام صلة وثيقة على مستوى روحي سام، لعل القارىء يستطيع أن يفكر بأن العالم الذي ينطوي في نفسه، والذي يتجلى له من حواليه هو عالم باطنه غير ظاهره. والذي لا يفهم باطن العالم الذي يعيش فيه بل يكتفي من ذلك العالم بالظواهر كالذي يكتفي من الجوزة بقشرها ومن النار بدخانها ومن البحر بزبده.

ما هو مستوى «اليوم الأخير» بالنسبة إلى الرواية العالمية المعاصرة؟

في اعتقادي أن جميع مشكلات الإنسان تنبت وتتفرع من مشكلة أساسية واحدة. وتلك المشكلة هي جهل الإنسان لنفسه ولمكانته في الوجود. ولأن الإنسان يجهل نفسه والقصد من وجوده تراه يحاول عبثاً أن يثبت كيانه في عالم لا نهاية لتقلباته. وهكذا نرانا نتخبط في أمور معقدة نحاول حلّها فلا تنحل إلا إذا انحلت العقدة الأساسية وهي معرفة الإنسان لنفسه وللغاية من وجوده. وإذا أنا شئت أن أعدّد المشكلات التي يتخبط فيها عالم اليوم لما انتهيت. وحسبي أن أذكر مشكلة الحرب والسلم وما تتفرع عن هذه كلها من مشاكل اقتصادية واجتماعية ودينية وعنصرية وغيرها. حتى لتكاد تكون حياتنا على الأرض سلسلة من المشكلات التي لم تحلّ واحدة منها بعد. أما إذا تيسّر لنا اليقين بأنّ الإنسان

ينطوي كيانه على كل ما نعزوه لله من قدرة ومعرفة وخلود فعندئذ فقط نستطيع أن نوجّه جميع قوانا إلى تحقيق الله في الإنسان. وعندئذ فقط تنهار جميع مشكلاتنا كما ينهار قصر من ورق إذ يغدو الإنسان أخاً ونصيراً لجميع الناس وجميع المخلوقات. وإذ ذاك فخيرهم خيره وويلهم ويله، وإذ ذاك يدرك الناس أن الحماقة هي حماقتهم عندما تقوم دولة على دولة أو قبيلة على قبيلة أو دين على دين، أو يحاول أي الناس أن يسعد بشقاء غيره وأن يحيا بموته. فشقاء الواحد هو شقاء الكل وحياة الواحد هي حياة الكل. وإذ ذاك فأيّ مبرّر لما نراه من تسابق على القوة والنفوذ والسلطان في الأرض، ومن تكالب على خيرات التراب التي لا قيمه لها على الاطلاق إلا على قدر ما تساعدنا على فهم أنفسنا وشعورنا بالمسؤولية تجاه إخواننا الناس وتجاه الكائنات على أنواعها. و«اليوم الأخير» يعالج هذه الأمور بطريقة قصصيّة.

ما رأيك في الحياة والموت؟

الحياة شيء جميل جداً جداً جداً للذين يستطيعون أن يدركوا هذا الجمال وما وراءه من معاني. والحياة ما يسّرت لنا عالماً حسّياً فيه من المغريات ما فيه إلا لتدلنا بالخبرة المتتابعة عمراً بعد عمر على حقيقتها التي لا تتغير ولا تتبدل من جيل إلى جيل على مدى الزمان. وإلا لتُفهمنا أن المحسوسات على أنواعها إلى زوال وجمالها إلى زوال. ولكن القوة التي تغير المحسوسات ولا تتغير هي الجمال الذي لا يذوي الحقيقة التي يحسُن بالإنسان أن يتمسك بها إذا هو اهتدى إليها فيحسّ أنه هو الحقيقة وأنّ كل ما يتغير فيه وحواليه ليس حرياً بأن يفرح له أو يحزن.

والإنسان الذي يبلغ تلك الحقيقة يصبح وهو في الجسد أقوى من الجسد. ويصبح وهو عرضة للموت أقوى من الموت.

المهم أن نتمسك بما لا يتغير فينا لا بما هو عرضة للتطور والتبدل. والذي لا يتغير فينا هو عين الروح الذي يتلبّس الأشياء ولكنه ليس شيئاً، ويغير الأشياء

ولكنه لا يتغير، ويسيّر الفصول والأزمنة ولكنه لا يتقيد بفصل ولا بزمن.

مارست في بدء حياتك الأدبية والفنية الرسم والشعر. فهل لنا أن نعرف لماذا تركتهما؟

لم أمارس الرسم إلا في فترة قصيرة حاولت الرسم فيها للتسلية لا أكثر من دون أن يخطر في بالي أن آخذ ولو درساً واحداً في فن الرسم. أما الشعر فقد كان أول ما خطر في بالي عندما أحسست ميلاً جارفاً نحو الأدب. وقد نظمت الشعر وأنا تلميذ في الناصرة، ثم نظمته بالروسية في روسية، ثم واصلت نظم الشعر بالعربية وبالانكليزية وأنا في أميركا. والذين قرأوا مجموعتي الشعرية «همس الجفون» لمسوا ولا شك ميولي إلى التفكير الفلسفي حتى في نظمي. لكنني من بعد أن أخذت أتعمق أكثر فأكثر في درس الإنسان وحياته والغاية من وجوده، وجدت أن الشعر يضيق بي للتعبير عن هذه الأمور كلها. لذلك هجرته واكتفيت بالنثر. وذلك لا يعني أنني قتلت ميولي الشعرية. فقد كنت أُشبع تلك الميول ولا أزال بالتصوير الشعري حتى في نثري. وعندي أن كل كاتب لا يكون كاتباً حقاً إلا إذا هو كان شاعراً حقاً كذلك.

هل أثرت المرأة بنوع عام على أدبك. وما رأيك فيها؟

أن يعيش رجل مثلي أربعة وسبعين عاماً، وأن يؤلف ما ألف من غير أن يكون للمرأة في حياته أثر لأمر غير معقول. إلا أنني لست من الذين يضجون بهذه الأمور ويتحدثون عنها لمناسبة وغير مناسبة. فهي عندي أمور مقدسة لا يجوز التحدث عنها كيفما اتفق. ولأنني أقدّس المرأة لا أحب أن أتكلم عنها كما يتكلم شعراء الغزل وكتّاب الروايات الجنسية. فهي عندي أم الحياة، والحياة في نظري هي كنزنا الأغنى والأقدس. فكيف بمن ادعوها أم الحياة. وإنه لمن تدنيس المقدسات عندي أن ننحدر بالمرأة أو بالرجل إلى مستوى البهيمة بدلاً من أن نرفعهما إلى قدسية الله.

كيف ترى المسرح العربي في الوقت الحاضر، وما هي الأسباب التي

تنهض به؟

تقوم في وجه المسرح العربي عقبات عدة. أولها ازدواجية اللغة ما بين فصحى وعامية. ولو أن البون لم يكن شاسعاً جداً بين هاتين اللغتين لهان الأمر إلى حد ما. ولكن المسرح الذي يفرض فيه أن يمثل الحياة كما نحياها في كل يوم يصبح مهزلة إذا نحن حاولنا أن نعطيه لغة غير اللغة التي يتفاهم بها الناس في كل يوم. ولأننا لا نملك لغة عامية واحدة تشمل جميع الأقطار العربية فمن الواضح أن المسرح العربي سيبقى يتعثّر إلى أن نخلق له لغة يتفاهم بها جميع العرب ولا تكون كاللغة الفصحى لا يفهمها إلا نفر ضئيل. وهناك عقبة أخرى وهي اجتماعية ودينية. فحتى الأمس القريب لم يكن للمرأة شأن يذكر في حياة الأمة العربية. وكيف يقوم المسرح بدون امرأة؟ وفي حين أن الدين لا يزال يشغل أكبر حيزّ في حياتنا الشرقية، نرى أقصى الصعوبة في تمثيل الحياة الدينية على المسرح كما يجب أن تمثل. إلا أننا في الزمان الأخير أخذنا نشعر بأهمية المسرح في حياة الشعوب وأخذنا نحاول أن نسدّ هذا الفراغ بوسائل قد تكون اليوم بدائية ولكنها تصلح أساساً لمحاولات أوسع وأبعد في المستقبل. ولا شك عندي أن المسرح العربي قادم على فترة ازدهار برغم العقبات التي تعترض سبيله الآن. والأيام كفيلة بأن توفّق بين العامية والفصحى وأن تطلق الأفكار من القيود الاجتماعية والدينية التي تفرضها ظروف اليوم.

ما رأيك في الشعر اللبناني الحديث، أو بما يسمونه القصيدة النثرية؟

كلمة شعر كلمة أضفت عليها أجيال متعاقبة ضروباً كثيرة من الجلال. وأغلب الظن أن الشعر في البداية كان للغناء. ويدلّك على أن الشعر في لغات جميع الشعوب كان للانشاد. فالعرب مثلاً يقولون «أنشد» ولغيرهم من الشعوب كلمات في الشعر بمعنى أنشد أيضاً. والمعروف أن إلياذة هوميروس كانت مجموعة أناشيد. وهذا يعني أن الشعر في أساسه كان له شيء من الوزن الذي يصلح للإنشاد وأنه كان مقفّى كذلك. لأن القافية تساعد على إبراز النغم. وإذن

فالشعر منذ القدم كان يتميز عن النثر. ولذلك سُمي شعراً وسُمي النثر نثراً. أما إذا شاء بعض أدبائنا اليوم أن يجعلوا من النثر شعراً فحريّ بهم أن يستغنوا عن كلمة شعر، أو أن يقولوا: شعر نثري ونثر شعري.

وعلى كل حال، فالمهم أن نخلق أدباً جميلاً لا أن نصرف الوقت في مماحكات لا طائل تحتها عما هو الشعر وما هو النثر وأين هي حدود مملكة هذا وذاك.

ما هي نصيحتكم للأدباء الشباب في لبنان؟

كتبت مقالاً في هذا المعنى بعنوان «مجد القلم» وهو منشور في كتابي «في مهبّ الريح»[1]. فليعد إليه من يشاء.

وانتهى الحديث. وكان ميخائيل نعيمه بخاطره أن يجيب وبخاطري أنا أن أسأل، أن أسأل كثيراً. لكنني تركت ميخائيل نعيمه. إنه يعدّ كتاباً جديداً، ولربما كان كتابه إحدى خطى مجدنا الكبير نحو العالم.

(جريدة الصفا، بيروت ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٦٣)

---

(١) «في مهب الريح» مؤسسة نوفل، الطبعة السابعة، بيروت ١٩٨٣، ص ١٧٢.

مثلي مثل النحلة

يلومك البعض، لأنك بعيد عن الناس، وعن مشاكلهم، وقضاياهم، ومآسيهم، فما رأيك في هذا؟

إني لأعجب جداً للذين يتهمونني بالبعد عن الناس... فكأني بهؤلاء يعتقدون بأن ليس في الدنيا بشر إلّا في المدن وإلّا حيث يكثر الضجيج، والعجيج، والغبار، وتكثر الملاهي، والأندية، وأوكار اللذة... أو كأني بهؤلاء يعتقدون بأنني عشت في قفص معلق بالفضاء.

وكيف لإنسان مثلي تنقّل في هذا العالم من مدرسة إلى مدرسة، ومن قارة، إلى قارة، وعاش في أصخب مدينة عرفها العالم، وهي «نيويورك»، ١٥ سنة متتالية، كيف لي أن أكون بعيداً عن الناس، وقد خبرت منهم ما خبرت، وما أزال أخبر في كل لحظة من وجودي؟

لا. إنما العكس هو الواقع. فأنا أبداً من الناس، وأنا أحس بمشاكلهم عميق الإحساس، ولولا ذلك لما استطعت أن أكتب لهم، ولما استطعت أن أجد قارئاً واحداً لما أكتب.

وإذا ما ملت إلى العزلة، فإلى حد. لأنني في عزلتي أستطيع أن أفهم الناس ومشكلاتهم على نمط أوسع وأوضح بكثير مما لو كنت منجرفاً معهم في

كل دقيقة.

وإذا جاز لي التشبيه، لشبهت نفسي بالنحلة، التي تبتعد كثيراً عن خليتها، وتعود إليها لتفرغ خلاصة ما جنته، من تعب نهارها. وكل ما أرجوه هو أن تكون خلاصة جناي ذات مذاق طيب في أفواه الناس، وأن تساعدهم على تفهم أنفسهم، وعلى السير في طريق الوجود حتى غايته المشرقة التي لا نستطيع أن ندرك بهاءها حتى في الخيال.

ما هو دور المرأة في حياتك، وهل كان لها دور ترك أثراً ملموساً مع العلم بأنك في مذكراتك «سبعون» تقول إنك تقف من المرأة موقف الملاك، أو الرجل ذي الإرادة الفولاذية وإنك تصد بعنف كل المحاولات لإغوائك؟

عندما وضعت كتابي «سبعون» في ثلاثة أجزاء لم يخطر في بالي قط أن قارئاً من قرائي سيشك في صحة كل ما جاء في الأجزاء الثلاثة. فالذين يعرفونني عن كثب يعرفون أنني أبعد ما أكون عن المبالغة والتمويه والتدجيل وعن تصوير الأشياء التي تتعلق بحياتي على غير حقيقتها.

إلا أن أكثر الناس تعودوا أن يقيسوا الأشياء والناس بذراعهم الخاص. فإذا خرج أحدهم عن مقاييسهم وقفوا أمامه حائرين، شاكّين. لقد كنت صادقاً منتهى الصدق في كل وصفته من علاقاتي مع النساء في كتابي «سبعون». فحيث استسلمت للإغراء الجنسي قلت إنني استسلمت. وحيث عاندت قلت إنني عاندت. وأنا لو جئت أعد الظروف التي آثرت فيها العفة على التمتع لاتهمني الكثيرون بالمبالغة. ولكن ذلك هو الواقع.

هنالك جهة أخرى لا يفهمها أكثر الناس في حياتي، وهي أنني أعتبر العلاقة بين الرجل والمرأة، إذا هي بلغت حد الحب، علاقة مقدسة يجب الصمت عنها ولا يجوز الكلام.

وإنني لأشعر أعمق الشعور بأن من يتحدث عن الحب بين شخصين إنما يدنسه. لذلك لا تجد شيئاً مما يدعونه غزلاً في شعري، أو في نثري. وإذا أنا

تحدثت عن علاقة بين قلبي وقلبٍ لمّحت إليها تلميحاً. فلا ذكر للعيون، وللنهود، وللزنود، وللقامات، وللأرداف، وللسيقان، وما شابه ذلك، ولا للسهاد، ولا للشكوى، ولا للعتاب.

ولعلّ خلو كتاباتي من ذلك هو الذي يجعل بعض القراء يظنون بأن المرأة لم يكن لها أي نصيب في حياتي. في حين أن حياتي ما خلت يوماً من الشعور بقيمة المرأة، وبالحاجة إلى لطفها، وعطفها، ومحبتها.

وقد يرتفع الإنسان بحبه للمرأة إلى مستوى ينسى عنده الفوارق الجسدية بين الذكر والأنثى. ولعمري، فالحب لا يبلغ منتهاه إلا إذا هو تغلب على الشهوة الجنسية وأصبح رابطاً بين روحين، لا رابطاً بين جسدين.

هل لعبت المرأة دوراً في أدبك؟

الإنسان عالم شاسع، مليء بالأسرار. والذي يدّعي فهمه بكل ما فيه إنما يدّعي الباطل. ولقد تعودنا أن نحكم على النتائج دون أن نتقصى الأسباب. هكذا نحكم على الكاتب بما ألّف، ولكنه يستحيل علينا أن نعرف كيف ألّف، ولماذا ألّف، كما يستحيل ذلك على الكاتب نفسه.

فأنا لو جئت أتقصّى العوامل التي دفعتني إلى كتابة هذه المقالة أو نظم تلك القصيدة، أو تأليف ذلك الكتاب، لما استطعت. فالعناصر أكثر من أن أحصيها. والدوافع تتوالد وتتشابك بشكل لا يترك لي مجالاً لأعرف أين تبتدىء، وإن كنت أعرف أين تنتهي. لذا لا أستطيع أن أحدد ما هو الدور الذي لعبته المرأة في أدبي.

ففي كتابي «اليوم الأخير» خطر لي أن أصور حياة إنسان جاءه خبر بأنه سيموت بعد ٢٤ ساعة. ذلك كل ما خطر لي في البداية. أمّا من يكون ذلك الإنسان، وما تكون علاقاته مع سائر الناس، وأين يعيش، وماذا سيقع له في خلال الـ ٢٤ ساعة، فذلك لم يكن شيء منه في خاطري في البداية.

إلا أنني، والفكرة أخذت تلاحقني، كنت أينما اتجهت أفكر بالموضوع. فإذا بي أتخيل أستاذ فلسفة في جامعة، وأتخيل أن ذلك الأستاذ جاءه هاتف في منتصف الليل يخبره بأنه يعيش يومه الأخير. وعندما أخذت قلمي لأكتب أخذت صورة الرجل تتجلى لي شيئاً فشيئاً حتى أصبح من لحم وعظم وأصبحت أشعر كما لو كنت قد عرفته منذ أمد بعيد. ثم ما لبثت أن خلقت لهذا الرجل زوجة وجعلتها تهجره مع طالب من طلابه.

وبعد ذلك أخذت فصول الكتاب تتوالد في رأسي بالتتابع من غير أن يكون لديّ أيّ فكرة من أين ستأتيني الصورة الآتية. وهكذا حتى انتهيت من الكتاب دون أن يكون لذي سابق تصميم حول الطريقة التي سأنهيه بها.

إلا أنني تمكنت من جمع تلك الصور المتقطعة فجعلتها وحدة متماسكة تؤدي إلى نتيجة كانت قائمة في ذهني منذ زمن، ولا تزال، وهي ان الحياة لا تنتهي بانتهاء العمر وان معظم الناس يعيشون في رغوة، أو يتخبطون، ما داموا مسوقين بالتقاليد والطقوس والعادات دون أن يكون لهم الفكر لتنقيحها ونبذ الكثير منها.

ولقد رمزت إلى ذلك في آخر الكتاب وقلت: إن الذين ينساقون مع التقاليد والطقوس من يوم إلى يوم هم المنجرفون في التيار من غير أن تكون لهم القدرة على المقاومة. أما الذين أدركوا ما في التقاليد والطقوس من جمود، فأولئك هم الذين وجدوا في أنفسهم القدرة على تحدّيها. وقد رمزت إليهم بقولي إنهم يجذّفون ضد مجرى نهر الزمان ليبلغوا النقطة التي يتلاشى عندها الزمان والمكان ويعود الإنسان سيد نفسه المطلق، كما هو الله الذي منه الإنسان واليه.

ما رأيك في الأدب النسائي، وهل يصح فصله عن أدب الرجال؟

مما لا شك فيه أن نظرة المرأة إلى الحياة تختلف إلى حد ما عن نظرة الرجل. ولكن هذا الاختلاف لا يمكن أن يجعل من أدب المرأة أدباً قائماً

بذاته. . فالأدب أدب سواء كتبته امرأة أو كتبه رجل.

ولأن المرأة تنقاد بعاطفتها أكثر مما تنقاد بفكرها، فقد تكون هذه الناحية من أبرز مميزات الأدب النسائي.

وإنه ليسرني أن يظهر في الزمان الأخير عدد غير قليل من النساء في لبنان أخذن يعملن في حقل الأدب أعمالاً لها قيمتها. فقد برزت أسماء في دنيا القصة مثلما برزت أسماء في دنيا الشعر، وكلها يبشّر بالخير.

وإذا ما خشيت على هذا الأدب شيئاً، فإنني أخشى تطرفه في الناحية الجنسية. فمن شأن هذا التطرف أن يصرفنا عن قيمة المرأة كإنسان لها ما للرجل من الفضل في تسيير شؤون الحياة المختلفة بحيث لا أستطيع أن أعطي الرجل من الفضل أكثر مما أعطي المرأة.

وحسب المرأة أن تكون إناءً مقدساً للحياة لنعرف فضلها على الأجيال في كل زمان ومكان. فالرجل دون المرأة نصف إنسان والمرأة دون الرجل نصف إنسان. وأما الإثنان فيشكلان الإنسان الكامل.

وأنا أعتقد أنه إذا ظهرت بوادر ضعف في أدب النساء فإنما ذلك ناتج عن ضعف التجربة. فالإنسان لا يستطيع أن يكتب إلا عن أشياء عاشها حقاً.

(مجلة شهرزاد، بيروت ١٤ - ١٠ - ١٩٦٣)

في الحفلات التكريمية

سألته: ماذا أعددت للمطبعة في فصل الصيف؟

أجاب:

أنا في سبيل إعداد كتاب جديد. ولكنني لا أدري متى أنتهي منه. فوقتي يضيق عاماً بعد عام لكثرة ما يأتيني من الزوار، ومن رسائل، ومن مؤلفات لا بد من الاطلاع عليها وإبداء رأيي فيها. على أنني أرجو أن أنتهي من كتابي الجديد في الربيع القادم، إن شاء الله. أما مضمون الكتاب فمشاهد متنوعة من حياتنا في كل يوم. وأما اسمه فسأتركه إلى أن أنتهي من وضعه.

أقيمت عندنا عدة حفلات تكريمية لعدد من الأدباء، فهل هذه الحفلات كرمتهم حقاً؟ وهل هم بحاجة إليها؟

في ما يختص بي أستطيع القول بأن الحفلة التي أقيمت لي في بسكنتا، أقيمت بعد معارضة شديدة من جانبي. وذلك لا يعني أنني ضد الحفلات التكريمية على الاطلاق، لأنها لا تخلو من منفعة لا للرجل الذي نكرّمه وحده، بل للجمهور كذلك. فنحن بتسليطنا الأنوار على آثار كاتب من الكتّاب إنما ندعو الناس للتعرف إلى ذلك الكاتب، وقيمة ما قدّمه للأدب.

ونحن في الواقع، إنما نكرم أنفسنا كلما كرمنا أي إنسان انتفعنا بعمله في

أي حقل من حقول النشاط البشري.

أدباؤنا الشباب يعالجون عدة فنون أدبية في وقت واحد فهل تتوسم فيهم خيراً؟

إن الذين يستطيعون أن يجيدوا في أكثر من حقل واحد من حقول الأدب هم قلة ضئيلة جداً. وعندي أنه من الخير للكاتب الناشىء أن ينصرف إلى نوع واحد من الأدب لعله يتقنه ويحلّق فيه. فالذي يحمل بطيختين في يد واحدة ينتهي في الغالب إلى فقدان الاثنتين. ولست أعني أن نجعل من الأدب ميداناً للتخصص، كما هي الحال في دنيا الطب وغيرها من العلوم. ولكنني أؤثر للكاتب، وعلى الأخص الكاتب الناشىء، أن يتميز بنوع واحد من الأدب على أن يكون كاتباً ذا قيمة محدودة في أكثر من فرع واحد من فروع الأدب. أما العباقرة فلا يخضعون لأيّ قياس ولا لأيّ تحديد.

كثيرون عندنا يعالجون الرواية. فما رأيك بانتاجهم؟

في القصة القصيرة كما في الرواية قمم عالمية يتطلع إليها الأدباء في كل مكان. فكاتب القصة القصيرة يصبو لأن يصبح يوماً ما دي موباسان أو تشيخوف. وكاتب الرواية يصبو إلى مركز دوستويفسكي وبلزاك من القدامى أو همنغواي وكامو من المحدثين.

فلا عجب إذ ذاك أن تقوم عندنا محاولات لكتابة الرواية. ولكنها حتى اليوم لا تعدو كونها محاولات. ولعلنا في المستقبل القريب يسعدنا الحظ بأن ينبت من أرضنا روائي كبير.

هل ترى أن الكتاب اللبناني يحظى بدعاية كافية لانتشاره خارج حدود لبنان؟

هناك دلائل كثيرة في الزمان الأخير على أن الدولة أخذت تتحسس قيمة الكتاب، فتقيم له المعارض في الخارج. والأهم من ذلك أن الجمهور عندنا،

وفي باقي البلاد العربية، أخذ يشعر بحاجته إلى الكتاب. ولكن هذا الشعور ما يزال فاتراً، وهو بحاجة إلى من ينفخ فيه شيئاً من الحرارة، لعلنا نبلغ زماناً لا نجد فيه بيتاً واحداً في لبنان خالياً من مكتبة. ومتى أصبحت المكتبة في البيت ضرورة كالسرير والكرسي والمطبخ والحمّام، عندئذ يمكنك القول بأننا أصبحنا قوماً متحضرين. وقبل ذلك سيبقى العالم يتحدث عن ماضينا وعن آثارنا التاريخية دون أن يعتبرنا في صلب الحضارة.

هل القلم النسائي الأدبي عندنا يبشر بمستقبل خيّر؟

لم يكن عندنا في مطلع هذا القرن إلا عدد ضئيل جداً من النساء اللواتي دخلن حومة الأدب. وأذكر منهن على سبيل المثال ميّ زيادة وسلمى صائغ وماري عجمي. أما اليوم، فقد برزت عندنا أسماء نساء كثيرات، بعضهن يبشر بالخير الكبير. هذا إذا هن ثابرن على العمل الأدبي. ولا عجب فالمجال بات اليوم واسعاً ومنفتحاً أمام المواهب النسائية. فالعراقيل التي كانت تواجه التعليم والتعلم، وفي حرية العمل الاجتماعي والسياسي، قد زالت جميعها أو كادت. فبات من حقنا أن ننتظر بروز مواهب نسائية في حقول كثيرة، وعلى الأخصّ في حقل الأدب. فليس ما يعوق المرأة على الاطلاق أن تكون شاعرة كبيرة أو روائية كبيرة، ما دام لها عمق الشعور وقوة الخيال ورهافة الذوق والصبر على العمل الطويل.

(مجلة الجمهور الجديد، بيروت ٢٨ - ١١ - ١٩٦٣)

على أرض بغداد

قال الأديب الكبير في حديث كان يدلي به إلى الزمان:

هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها بغداد. وكنت وأنا في طريقي إليها أمس أخشى أن أصاب بخيبة أمل إذا قارنت بينها وبين بغداد الرشيد في عصر ازدهار العباسيين خشية أن تطغى بغداد القديمة في خيالي، على بغداد الحديثة.

ومضى الأستاذ نعيمه في حديثه وهو يتملى في عاطفة دافقة وإحساس صادق دجلة متألقاً بين الساحل والساحل من شرفة بغداد ويصدر عباراته التي تهز الأعماق وتضرب على أوتار القلوب في همس أشبه بالصلوات:

لقد قرأت كما قرأ غيري الشيء الكثير عن عظمة بغداد في أوج ازدهارها وكنت أعتز عندما أقرأ أنها لم تكن عاصمة العباسيين فحسب بل كادت تكون عاصمة العالم.

وها أنا اليوم وقد جلت جولات في هذه المدينة يسرني أن أقول بأنها تركت بغداد هارون الرشيد وراءها.

ولست أعني من حيث الزمن. فتلك تتأخر ألف سنة ويزيد. إنما أعني من

حيث النهضة العمرانية التي لمستها فيها.

والمهم في نظري أن بغداد الجديدة يشيدها شعب لا أمير المؤمنين.

فالفرق شاسع بين حاكم يستغل الشعب ليقوم بأعمال عمرانية ولكن ليس لصالح الشعب بل لصالح طبقة واحدة من طبقاته وهي الطبقة العليا.

فالرجل العادي، الرجل البسيط، الرجل الفقير، لم يكن له أي شأن منذ ألف سنة إلا على قدر ما يصلح جندياً للقتال أو ظهراً لحمل الأثقال أو آلة لتنفيذ مآرب أسياده.

أما اليوم فهذا الرجل العادي البسيط الفقير قد أصبح له في حساب الدولة أول الحساب.

فهي باسمه وُجدت، وله تعمل وتشعر أن أسسها لا تثبت إلا إذا كان الشعب الذي منه انبثقت يحمل أثقالها برضى منه وبطواعية لأنه يعرف أن الدولة ليست لطبقة دون طبقة وبكلمة أخرى إنها ليست للأثرياء والمتزعمين.

وهذه النهضة التي لمستها في عاصمة العراق الحديث تبعث فيّ الأمل في أن تستمر في خط تصاعديّ وعلى مدى سنوات كثيرة فلا يمضي طويل وقت حتى لا نعود في حاجة إلى استعارة ألق من ماضينا نُضفيه على حاضرنا.

والأمم المتطورة حقاً هي الأمم التي إذا التفتت إلى الوراء لم تخجل بما هي فيه تجاه ما كانت عليه.

ولحدّ الآن كان العرب على الإجمال يعيشون في ماضيهم أكثر مما يعيشون في حاضرهم. ذلك لأن حاضرهم كان يبدو باهتاً وضئيلاً تجاه الحوادث الجسام التي خلقوها فيما مضى وتجاه الرجال العظام الذين أنبتتهم تربتهم. وأملي كبير في أن نهضة العراق المباركة ونهضة الشعوب العربية على الاجمال ستصرف العرب عن العيش في ماضيهم إلى العيش في حاضرهم ومستقبلهم فلا يخجلون إذا ما جرت مقارنة بين ما كانوا عليه وبين ما هم فيه من تقهقرهم تقهقراً

بعيداً عن أمجاد عرفوها ثم باتت آثاراً لا أكثر.

وإنه لمن الخير لكل شعب أن يلتفت إلى ماضيه ولكن لا بعين الحسرة عليه بل بعين الرضى والاعتزاز، لأنه استطاع أن يخلق من جديد أحداثاً جساماً ورجالاً عظاماً.

ولنا في هذه المناسبة التي جمعتنا في بغداد وعلى تراب العراق مثل حَيّ على ما أعنيه. فاحتفالنا بالذكرى الألفية لبغداد وللكنديّ هو مناسبة جميلة ومفيدة جداً إذا نحن كان لنا الأمل واليقين بأننا سنخلق أفضل من بغداد الرشيد وأفضل من الكندي.

وطاقة الشعوب لا تقاس بما خلقت وحسب بل بما في استطاعتها أن تخلق عبر الزمان.

والشعوب التي نفدت طاقتها هي وحدها الشعوب التي تستحق أن يرثى لحالها.

ثم قال: أما نحن العرب فلست أريد أن يشعر أيّ منا بأن طاقتنا قد نفدت.

ولست أريد أن نستمر في نظرنا إلى الغرب كما لو كان القمة وكما لو كنّا في الحضيض. وإيماني بأن العرب لم يستنفدوا طاقتهم هو الذي يجدّد أملي في مستقبل باهر لهم.

وسأل مندوب الزمان الأستاذ ميخائيل نعيمه عن رأيه في التيارات الفكرية السائدة في العالم العربي؟

وأجاب سيادته قائلاً:

من المؤسف أن الاتجاهات الفكرية التي نستطيع تمييزها في العالم العربي اليوم ليس منها واحد ينبع من التربة العربية الصميمة.

والذي أراه هو أن الفلسفة الوجودية تكاد اليوم تطغى على باقي الاتجاهات الفكرية في العالم العربي.

وهنالك من يحاول العودة إلى الفكر العربي في إبان نضجه ولكنهم لا يستطيعون التخلص من النطاق الضيق الذي ورثوه عن التقاليد الدينية القديمة. وهذا ما يحدّ من انطلاقة الفكر في دنيا العرب. ففي هذه الأيام لم أجد بعد كاتباً استطاع أن يفهم الدين على حقيقته حتى إذا عاد للرسالة الإعلامية مثلاً كان بإمكانه أن يغوص إلى أعماقها ويبلغ الجوهر الذي مكّنها من ذلك الانطلاق الرائع من بلد متأخر صحراوي كالجزيرة العربية في ذلك الزمان وأن يجعل منه منارة تشع أنوارها إلى أبعد بكثير من الجزيرة العربية. والذين يحاولون اليوم بعث الحيوية في تلك الرسالة لا يدخلون موضوعهم من الباب الأوحد الذي يؤدّي بهم إلى فهم تلك الرسالة، فهي في أساسها رسالة إنسانية ورسالة محبة، وقط لم تكن تدّعي لنفسها المقدرة بأن تصبح الرسالة الوحيدة في العالم.

وحسبك من تلك الرسالة ما جاء فيها أنه لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة.

يبقى هنالك نفر قليل في شرقنا العربي من الذين أدركوا وهن الفلسفة المادية المسيطرة اليوم على عقول الغرب والذين يحاولون أن يعودوا بالمشرق إلى شيء من وحدانية الروح وحلاوة الحياة التي تهيمن عليها نفحات قدسية من الفلسفة الروحية.

أما على الاجمال فبامكانك القول إننا من حيث اتجاهاتنا الفكرية لا نزال نضرب في بيداء ونخبط على غير هدى.

(جريدة الزمان، بغداد ٥ - ١٢ - ١٩٦٣)

حديث الشعر

السؤال الأول: أسباب تناقض الأدباء حول تحديد مفهوم الشعر، إلى م تعزونها؟ وما هو رأيكم؟

الجواب: إنَّه لأمر طبيعي جداً أن يختلف النقاد في نظرهم إلى الشعر حديثه وقديمه. وذلك لأنهم بشر. فلكل واحد منهم مزاجه وذوقه وثقافته وإحساسه الخاص بالجمال. . وهذه الأمور كلها قلّما تجدها واحدة في رجلين اثنين فكيف بمجموعة من الناس أو بالناس كلهم. ومن ثم فتحديد أي شيء في نظري هو ضرب من المحال وهذا ينطبق على الشعر الذي لم يستطع أي الناس أن يعطيه تحديداً واحداً يتفق عليه كل الناس. أما رأيي الخاص في الشعر فهو أنه منفذ لما يجول في نفس الشاعر من تأملات وأحاسيس وأفكار تثيرها قضايا الحياة في داخله فيحاول أن يعبّر عنها تعبيراً يفرغ فيه هذه الأمور كلها في قوالب تؤدّي إلى القارىء في صورة صادقة عما يجول في نفس الشاعر. وهذه القوالب لا بد لها أن تتصف باللطافة في الايقاع والحركة واللون ليكون لها الأثر المرغوب في نفس القارىء أو السامع. وليس من الضروري أن يتبع الشاعر في شعره نمطاً له حدود لا يتغير كالأوزان والقوافي. بل المهم أن يفعل كلامه في نفس القارىء فعل الموسيقى الموقّعة أحسن توقيع والحركة المنسجمة أحلى انسجام والصورة المؤتلفة الألوان والظلال.

السؤال الثاني: هل من مبرر للحملة العنيفة التي تثار حول بادرة التجديد في الشعر العربي؟

الجواب: لا مبرر على الاطلاق. فمن حق أي شاعر أن يعبّر عن شعوره بالطريقة التي يشاء. ومن حقي أن أتذوق شعره أو لا أتذوق.

والزمان كفيل بأن يصفّي الشعر الحديث كما صفّى الشعر القديم فلا يُبقي منه إلا على الجميل الذي يملك الطاقة على مرافقة جميع الأجيال وعلى مدى طويل من الزمان.

السؤال الثالث: إذا قيل الشعر كما تهمسه العفوية اتهم بالرتابة والركاكة، وإن أجري عليه التنميق اتهم بالتكلف والتعقيد؟ فما هو الحل إذن؟

الجواب: العفوية شيء لا وجود له في الكلمة المكتوبة. فالكتابة وحدها تفترض شيئاً من التفكير والعناية قبل وضعها على الورق. والفن في حد ذاته عمل يتطلب الكثير من الحركات الواعية ليأتي التعبير ملائماً للشعور أو الفكر أو الحالة النفسية التي تعبّر عنها. أما التعنت في نحت الكلام والتقعر في المجيء بالغريب منه فأمرٌ في نظري مستهجن لأنّ من شأنه أن يصرف القارىء أو السامع عن الجوهر إلى العَرض فيهتم بالكلمة التي هي اللباس وينسى الغاية التي من أجلها حيك ذلك اللباس.

هل لكم أن توضحوا المقصود: «بالحركات الواعية»؟

نعم، يقوم الجسم بأكثر وظائفه من غير وعي من العقل كالهضم مثلاً والتنفس ورفّ الجفون وما أشبه.. ولكننا عندما نتكلم فكلامنا ليس وظيفة كالوظائف التي ذكرت بل هو يصدر عن وعي تام من قِبَل العقل. فالمفروض في المتكلم أن يعرف أن لكل كلمة معنى وأن يختار الكلمات التي تؤدي المعاني. وهذا الاختيار هو عملية واعية.

(جريدة الأنباء، بيروت ١ - ١ - ١٩٦٤)

حسبنا عبقري واحد
في جيل واحد

بعد كتاب «سبعون» وكتاب «اليوم الأخير»، ثمة فترة انقطاع وصمت فما سرّهما؟

ليس من المفروض في الكاتب أن يصدر له كل سنة مؤلف أو أكثر. والفترة التي تنقضي بين مؤلَّف ومؤلف قد لا تكون إلا فترة «مخاض». وهذا هو واقعي الآن. فأنا أعمل على مؤلف جديد ولكنني لا أكاد أنتهي منه لأن مشاغلي كثيرة تتصل برسالتي ولا تسمح لي أن أنكبّ على التأليف دون انقطاع. وهناك، عدا مراسلاتي ومقابلاتي للناس، أشغال ثانوية تنبت لي من حين إلى حين وتحول بيني وبين الكتاب الذي أعمل في تأليفه الآن. . .

من المقالات النقدية التي ظهرت حول روايتك «اليوم الأخير» مقالة لإنعام الجندي في «الأسبوع العربي»، وثانية لإدوار البستاني في «لسان الحال»، وقد اتّسمت المقالتان بشيء من القسوة، فما رأيك فيهما؟

لم أقرأ مقال إنعام الجندي ولا مقال إدوار البستاني في كتابي «اليوم الأخير» وأنا عندما ألّفت ذلك الكتاب لم يخطر في بالي قط أن يستقبله الكل بالتصفيق والترحيب. فقد علمتني خبرتي أن الناس يستحيل عليهم أن ينظروا إلى الأمر بعين واحدة. لذلك قلّما اتفق النقاد على أثر واحد من الآثار الأدبية.

وهذا أمر طبيعي. والكاتب الذي يعرف كيف يكتب، ولماذا يكتب، يجب أن يتلقى كل ما يقال فيه برحابة صدر متناهية وهذه هي حالي مع النقاد!

هل تستبشر خيراً بالأقلام الناشئة في النقد والدراسة الأدبية في لبنان، وما هي وصيتك للناقد الناشىء؟

كثيراً ما أقرأ مقالات ينعى فيها أصحابها فقرنا في لبنان إلى نقاد كبار. وعندي أنّ في ذلك شيئاً من التشاؤم الذي لا مبرر له. والذي أراه هو أن الأدب يمرّ في مراحل. فلكل مرحلة لونها، ولكل مرحلة نقّادها. فلو أن الأدب في لبنان اليوم كان في حاجة إلى نقاد غير الذين برزوا في هذه الفترة لكان له أولئك النقاد. ولا يخلق النقاد الكبار إلا الأدباءُ الكبار. . .

و. . . الشعر الحديث؟

إذا تكلمت عن الشعر الحديث فلن أتكلم عن شاعر بعينه، ولكن عن موجة لا نستطيع تجاهلها. فمثلما ضاق صدري، وأنا في بدء حياتي الأدبية، بالقوالب الشعرية المتبعة في ذلك الوقت فلغيري من الجيل الجديد أن يضيق صدره بالقوالب الشعرية التي سبقته، وأن يسعى إلى الانفلات منها وخلق قوالب جديدة. فالقالب في ذاته لن يعدو كونه قالباً لا أكثر. وهو ليس المهم، بل المهم هو الذي تسكبه فيه. ولست أشك في أن بعض النثر يسمو إلى درجة الشعر العالي مثلما أن بعض الشعر ينحط إلى مستوى النثر الرخيص. . . على أنني إذا فاتني تذوق الكثير من الشعر الحديث فلن يفوتني أن أترك لغيري الحق في تذوقه إذا هم استطاعوا ذلك.

بعد «الغربال»، اقتصر نشاطك في النقد على بعض رسائل التشجيع للكتاب الناشئين. لماذا لا تستمر في كتابة النقد على غرار مباحث الغربال؟

النقد أنواع. منه ما يتعلق بالأدب في معناه المحصور ومنه ما يتعلق بالحياة في معناها الشامل. وأنا قد اهتممت بالنقد من النوع الأول في بدء حياتي الأدبية لأنصرف فيما بعد إلى الحياة الشاملة والكشف عن معانيها وأهدافها كما أدركتها

حتى الآن. ومن ثم فهنالك ناقد لا يستطيع أيّ النقاد مجاراته وذلك هو الزمان. فهو وحده الكفيل بغربلة كل ما نكتب ونقول، غربلة لا يبقى معها إلّا الصحيح وإلّا الصالح لكل زمان ومكان. وهذا الناقد الأخير هو الذي جعلني أتنازل عن نزعتي إلى نقد الأدب في معناه المحدود. . .

هل تعتبر نفسك مناوئاً للدين وشرائعه؟

الدين جوهر وعَرَض. أما الجوهر فهو شعور بوجود قوة خالقة ومدبّرة من وراء كل المحسوسات. ثم هو الشوق إلى الاتصال بتلك القوة والعمل معها لا ضدها. وهذا الدين هو في لبّ كل ما كتبته، منذ ثلاثين سنة أو أكثر. أما ما يدعونه عقائد لا تتغير أبداً من الزمان ثم ما يتجمع حول تلك العقائد من طقوس وتقاليد تغدو كأنها هي الدين، فذلك الضرب من الدين لا يهمني بكثير أو قليل. . . ولو أن مثل هذا زال من الأرض تماماً لما خسرت الأرض في نظري شيئاً بل لعلها كانت تكسب كسباً كبيراً وذلك بإزالة الحواجز التي يخلقها مثل هذا الدين بين الناس فيفرقهم ويمزقهم وينسيهم أنهم عائلة واحدة لمعيل واحد. . .

مارست نشاطاً أدبياً وأنت في معترك الحياة العملية في المهجر ومارسته وأنت في انقطاع عن المدينة في «الشخروب». فهل تعتقد بأنه يمكن الأديب والمفكر أن يتهيأ له جو صالح للانتاج وهو يخوض مشاكل الحياة اليومية؟

أعرف أدباء لا يستطيعون الكتابة إلّا في المقاهي وإلا حيث تكثر الحركة والضجة. وأعرف آخرين لا يستطيعون الكتابة إلا إذا هم سدّوا جميع نوافذهم على العالم الخارجي. أما أنا فلست من أولئك ولا من هؤلاء. وإذا آثرت العزلة في الجبال فلأنّ في نفسي حاجة إلى السكينة المولّدة التي في كنَفَها أستطيع أن أهضم ما تزودته من الناس بحياتهم الصاخبة لأردّه إليهم غذاءً صالحاً وخالياً من السموم قدر المستطاع. فمن شأن الناس وهم في دوّامة العمل أن ينسوا أنهم وُلدوا لأكثر من العمل الذي يعملون. فلا بد لهم من خلوة مع أنفسهم ليفهموا

قيمة أنفسهم وقيمة العمل الذي يعملون. .

بعضهم يقول إن ميخائيل نعيمه فيلسوف. . وبعضهم يقول هو كاتب ـ أدب، وبعضهم يقول بل هو شاعر، فما هو رأي ميخائيل نعيمه في هذا الموضوع؟

لست أرى كيف يمكن الأديب أن يكون أديباً إلا إذا هو كان شاعراً وفيلسوفاً وفناناً وناقداً في آن واحد معاً. . . فمن طبيعة الأدب أن يتسع لكل ما يهم الإنسان. وليس التخصص من شأنه كما هي الحال في الطب وغيره من العلوم التي نعرفها اليوم. والأدب الكامل هو الأدب الذي يتناول الإنسان بكل نزعاته وهواجسه وأشواقه وهذا الأدب لم تبلغه أي أمة بعد. . .

إلى أي حد تعتقد أنك تأثرت بالأدب الروسي وبمن من أعلامه ومشاهيره؟

اعترفت في أكثر من مناسبة، وعلى الأخص في «سبعون» بفضل الأدب الروسي عليّ في أول نشأتي. وإذا أنا جئت أعدّ لك الكتّاب الروس الذين طالعتهم وكان لهم أثر في نفسي لضاق ذرعك وذرع القارىء. . . إلاّ أنني أذكر بعضهم في الأقل وفي مقدمتهم الشاعران «بوشكين» و«ليرمونتوف» والناقد «بيلينسكي» والروائيون «تورغينيف» و«دوستويفسكي» و«تولستوي» و«غوركي» والقاص الأشهر «شيخوف».

على الصعيد العالمي، ما هي قيمة الجوائز التي تمنح باسم المؤسسات وما هو دورها في تقييم الأدب وتشجيعه؟

من المعروف عن الجوائز الكبيرة والصغيرة أنها تمنح بواسطة لجان. ومن الأكيد أن أعضاء تلك اللجان ليسوا في درجة واحدة من حيث تقديرهم للأدب وتذوقه. فرأيهم من هذا القبيل لا يختلف كثيراً عن آراء غيرهم. ثم من المعروف كذلك أن عناصر غريبة عن الأدب كثيراً ما تتدخل في القضية فتميل بالمحكَمين إلى هذه الناحية أو تلك. لذلك كانت الجوائزُ من حيث هي تقدير

لهذا الأدب أو ذلك، مجالَ أخذ ورد وطعن.. إلا أنها لا تخلو من ميزتين كبيرتين أولاهما أنها تسلط الأضواء على أديب من الأدباء فإذا كان ذلك الأديب كبيراً حقاً اعترفَت بقامته الأدبية، وإذا كان أقلّ من كبير زادت في قامته ولو قيراطاً. أمّا الميزة الثانية فهي أنها توفر للأديب الذي يحصل على الجائزة بعض الراحة في سعيه وراء العيش وبذلك تعطيه فرصة أوسع للانتاج.. وإنه ليسرّني أن تقوم عندنا في الزمان الأخير جمعية كجمعية «أصدقاء الكتاب» التي استطاعت في وقت قصير أن تلفت أنظار الجمهور إلى الأدب والأدباء وأن تعزز مركز الكتاب من حيث هو أداة فعالة في تثقيف الأمة ورفع مستواها العقلي والروحي.

ما كلمتك في الحركة الأدبية في لبنان اجمالاً؟

عندنا اليوم في لبنان عدد من الكتّاب والشعراء الناشئين الذين يبشرون بالخير. وعدد الآثار الأدبية التي تصدر في لبنان، عدد لا يستهان به. لذلك لست من الذين ينعون على الأدب في لبنان جموده كما لو كان متخاذلاً في أداء مهمته من حيث هو بعض من حياة الأمة. وليس من الضروري أن يكون لنا في كل عام عباقرة تنطح رؤوسهم السحاب. فالعباقرة لا ينبتون كما ينبت الفطر. ولأنهم نادرون فحسبنا أن نرى لنا ولو عبقرياً واحداً في جيل واحد.

(جريدة النهار، بيروت ٢٨ - ٢ - ١٩٦٤)

هموم اللغة

ما هو في رأيكم موقف الأدب العربي الآن وقيمته بين الآداب الأخرى؟

ما من شك في أنّ الأدب العربي منذ بدء النهضة أخذ يتطور تطوراً سريعاً، وذلك بفضل احتكاكه المستمر بالآداب الأجنبية النامية. وهذا التطور نلمسه الآن في القصة القصيرة بالدرجة الأولى، ثم في الرواية ثم في الشعر. فالقصة عندنا اليوم تكاد تكون سيدة الموقف، وهي تعالج شتى جوانب حياتنا من سياسية واجتماعية. وأستثني الدين لأنه ما يزال النقطة الأكثر حساسية في حياتنا إلى حد أنه يصعب على الكاتب أن يتناولها بالصراحة وبالجرأة اللازمتين لمعالجتها. وهناك بوادر تبشّر بوصول القصة العربية إلى مستوى القصة الغربية وإن تكن هذه البوادر لا تزال ضئيلة وقليلة. وحسبك أن بعض الدول الأجنبية أخذ يهتم بهذا النوع من أدبنا إذ قد وقفت بنفسي على ترجمات صدرت في الروسية لجمهرة من القاصيّن العرب، وقد جاءتني مؤخراً رسالة من طالب عربي في ألمانيا يبشرني فيها بأن دور النشر الألمانية أخذت تهتم بما عندنا من قصة، وأن واحدة منها ستنشر قريباً مجموعة من القصص لطائفة من الكتّاب العرب بينهم عدد كبير من المصريين وغيرهم من البلدان العربية. وهذا يقوّي فيّ الإيمان بأن يظهر في الديار العربية كاتب يعترف به الغرب ولا يأبى أن يضعه في مصاف الكتّاب العالميين الكبار.

أما في الشعر فهنالك خطوات ابتعدت بنا كثيراً عن الشعر العربي المألوف إلى حد أنه بات يتعذر علينا التمييز بين الشعر والنثر: وهنالك الذين يرون في هذه الانطلاقة شبه كارثة للشعر. أما أنا فأقول إن من حق الذين يهتمون بالشعر الحديث المتطرف أن يفعلوا ما هم فاعلون ما داموا يتذوقون هذا الضرب من الشعر، وما داموا يجدون من يتذوقون.

ولعله من إنصاف الحياة وحكمتها أنها جعلتنا أحراراً في اختيار ما نقرأ وما لا نقرأ، فنحن في عهد الدراسة كنا نقرأ ما يفرض علينا فرضاً. أمّا وقد خرجنا من المدرسة فنحن أحرار في اختيار الكتب التي نقرؤها والكتب التي نعرض عنها.

إني وإن كنت أحسّ عند قراءة الشعر الحديث أنه لا يأتي، كما يدّعي أصحابه، عفو الخاطر ولا يعبر تعبيراً صادقاً عن حالة أو حالات نفسية بذاتها، أترك المجال لغيري ليحسّ غير ما أحس على أن يكون صادقاً مع نفسه.

سؤال يتفرع عن كلامكم حول الشعر: هل تعتقدون أن الاهتمام بالمضمون وبما يسمّى في عرف الشعراء الحديثين بالموسيقى الداخلية يبرر كل هذا التجاوز على المقوّمات الشعرية المألوفة؟

عندما نتكلم عن النغم في الكلام إنما نتكلم عن ظاهرة لا يمكن أن يحسها إثنان إحساساً واحداً. فإذا كان من الشعراء المحدثين من يدّعي أن في شعره أنغاماً تهتز لها نفسه وكنت لا أحس تلك الأنغام، فليس في استطاعتي أن أدعوه دجالاً أو مستهتراً ولكنني أحتفظ لنفسي بالحق في أن أقول بأني لا أحس إحساسه. لقد حاولت غير مرة أن أفتح نفسي للشعر الحديث وعلى الأخص لما يدعونه قصيدة النثر، فوجدتني أجهد نفسي دون جدوى. هذا فيما يختص بي. أمّا غيري فلا شأن لي معه.

لا شك أنكم كنتم مجددين في قصائد ديوانكم «همس الجفون». وقد أثارت روح التجديد البادية في الديوان إذ ذاك كثيراً من المناقشات. فهل كنتم

تحلمون بأنْ تتطور القصيدة العربية في مضمار التجديد كل هذا التطور لتأخذ الشكل الذي نراها عليه الآن. أو بكلمة أخرى هل أنتم راضون عن هذا التطور؟

ليست القضية قضية رضى أو عدم رضى من جانبي أو جانب غيري ولكنها قضية مجابهة لأمر واقع. وما من شك أن السرعة التي تمّ بها هذا التطور كانت سرعة مذهلة. ولكنا نعيش في زمان كل ما فيه مذهل من ريادة الفضاء إلى الملاهي التي تتستّر بستار كثيف من الظلمات لأنها من النوع الذي ينفر منه الذوق وتمجه الأخلاق. والذي أراه هو أن الحرب العالمية الثانية، وقد انتهى تدميرها المادي، بدأت تدمّرنا تدميراً روحياً فتقلب الكثير من مقاييسنا رأساً على عقب وتعبث بأشياء كثيرة كنا في الأمس القريب نحسبها من أقدس المقدسات.

وماذا عن مدى إلتحام أدبنا بالأمة؟

لا تستطيع أيّ نبتة تقوم في تربة ما إلا أن تتأثر بتلك التربة كثيراً. والأدب العربي، حتى ولو حاول، ما استطاع أن يبتعد كثيراً عن تربته العربية. ولكنه، وهو ما يزال ناشئاً، قد يُغفل الآن نواحي من حياة الأمة لا تطفو على السطح ولكنها ما تزال في الأعماق. وهذه القوى الدفينة في الأمة العربية لا بد أن يأتيها يوم تعمل فيها الأعاصير عملها فتخرج بها إلى العيان حيث يحسها الأدباء وينصرفون إلى معالجتها. قد يكون في أدبنا الآن شيء كثير من السطحية. ولكنه لن يبقى أبداً على السطوح فلا بد من يوم يغوص فيه ذلك الأدب إلى الأعماق وهناك يحظى بكنوز لا يتأتّى له أن يحلم بها اليوم. وما ذلك إلّا لانغماسه في المشكلات الطارئة التي هي في نظري بنت ساعة وتمضي. فهذه المشكلات تبدو في بعض الأحيان معضلات تستعصي على الحل. أما في الواقع فهي مشكلات عابرة. أما الأمة فباقية.

إلى أيّ مدى تستشعرون ضرورة تجديد اللغة، وهل في لغتنا العربية من الحيوية ما يسمح لنا بمجاراة النمو الحضاري في ميدان المادة والمعنى؟

من المؤسف جداً أن نجدنا في هذه الظروف الحرجة من حياتنا ولنا لغتان

بدلاً من لغة واحدة. . . وهذه حقيقة لا نستطيع أن نتعامى عنها. فالعامية عندنا تحيا جنباً إلى جنب مع الفصحى، والعامية هي لغتنا في كل يوم. في حين أن الفصحى هي لغتنا حين نكتب ونخطب لا أكثر. وهذا مما يعيق اللغة العربية في تطوّرها لتصبح قابلة لهضم كل جديد وللسير مع المدنية المتجددة في كل يوم.

أما متى تنحلّ مشكلة الازدواجية في اللغة فعلم ذلك عند العارف بذات القلوب، وكم كنت أود أن لا أبرح هذه الأرض قبل أن أرى للأمة العربية لغة واحدة، مرنة المفاصل، واسعة المعدة، قوية الهضم، دون أن يكون هنالك أيّ خوف من قِبَل المتزمتين والمتعنتين على موت تلك اللغة، وعلى فقدان تراثها الضخم الثمين.

ما هي في رأيكم الحلول العملية لتيسير اللغة؟

في رأيي أن نحو اللغة العربية يجب أن يعاد النظر فيه لتيسير قواعده والتخلص من الكثير من زوائده. وكذلك صرفها. ثم في رأيي ألّا تحجم العربية عن تقبل كلمات أجنبية كثيرة فرضتها علينا الظروف فرضاً دون أن تعطينا الوقت الكافي لوجود ما يقابلها بالعربية أو لصوغها في صياغة عربية. ونحن يلازمنا الشعور بأن الوقت يسبقنا أبداً. فلا مجال للجدل البيزنطي، بل الحاجة ماسة إلى العمل السريع دون أن نترقب الفتات الذي يتساقط علينا من موائد المجامع اللغوية. القضية في أساسها قضية تخصّ الأدباء بالدرجة الأولى، ثم العلماء الذين لا مناص لهم من شعوبهم إلى كل جديد في العلوم. وإذا كان لا بد من حل وسط فعندي أن القضية يجب أن تقسم إلى شقين، شق يختص بالأدب والأدباء (وعلى الأدباء وحدهم معالجته) وآخر يختص بالعلم والعلماء (وعلى العلماء وحدهم الاهتمام به) ولهذا لا بد من لجان مشتركة تجمع بين أدباء العرب وعلمائهم.

ومن الضروري أن تؤلف هذه اللجان في أسرع وقت ممكن وإلّا فاتنا اللحاق بقافلة الحضارة.

(مجلة المجلة، القاهرة آيار ١٩٦٤)

من نحن؟ من أين؟
وإلى أين؟ ولماذا؟

ميخائيل نعيمه كتلة نشاط أدبي متواصل. إنه ما برح يمد مكتبة الضاد بالمؤلفات الاجتماعية والأدبية والفلسفية والنقدية. وبين يديه الآن كتاب جديد يدفعه إلى المطبعة في أوائل الخريف.

ليس الكتاب، كما قال ناسك الشخروب، ذا موضوع واحد، وإنما هو معرض صور متعددة لنواحي متعددة من الحياة التي نحياها في كل يوم. وهذه الصور تختلف بالطبع في حجمها وأهميتها واتجاهها.

قلت للأستاذ نعيمه:

ما اسم مؤلفك الجديد؟

الاسم الذي يجول في خاطري الآن، والذي يغلب في النهاية على باقي الأسماء هو «هوامش». فالصور التي حدثتك عنها لا تتعدى كونها هوامش على متن الحقيقة الأزلية. وأعني الحقيقة التي نصبو إليها، ولا ندركها.

يقال إنك لم تتأثر في حياتك بالمرأة، مع العلم أن وراء كل عظيم امرأة؟

ما يقوله الناس هو غير الواقع. ولعل ما يوحي إليهم ذلك هو خلو شعري ونثري من الغزل الذي ألفوه، وهو الغزل الذي يكثر من التلهف والتفجع

ووصف المرأة، وما يقوم بينها وبين الرجل من علاقات. أما أنا فالعلاقات التي قامت بيني وبين بعض النساء، قد جئت على ذكرها في «سبعون»، فلست من الذين يقوقئون عن مثل هذه العلاقات. فهي عندي مقدسة وشخصية بحتة، وليس من شأن الناس أن يتغلغلوا فيها. والتحدث عنها لا يليق أن يكون من على السطوح.

أما أثرها في كتاباتي فليس يخفى على القارىء اللبيب الذي يحسن قراءة السطور وما بين السطور. وإنه لأمر بديهي أن كاتباً يعيش في مجتمع نصفه رجال ونصفه نساء لا يستطيع أبداً أن يعيش بالنصف الواحد دون الآخر. ولو أنني ما كنت أهتم بالمرأة لما كان بين قرائي امرأة واحدة. أما في الواقع فقرائي من الجنس الذي يدعونه لطيفاً يوازي، بل يزيد على عدد قرائي من الجنس الآخر.

وإذن، لماذا لم تتزوج؟

لأنني بعدما تبينت طريقي في الحياة وجدت أن الزواج قد يصبح قيداً يعوقني عن السير في طريقي. وطريقي شاق يفرض عليّ الكثير من العزلة والجهد والسهر والتفكير، وهي أمور تنغص على الزوجة حياتها الزوجية. لذلك آثرت أن أسير في طريقي وحدي، وأن أنتفع بما في روح المرأة من سمو وعطف دون أن يكون في ذلك أي شراكة للحم والدم.

ومما يذكر أن لميخائيل نعيمه مجموعة شعرية واحدة هي «همس الجفون». وبعدها انقطع عن قرض الشعر. وهو يفسر هذا الانقطاع بقوله:

استهواني الشعر في بدء حياتي الأدبية، فنظمته وأنا ما أزال على مقاعد المدرسة في الناصرة. ثم نظمته بالروسية وأنا طالب في مدرسة «السمنار» في مدينة «بولتافا». وكان من جملة ما نظمته هناك قصيدة «النهر المتجمد» التي ترجمتها بعد سنوات إلى العربية. ثم نظمت، وأنا في نيويورك، جميع القصائد

التي دخلت في مجموعتي «همس الجفون». مثلما نظمت بعض الشعر بالانكليزية. وكان آخر ما نظمته بالعربية قصيدة «الآن»، وذلك كان على ما أذكر عام ١٩٢٥. ومن بعدها انقطعت عن النظم لأنني انصرفت إلى أمور تتطلب إسهاباً في الشرح والتحليل والتعليل، وذلك مما لا يتسع له الشعر.

أما هذه الأمور فتتصل أوثق الاتصال بالأسس التي تقوم عليها حياتي: من نحن؟ من أين جئنا؟ وأين نمضي بعد الموت؟ ولماذا؟

وهنا سألته:

وهل تظن أنه بات في استطاعتك الإجابة على هذه الأسئلة؟

جوابي على ذلك في مؤلفاتي مثل «زاد المعاد» و«البيادر» و«النور والديجور» و«صوت العالم» و«دروب» وبخاصة في كتاب «مرداد» و«اليوم الأخير». ولو أنا حاولت أن ألخص لك الآن تلك المؤلفات لما استطعت.

ألا يمكنك أن تعطينا ولو خلاصة يستطيع القارىء منها أن يتبين مذهبك؟

الخلاصة هو أن الإنسان عالم عجيب ينطوي على كل أسرار الوجود. وليس عليه إذا هو حاول أن يعرف تلك الأسرار إلا أن يعرف نفسه. وهو متى عرف نفسه عرف أنه طفل إلٓهي يتفتح على مدى الزمان عن الإلٓه الكامل الهاجع في أعماقه. قلت على مدى الزمان لأن عمراً واحداً لا يكفي لبلوغ تلك المعرفة.

أما ما ندعوه موتاً فليس في نظري أكثر من حيلة بارعة لاستمرار الحياة. فلو انتفى الموت من الأرض، وبقي التوالد يسير سيره، لامتلأت الأرض بالمخلوقات في سنوات معدودات، ولباتت الحياة على سطحها جحيماً لا يطاق لسكانها.

وتحدث عن الشعر الحديث فقال:

الحياة حركة متطورة أبداً، وأعدى أعدائها الجمود. والشعر إسوة بغيره من

الفنون كالموسيقى والرسم والمسرح تجتاحه اليوم موجة عنيفة من التجديد. فهو قد مل القديم. إلا أن الجديد الذي يحاول المجيء به لم يتبلور حتى الآن. وقد يكون التبلور ـ كما تدل الكلمة ـ نوعاً من الجمود كذلك. فمن الخير له ولغيره من الفنون أن لا يتبلور، بل أن يسير في طريقه محاولاً أن يجد نفسه. وإذا كان هنالك من لا يستسيغون هذا الضرب من الشعر فليس من حقهم أن يسدوا الطرق في وجه الذين يستسيغونه. حسبنا أن نحاول خلق أشياء جديدة، وليس علينا أن نكفل لتلك الأشياء البقاء. فالحياة وحدها هي الباقية. أما ما نقوله فيها فقد لا يبقى منه إلا القليل القليل.

هذا عن الشعر، أما القصة وغيرها من الفنون الأدبية فما قولك فيها؟

لقد تمكنت القصة في سنوات قليلات أن تترسخ في أدبنا وتصبح ركناً من أركانه. والاقبال عليها في ازدياد مستمر. ولا عجب فهي أقرب الفنون الأدبية تناولاً وإن تكن من أصعبها معالجة واتقاناً.

أما التمثيلية فستبقى تعاني الكثير من ازدواجية اللغة بين فصحى وعامية، إلى أن يتسنى لنا أن نضيق الشقة بين اللغتين، فيغدو لنا مسرح عربي يفهمه ويتذوقه ابن الدار البيضاء مثلما يتذوقه ابن بغداد وصنعاء والرياض.

(مجلة الجمهور الجديد، بيروت ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٦٤)

في الأدب الاباحي

أصبح الشخروب أشهر من نار على علم. وقد ذكرتموه مراراً في كتابكم الأخير سبعون. فهل لكم أن تعطوني فكرة عن «سبعون والشخروب» وهل له ذكريات في نفسكم؟

كتاب «سبعون» كما هو معروف، وضع في ثلاثة مجلدات وقد اسميتها مراحل. وكما يستدل من العنوان فالكتاب هو سيرة حياتي في خلال سنوات حياتي السبعين التي عشتها على الأرض. وقد ذكرت في المقدمة بعض الدوافع التي حملتني على تأليفه وأهمها أن يكون لدى القارىء فكرة عن تكوين شخصية ميخائيل نعيمه على مدى سبعين سنة والتطورات التي طرأت على تفكيره منذ أن بدأ يفكر. حتى إذا كتب في المستقبل أحد عني وجد مستندات يستطيع أن يعتمدها لأنها صادرة من ينبوعها الأصلي. وذلك لا يعني أنني قد استنفدت في ذلك الكتاب كل مفاهيم حياتي. فستبقى هناك نواح عديدة تستحق البحث والدراسة. وقد حاولت في ذلك الكتاب أن أظهر قدر المستطاع تأثير الطبيعة عليّ وبنوع خاص تأثير تلك البقعة الصغيرة من الأرض التي صرفت قسماً كبيراً من حياتي فيها واسمها الشخروب. وهي قطعة تقع في سفح صنين، قد ورثناها عن أجدادنا. . . هناك تعشقت الصخر والشجر والتراب وعرفت قيمة المياه التي تحيي الأرض وقيمة الشمس التي تدفع الحرارة في كل شيء وسحر النجوم

والقمر في الليل وما توحيه كل هذه الأشياء إلى خيال متيقظ. والشخروب يرتفع عن سطح البحر زهاء ١٦٠٠ متر. ولو جئت أحدث عن كل ما أوحاه ويوحيه إليّ الشخروب لما انتهيت. وحسبي القول إنني ألّفت فيه عدداً من الكتب التي هي الآن بين أيدي القراء وأذكر منها كتابي عن جبران وكتاب «البيادر» وكتاب «مرداد» و«اليوم الأخير». ثم بعض فصول من كتاب جديد أرجو أن أدفع به إلى المطبعة في هذا الخريف.

ولما سألته عن عنوان الكتاب الجديد وعما يحتوي، أجاب:

عنوان الكتاب «هوامش» وهو يتألف من تسعة وثلاثين فصلاً هي بمثابة صور متقطعة التقطها قلمي هنا وهناك من صور الحياة التي يحياها الناس. وهذه الفصول ترمي في معظمها إلى توجيه القارىء نحو بواطن الحياة من خلال ظواهرها.

ما رأي ميخائيل نعيمه الإنسان العادي بميخائيل نعيمه الفيلسوف والكاتب العبقري؟

لو لم يكن ميخائيل نعيمه يؤمن بأنّ في ما يكتبه نفعاً له وللقارىء لما كتب. أما تقدير هذا النفع فلا يعود إليه بل إلى القارىء، ثم إلى الزمان الذي هو من وراء كل كاتب وقارىء. فعلى المدى البعيد لن يبقى مما نعمله اليوم إلّا ما له قيمة لكل زمان ولكل يوم.

وأنا أحجم عن التكهن بما سيبقى من مؤلفاتي على المدى الطويل. فما من شك أننا سنبلغ في المستقبل البعيد مستوى من المعرفة تظهر عنده كل ضروب الكتابة شيئاً تافهاً جداً. فالكلام مهما دق ومهما جمل لعاجز أبداً عن الاحاطة بالحقيقة التي تسمو فوق كل قصيد.

ما رأيكم بالشعر الحديث؟

كل ما يصدر عن الإنسان يتطور بتطور الإنسان. والشعر لا يشذ عن هذه القاعدة. فلا بد أن يمر بمراحل كثيرة. والشعر الحديث إحدى تلك المراحل.

أما كم تطول هذه المرحلة فبالنظر إلى السرعة التي تجري بها الأشياء في الزمان الأخير يبدو لي أن عمرها سيكون قصيراً. فهي لا تعدو كونها طفرة كالطفرة التي نشهدها اليوم في دنيا الفن من تصوير ونحت وموسيقى.

لا شك بأنكم سمعتم بقضية ليلى بعلبكي. فهل تحبذون الأدب الاباحي؟

أنا ضد محاكمة أي أديب مهما كان نوع كتابته. وإذا أردنا محاربته فما علينا إلا أن نربي القارىء بحيث لا يقبل أشياء من هذا النوع. وللأسف أن فترة ما بعد الحرب الأخيرة هي فترة انحلال أخلاقي في كل أنحاء العالم. ومن مظاهر هذا الانحلال الأخلاقي كثرة الأدب والفن الاباحي. وهذه الاباحية مصدرها الجهل المطبق للغاية الشريفة، النبيلة، العظيمة التي تكمن في العاطفة الجنسية، وهي تجديد النسل لا المتعة. وإذا كانت الطبيعة قد زودت تلك العاطفة بشيء من المتعة فلأنها تحرص منتهى الحرص على تجديد ذاتها بذاتها. وليست غايتها أن تجعل من تلك العاطفة قاذورة أو باباً للكسب والتجارة كما هي الحال مع الرقيق الأبيض ودور الدعارة.

ما رأيكم بالنشء اللبناني الجديد بصورة عامة وبالكتّاب الناشئين بصورة خاصة؟

يواجه النشء اللبناني مشكلات في غاية التعقيد. أهمها الفارق الكبير بين الجيل الماضي والجيل الحاضر في العادات والميول والأذواق وفي ما جاءتنا به المدنية الحديثة من مغريات. وتتبع ذلك مشكلة المناهج المدرسية، فهي غاية في الجفاف والحشو وآخر ما تهتم به نفس الطالب وأخلاقه وأذواقه. وأعني الجهة الجمالية والروحية فيه. ومع الأسف فوزارة التربية تهتم بكل شيء إلا التربية.. ثم يزداد التعقيد في وجه الطالب اللبناني إذا هو فكر في أمر معيشته. فالبكالوريا لا تهيء الطالب لأيّ عمل بعينه إلا إذا هو استعملها للحصول على شهادة في الطب والهندسة والمحاماة. حتى بات لبنان في خطر، لأن ثقافته لا تتعدى هذه الميادين الثلاثة، ولسوف تقفر ضياعه من السكان وأرضه من

العاملين فيها، في حين أن وجه لبنان الحقيقي إنما يتمثل في القرية. وهذه القرية باتت اليوم يتيمة أو أرملة. وبات العمل في الأرض آخر ما يفكر فيه اللبناني!.. وها هنا النذير بالخراب! وأي خراب أكبر من أن يبتعد الإنسان عن التراب وقد جبل منه.

هل من نصيحة للكتّاب الجُدد.؟

لي مقالة في هذا المعنى عنوانها «مجد القلم»(١) وهي منشورة في كتابي «في مهب الريح». وخلاصتها أن الإنسان، إنْ كان معداً للأدب، كان في غنى عمن يدله على طريقه. ففي داخله وفي خارجه حوافز لا تتركه يستريح حتى يتم التمازج بين عقله وذوقه وبين المداد والقرطاس. وتأتي بعد ذلك العدّة. وعدة الأديب لغة وفكر وخيال وذوق ووجدان وإرادة. وخير الوسائل لتنميتها وصقلها هي المطالعة بالاضافة إلى التفكير بما يعترض سبيلنا في كل لحظة وفي كل ساعة. وعندي أن الصدق في ما نكتب هو أهم ما يتصف به أي كاتب، وكذلك الايجاز وتحاشي الدوران وإرهاق القارىء بالكلام الذي لا حاجة له. فليس أكره من جثة فيل أو حوت تحيا بقلب ضفدع. ثم على الأديب أن يتحاشى التقليد لأن التقليد هو الشهادة بافلاس المقلِّد. وسارق أدب الأحياء والأموات كمن يأكل لحم أخيه نيئاً وكمن ينهش جيفة في قبر.

ثم إني أعيذ أي أديب من الغرور، فالغرور هو غير الإيمان بالنفس. إنه بالوعة وقاذورة. أما الإيمان بالنفس فميناء ومرساة. وما دام الأديب واثقاً من أن له رسالة يؤدّيها فيجب ألاّ يقنط من تأديتها حتى ولو أغلقت في وجهه جميع أبواب الصحف ودور النشر. والأديب الحق يأخذ مواضيعه من نفسه ومن الناس والأكوان حوله. وعليه ألا ينسى أن الكتابة عمل مرهق كسائر الأعمال البناءة. إلا أنه عمل لذته لا تفوقها أي لذة. لأن مجد القلم لا يفوقه أي مجد.

(جريدة الجمهورية، بيروت ١٩ - ٩ - ١٩٦٤)

(١) «في مهب الريح»: مؤسسة نوفل، طـ٧، بيروت ١٩٨٣، ص ١٧٢.

ملحس والأديب الصوفي

انتهزنا فرصة وجودنا مع الأديب الكبير، ورأينا أن نلقي عليه بعض الأسئلة التي تتعلق بأدبه عامة، وبأهدافه، وخططه لأي إنتاج أدبي آخر في المستقبل، ورأيه في الشعر الحديث الحر، والشعر الموزون المقفى، ورأيه في كتاب الأديبة الأستاذة ثريا ملحس «ميخائيل نعيمه الأديب الصوفيّ». وقد كان الأديب يحرص على الاجابة بطريقة واضحة مفهومة، دقيقة. فكان جوابه للسؤال الأول الذي أردنا أن نستفهم به عن تجاربه الأدبية، وخلقه، وإبداعه، وتأثراته التي تدفعه للكتابة، كما يلي:

كل ما كتبت من قصص إلى حد الآن كان من خلقي، ولم يكن أي منها مأخوذاً عن أشخاص أو أحداث بالذات، ولكنني في معظم قصصي، بقيت أميناً للبيئة اللبنانية. وما ذلك إلا لأنني أتعشق بساطة القرية، وسذاجتها بالنسبة إلى حياة المدينة المعقدة، وعلى الأخص في الزمان الأخير. وهناك طائفة من قصصي أبتعد فيها عن البيئة اللبنانية، ولكنني لا أبتعد عن الإنسان الذي هو محور أدبي، ويجب أن يكون محور الأدب عامة في كل زمان ومكان.

وبعد هذا شكرنا الأديب ميخائيل نعيمه، وتابعنا الأسئلة فكان السؤال الآخر الذي وجهناه اليه: ما هو أفضل كتاب لديك؟ فكان جوابه:

لكل كتاب من كتبي قيمته الخاصة عندي. ولو لم تكن له تلك القيمة لما كتبته، إلاّ أن بعض مؤلفاتي يعبّر عما في نفسي أكثر من بعضها الآخر. ولذلك أستطيع القول بأنه أقرب إلى نفسي. فكتاب «الغربال» مثلاً لا يزال عزيزاً عليّ لأنه الكتاب الذي شققت به طريقي في دنيا الأدب. وهو كتاب نقد عبّرت فيه عن نار النقمة التي كانت تتأجج في صدري ضد الحرف العربي المحنّط. أما وقد دبت الحياة في الحرف العربي، فقد أقلعت عن النقد بمعناه المحصور لأنطلق إلى ما هو أعم من ذلك بكثير، وأعني دراسة الإنسان وحياته، والغاية من وجوده. وهنالك كتابي عن حياة جبران خليل جبران، فهو عزيز عليّ لأنه جاء فتحاً جديداً في فن السيرة كما عرفها أدبنا العربي من زمن، ثم لأنه جاء صورة صادقة لحياة رجل اعتبرته وما أزال أعتبره أخاً، ورفيقاً، وصديقاً، وركناً من أركان النهضة الأدبية الحديثة.

ثم هنالك كتاب «مذكرات الأرقش» وهذا كتاب عزيز على قلبي لأنه يعبّر أصدق التعبير عن مرحلة في حياتي أخذت تتفتح لي فيها كُوىً جديدة أطلّ منها على الحياة الشاملة. أما كتاب «مرداد» فإني أعتبره أكثر بكثير من أثر أدبي. إنه يمثل خلاصة فلسفتي في الإنسان وحياته والهدف البعيد من وجوده. ولست أريد أن أطيل أكثر من ذلك، ففي كل مؤلَّف من مؤلفاتي، كما قلت، فلذة مني ولا سبيل إلى التحدث عن كل منها بالتفصيل.

ثم انطلقنا إلى سؤال ثالث: هل تكتب عندما تشعر بانفعال نفسي يدفعك إلى الكتابة؟ فقال:

يحبل الكاتب بمؤلفاته كما تحبل الوالدة ببنيها وبناتها. ولكن مدة الحَمْل عند الكاتب قد تمتد شهوراً بل سنوات وهو لا يعرف متى يبدأ كتاباً من كتبه، مثلما لا يعرف عندما يبدأ متى ينتهي. إن عملية ولادة الكتاب عملية معقدة جداً لأنها في جوهرها عملية نفسانية. والنفس البشرية ما تزال حتى اليوم المجهول الأكبر في حياة الإنسان.

واغتنمنا ترحيب الأديب بنا ورحنا نسأله سؤالاً تلو سؤال: ما هي رسالة الأديب السامية في نظرك؟

الأديب في نظري هو الرجل الذي يستطيع أن ينير سراجاً ليستضيء به هو أولاً، ثم ليضيء به للغير. وأعني أن الأديب الذي لا يتجمل بأدبه لا يؤدي رسالة، وإن هو قدّم للناس أدباً جميلاً. ليس يجدي الناس أن نصف لهم حياتهم في أدق تفاصيلها. ويجديهم أن نجعل لحياتهم مذاقاً لذيذاً، وهدفاً بعيداً يهون في سبيل الوصول إليه جميع ما يكابده من عناء ومشقة، ويهون حتى الموت الذي يغدو محطة من محطات الزمن يجتازها إلا الحياة التي لا يبتلعها موت، ولا تفنيها عقارب الساعات.

كنت تتفضل بالقول «هدفي كان دائماً من الأبعد إلى الأقرب ومن الأندر إلى الأشق»، فهل من الممكن أن توضح لنا ما عنيته في تلك الكلمات؟

هدفي من حياتي هو أن أفهم نفسي؛ ففي اعتقادي أن الكون بكل أسراره ينطوي في النفس البشرية فأنا متى عرفت نفسي عرفت أنني أتصل اتصالاً مباشراً بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. ويعني ذلك أنني سأبقى في صراع مستمر مع نفسي التي تعيش ضمن الساعات والمسافات لأهتدي إلى نفسي التي لا يحصرها زمان ولا مكان. وهذه النفس الشاملة متى اهتديت إليها انهارت عن كاهلي كل الأثقال التي يعانيها الناس في حياتهم من يوم ليوم. فهناك العالم المطلق وهناك عالم النسبة. والمطلق لا يمكن أن يكون له متناقضات كالتي نحسها في عالم النسبة ما بين خير وشر وحياة وموت. وأنا كلما اقتربت من نفسي وجدت أنها لا تخضع لأيّ من المقاييس التي ألفناها في عالم النسبة. ويقيني أن اتصالي بعالم المطلق لم يأتني من لا شيء ولكنه جاءني من شعور بأنني كلما حاولت أن أحدد لنفسي بداية أو نهاية وجدتني أتصل بالأزل من جانب، وبالأبد من جانب آخر. فحياتي كما قلت موصولة الأسباب بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الإنسان في نظري سرمدي كالقدرة التي منها انبثق. والحديث عن بدايته ونهايته حديث خرافة.

لقد صدر كتاب جديد بعنوان «ميخائيل نعيمه الأديب الصوفي» للأديبة ثريا ملحس، فما رأيك في هذا الكتاب؟

منذ أيام قليلة، كتبت إلى الأستاذة ملحس أشكر لها تلطفها بإهداء نسخة من كتابها «ميخائيل نعيمه الأديب الصوفي» ولكن قلت لها في جملة ما قلت إنني لا أستطيع إبداء رأيي في الكتاب لأنه عني. ولو كان عن غيري لهان الأمر. ولكنني قدرت للأستاذة ملحس الجهد الذي بذلته في تصنيف الكتاب، وفي إلقاء أضواء كاشفة عن الناحية الصوفية في أدبي. وهو عمل لم يسبقها إليه حتى الآن أديب عربي آخر. أما تقديرها الرفيع لتلك الناحية من أدبي، فلغيري أن يتحدث عنه.

هل تفضل الشعر الموزون المقفّى على الشعر الحر؟

الشعر شعر، سواء كان موزوناً ومقفى أم حراً من الوزن والقافية. فالمهم أن نحس فيه ألقاً من الجمال وعذوبة في الوقع. والمهم أن يهبط على النفس هبوط الندى على الزهر. ولكن الوزن والقافية من شأنهما أن يسهلا علينا حفظ الشعر، والتغني به، وليس ذلك بمستطاع مع النثر، وإن كان نثراً شعرياً.

فما رأيك بالشعر الحديث؟

من صفات الحياة البشرية أنها حياة متطورة. فالانسان لا يزال يفتش عن الجديد. وليس من الضروري أن يُرضي ذلك الجديد كل الناس. ولو أن الانسان اتعظ بالأرض التي تُنبت الشوكة والزنبقة وبالهواء الذي يحمل النسر والخفاش، لما ضاق صدره بالذين يحاولون التجديد، وان جاء تجديدهم بعيداً عن ذوقه ومزاجه.

على الأديب أن يكون واسع الصدر، فلا يضيق بأية محاولة. لأن القبيح لن يكتب له البقاء، والصالح لن يغلبه الطالح.

هل لديك مشروع جديد للكتابة؟

منذ أيام قريبة مسحت قلمي من كتاب جديد دعوته «هوامش». وقد صدر في الأسبوع الماضي، وليس في نيتي الآن مباشرة أي عمل جديد.

(مجلة دروب، فصلية، كلية بيروت للبنات آذار ١٩٦٥)

الحرية في شرقنا
حرية قشور لا جذور

قلت: أين تبدأ حرية الأديب وأين تنتهي؟

أجاب: كنت أتمنى أن يكون المجتمع الذي يعيش فيه الأديب مجتمعاً منفتحاً إلى حد أن يسمح للأديب بقول كل ما يجول في خاطره. ولكننا نعيش في مجتمعات لا تزال تقيد القلم بالكثير من القيود. ففي شرقنا لا يستطيع الكاتب أن يتعرض بحرية تامة لأشياء قدستها التقاليد من زمان وفي مقدمتها الدين. ولأنّ الكثير من حياتنا يقوم على الدين وتقاليده وطقوسه فمن الحيف أن نصونه بقداسة لا يستطيع الكاتب أن يتعرض لها. ومعنى ذلك أنه يباح لنا أن نتلهى من حياتنا بالقشور ولا يباح لنا أن نبلغ الجذور.

لست أريد أن أتجنّى على الشرق وحده من هذا القبيل. فهنالك دول تُعدّ في مقدمة القافلة البشرية وتراها، مع ذلك، تحظّر على الأدباء الخوض في مواضيع تتناول الأسس التي يقوم عليها نظامها الاقتصادي والاجتماعي. فما أظـن أن كاتباً في أميركا مثلاً يستطيع أن يدعو دعوة مكشوفة إلى ثورة شيوعية. مثلما لا أظن أن كاتباً في الاتحاد السوفياتي يستطيع أن يدعو دعوة مكشوفة إلى قلب النظام الشيوعي واستبداله بنظام رأسمالي.

ومردّ ذلك إلى أن الناس في كل مكان يرهبون الكلمة. فإنها في اعتقادهم

بلغه حتى الآن بعلومه وفنونه. إنما الإنسان هو العجيبة. وإنما العجائب التي انطوى عليها كيانه لا تقاس بذراع ولا تكال بصاع. فهو في نظري الإلّه الذي ما يزال في القُمُط.

(مجلة الخواطر، بيروت ٧ ـ ٥ ـ ١٩٦٥)

بها إلى ما دون مستوى الحيوان. وبذلك خلق لنفسه مشكلات اجتماعية وصحية ونفسانية لا تحصى. فباتت العلاقة الجنسية عند الناس مصدر ويلات ومشكلات. وباتت مقيتة بدلاً من أن تكون شريفة وجميلة. ولذلك بات أدب الجنس أدباً مقيتاً وبشعاً لأنه ينادي بالاباحية بدلاً من أن ينادي بضبط النفس وبالعفة. وهذه الاباحية تنحط بالإنسان إلى ما دون مستوى الحيوان. أما العفة فترفعه إلى حيث يستطيع أن يبصر نفسه إنساناً يتطلع إلى مجد الألوهة.

كيف تفسر لي انعزال الأديب عن مشاكل الحياة؟

لا يمكن لأيّ أديب أن ينعزل عن مشكلات الحياة ما دام هو بعضاً من تلك الحياة. وكيف للإنسان أن يكون إنساناً إلّا إذا انعكست فيه كل الإنسانية. أمّا أنّ بعض الكتاب يميل إلى العزلة عن ضوضاء الناس ومشاحناتهم التافهة فذلك أمر جدّ طبيعي. إذ إن مثل ذلك الأديب يستطيع في عزلته أن يرى حياة الناس بخيرها وشرها من خلال عين لا يعميها الغبار الذي تثيره مشاحنات الناس والرغوة التي يغرقون فيها إلى ما فوق آذانهم. وما أكثر ما يكون البعيد عن الناس أقرب إليهم من الذي يحتك بهم في كل ساعات النهار والليل فينسى أنهم إخوته وشركاؤه في حياته مثل ما هو أخوهم وشريك لهم في حياتهم. وما أكثر ما نعمى عن الأمور التي هي على بعد خطوة منا ونبصرها بوضوح إذا نحن ابتعدنا عنها.

ما هو رأيك بالتطور الهائل الذي أحرزته البشرية خلال السنين الأخيرة، ولا سيما في حقل اكتشاف الفضاء؟

هذه الأمور العظيمة التي حققها العلم في الزمان الأخير قد تبدو للغير معجزات. أما أنا فأقول إنها ستبدو لنا بعد سنين ألاعيب صبيانية بالنسبة لما سنحققه على مدى السنين. ذلك لأني أؤمن أعمق الإيمان بأن الإنسان كائن عجيب لا حدّ لمواهبه وطموحه. فالذي فعله حتى الآن، وإن بدا عجيباً، ليس سوى تمهيد لما سيحققه في المستقبل البعيد. ومن الأكيد عندي أنه سيكتشف في نفسه قوى تغنيه عن جميع اختراعاته المعقدة فيبلغ مدى أبعد بكثير من الذي

بلغه حتى الآن بعلومه وفنونه. إنما الإنسان هو العجيبة. وإنما العجائب التي انطوى عليها كيانه لا تقاس بذراع ولا تكال بصاع. فهو في نظري الإلّه الذي ما يزال في القُمُط.

(مجلة الخواطر، بيروت ٧ ـ ٥ ـ ١٩٦٥)

اليوم الأخير يوم من؟

الأدب هو نتاج الأديب بل الأديب ذاته بين سطوره فهل أن موسى العسكري بطل «اليوم الأخير» هو ميخائيل نعيمه بالذات روحاً وفكراً؟

لا ليس موسى العسكري في «اليوم الأخير» ميخائيل نعيمه بالذات. ولكن ميخائيل نعيمه لم يكن ليخلق موسى العسكري لولا أنه خبر الحياة وعرف أن فيها من أمثال موسى العسكري. إنها خبرتي للناس المثقفين وغير المثقفين وما يعانونه من مشقة في مواجهة المشكلات الأساسية هي التي دفعتني لأخلق شخصاً أسميته موسى العسكري وصورته كما لو كان قد وقف نظرياً على أهم المجاري الفلسفية في العالم ولكنه عندما وجد نفسه أمام مشكلة الحياة والموت تضعضع ولم تنجده فلسفته. لذلك خلقت له في كل ساعة من ساعات اليوم الذي ظنه الأخير تجربة جديدة تدفعه دفعاً على التفكير في معنى وجوده ومعنى الموت.. وما زلت به حتى تجلّت له الحقيقة. وهي أن الموت لا يمثّل نهاية الحياة بل مرحلة من مراحلها. وهكذا استطاع أن ينبذ الفلسفات النظرية ليخلق له فلسفة تضفي نوراً جديداً ومعنى جديداً على كل ما ينتابه في حياته. فهو ميخائيل نعيمه إلى حد ما تتفق نظرياته الأخيرة مع نظريات ميخائيل نعيمه. ولكنه ليس ميخائيل نعيمه في العمل الذي كان يعمله كأستاذ للفلسفة في الجامعة، ولا في الخبرة التي اختبرها في ساعاته الأخيرة.

ذكرت في كتابك حادثة ابن المختار الذي وقع في البئر واختنق، وتساءلت عندها: هل هو ذنب الطفل؟ فهل يعني هذا أنك تؤمن بثواب النفس وعقابها على الأرض قبل السماء؟

في اعتقادي أن كيان الإنسان ينطوي على عين النظام الذي يسيّر العالم الأكبر وأن مهمة الإنسان هي فهم ذلك النظام ليسير معه لا ضدّه. من شأن ذلك النظام أن يتمّم ذاته بذاته وأن ينبّه المنحرفين عنه بألف طريقة وطريقة. فالقدَر على أنواعه، بما في ذلك المرض والألم والموت، ليس سوى المنبّه للإنسان إلى أنه حاد عن النظام السرمدي. وذلك ما ندعوه العقاب. وعلى عكس ذلك المرح والطمأنينة والشعور بغبطة الوجود. فهذه ندعوها ثواباً. وقصدي من حكاية المختار وابنه أن المختار بكرهه للبنات قد كره النظام الذي يسيّره والذي به يحيا. وبذلك عاقبه النظام بأن أعطاه من البنات سبعاً ثم أعطاه صبياً واحداً لعله ينتبه ويرتدع عن كرهه للبنات ولكنه لم يرتدع. لذلك عاد النظام فأخذ منه صبيه الوحيد. هنا كذلك لم يرتدع المختار بل أقام الدنيا وأقعدها وظل على عناده للنظام الذي يعمل فيه. أما موت الصبي فلا يعني أنه كان قصاصاً لوالده وحده، بل كان كذلك قصاصاً للصبي ولأمه ولإخوته وجميع الذين كانت لهم شراكة في حياته. وهنالك مخالفات للنظام يشترك فيها أكثر من واحد. والقصاص الأكبر يقع على المسبب الأول للمخالفة. ثم تخف وطأته بالتدريج بالنسبة لباقي الشركاء على قدر مخالفة كل منهم لذلك النظام. وهذا يعني من جهة ثانية أن الصبيّ الذي مات اختناقاً في البئر لم يكن بغير خطيئة. وإنه لم يبدأ حياته ساعة ولد بل عاش حيوات سابقات قبل أن يولد. ثم إنه ارتكب في تلك الحيوات مخالفات للنظام قضت بأن يولد في عائلة ذلك المختار الغبي لأنّ له شراكة في غباوته. وهكذا شمل القصاص الاثنين ولكن بدرجات متفاوتة.

ألا ترى بأن الله لو أراد عقاب الولد عقاباً أكبر لأبقاه مع والده الغبي؟

ليس من شأني ولا من شأن سواي أن نعرف كيف يوزّع العقاب والثواب.

وحسبي وحسب كل إنسان أن نعرف أن هنالك ثواباً وعقاباً وأن الواحد والآخر ناتجان بالتأكيد عن معاندتنا أو مسايرتنا للنظام الكلي.

قد سمعناك في الجامعة اللبنانية منذ سنتين تطيل التحدث عن كتاب «اليوم الأخير» هل هذا يعني أنه أفضل كتبك؟

لكل مؤلَّف من مؤلفاتي قيمة خاصة. ولو كان واحد منها يغني عنها لاكتفيت بذلك الواحد.

أيهما يساعد على انبلاج العبقرية، الألم أم الفرح؟

سبق وذكرت أن الألم هو المنبه الأكبر لنا في كل مخالفة نرتكبها ضد ما نسميه بالنظام السرمدي. لذلك أعتقد أن الألم يساعد على تفجير مواهبنا أكثر من الفرح بكثير. وأنا حتى اليوم تراني بطبعي أميل إلى الحزانى أكثر منّي إلى الذين يسرحون ويمرحون وكأنهم في غفلة عن الموت وعن كل ما ينغّص على الناس مسرّاتهم. من شأن الفرح أن يقعدنا عن التفتيش. ومن شأن الحزن أن يدفعنا على التفتيش عما يبدد أحزاننا. وأحزان الناس لا يبددها إلا نور المعرفة. وأعني معرفة النظام الذي تكلمت عنه.

ما الذي يوحيه إليك وادي الشخروب؟

الذي أوحاه ويوحيه إليّ وادي الشخروب أكثر مما أستطيع وصفه. فأنا عندما أختلي بنفسي في حضن الطبيعة أجد آفاقاً تحملني إلى أبعاد بعدها أبعاد. وعندها أحسّ عظمتي كإنسان لا كفرد بشري يدعى ميخائيل نعيمه.

هل يعني وجودك في وادي الشخروب أنك تفضل هدوء الطبيعة على ضجة البشر؟

نعم. فقيمة الطبيعة عندي هي على قدر ما تساعدني على اكتشاف الإنسان في نفسي. وأنا متى اكتشفت الإنسان في نفسي اكتشفت كل إنسان وأحببته لأنني لا أستطيع إلاّ أن أحب نفسي. وذلك يسهل عليّ في سكينة

الطبيعة وبعيداً عن ضجيج الناس.

أسرة غصن الزيتون شرفها الاجتماع بك فهل أزعجك أفرادها بكثرة أسئلتهم؟

إن ما يوحيه غصن الزيتون لي هو السلام أولاً. فقد بات غصن الزيتون في منقار حمامة رمز السلام في العالم مثلما كان رمز السلام والطمأنينة لجدنا «نوح» كما تروي ذلك حكاية الطوفان. ولذلك فكيف يزعجني أن أتلقى أي سؤال من شباب جاؤوني باسم غصن الزيتون؟

(مجلة غصن الزيتون، فصلية، تصدرها مدرسة الشويفات، لبنان نيسان ١٩٦٦)

برامج التعليم في لبنان

كنتم مع أعضاء الرابطة القلمية من أول رواد التجديد في الأدب العربي، فهل تعتقدون أن ثورتكم هذه قد حققت أهدافها؟

لا شك في أن ما قامت به الرابطة القلمية كان وثبة كبيرة نحو التجديد في الأدب العربي، إن من حيث الشكل وإن من حيث المعنى. أما الأثر الذي تركته فبادٍ لكل ناقد منصف إذا هو قابل بين ما كان عليه أدبنا في نهاية القرن الماضي وبين ما هو عليه اليوم. ومن شاء أن يعرف أثر الرابطة البعيد في النهضة الأدبية الحديثة فما عليه إلا أن يطالع المؤلفات العديدة التي كتبت عنها في شتى الديار العربية. والرابطة القلمية، وإن تناثر عقدها فلم يبق منها غيري على قيد الحياة، لا تزال تعمل عملها في ما خلقه أعضاؤها من آثار. وهذا هو «جبران» لا يزال اسمه ينتقل من بلد إلى بلد.

هل تحبذون فكرة إنشاء جائزة عربية للكتّاب العرب على غرار جائزة نوبل العالمية؟

نعم. اقترحت مثل هذه الجائزة عندما أعطيت لي جائزة رئيس الجمهورية قبل سنوات من قِبَل جمعية أصدقاء الكتاب. وإنه لمن المؤسف أن يبقى اقتراحي بدون تجاوب حتى الآن، في حين أن بعض الدول العربية يملك

ثروات طائلة لو تخصص قسم ضئيل منها لجائزة عربية على غرار جوائز نوبل، لكان في ذلك شرف كبير لأثريائها ولزاد ذلك في ثروتهم بدلاً من أن ينقص منها.

يقولون إن أدبكم متأثر بالأدب الروسي. فماذا تقولون؟

اعترفت غير مرة بأن الأدب الروسي كان له بالغ الأثر في ما كتبت من قصة وشعر. أما النزعة الروحية التي وجهت إليها اهتمامي منذ سنوات فلا أعتقد أن للأدب الروسي يداً. بل هي تعود بجذورها إلى ما خلقه هذا الشرق القديم من فلسفات ترمي إلى فهم الإنسان والعالم من الداخل، لا من الخارج. فهي في سعيها لفهم العالم والإنسان تتكل على الحواس الباطنية أكثر من اتكالها على الحواس الخارجية.

ما هو هدفكم من الكتابة؟

هدفي أن أعبّر عن معنى الحياة كما يتجلى لي في تأملاتي وفي خلواتي. ولولا شعوري أن في استطاعتي نقل هذا المعنى إلى أذهان قرائي، ثم لولا شعوري بأن في استطاعتهم أن يسلكوا الطريق الذي أسلك إلى هدفي ـ لما كلفت نفسي عناء التأليف، بل كنت كالنافخ في رماد أو كالصارخ في واد.

هل للشخروب أثر كبير في الإيحاءات في أدبكم؟

للشخروب وصنين أثر بعيد في تفكيري وفي أدبي. فطبيعتهما التي لم تفسدها بعد يد الإنسان غنية بالموحيات للذين في قدرتهم أن يستوحوها وفي اعتقادي أن الطبيعة هي أكبر المعلمين لنا إذا نحن أحسنّا الإصغاء إليها وتمكنّا من فهم ما تقول.

ما رأيكم في الحياة والموت؟

الحياة والموت في نظري توأمان لا يختلفان إلا في المظهر. فالموت حياة تغفو إلى حين، والحياة موت يستيقظ. ولو أن الحياة والموت كانا عدوّين لآن

لواحدهما أن يتغلب على الآخر. أما وهما يلازماننا في كل لحظة من وجودنا فمعنى ذلك أننا لا نقدر أن نتقبل الموت دون الحياة. ورفضك الموت يعني رفضك الحياة. ولكن تبقى هناك كينونة أبعد من الموت والحياة هي كينونة القدرة التي نسميها الله، فهذه تسمو فوق جميع المتناقضات، وهي أبعد من أن يتناولها خيال وأن يدركها أو يعبّر عنها قلم أو لسان.

هل من جوانب أخرى في حياة وأدب جبران تعتزمون نشرها؟

الذي قلته في جبران حتى الآن كان كافياً في نظري لإبراز صورة جبران كما عرفته بالتمام، ولا حاجة بي إلى زيادة.

هل هناك من مؤلف جديد في جعبتكم؟

بين يدي الآن مؤلف جديد، لم أنجز منه إلا الفصل الأول. ليس لأنني لا أزال متردداً فيه، بل لأني لا أجد الوقت للعمل فيه عملاً مستمراً وذلك لكثرة ما يتطلبه الغير من وقتي. أما مضمون الكتاب وعنوانه وحجمه وما شاكل فأمور لا أريد التحدث عنها الآن ما دام الكتاب لم يكتمل خلقه.

ما هو في نظركم الدواء الناجع لمداواة الشبيبة في لبنان، والتي يتردد على بعض الألسن أنها سائرة في طريق قد لا يؤدي إلى حيث يجب؟

كثيراً ما يكون الدواء في الداء، وأعني أن الإنسان لا يجد لنفسه معلماً غير نفسه، وأنه كالطفل لا يتعلم المشي إلا إذا تعثر كثيراً ووقع كثيراً. ومن ثم فالحياة هي الطبيب الأول والأخير لكل ما نعانيه من مرض، إن في أجسامنا وإن في أرواحنا.

ما هي نصيحتكم للطالب اللبناني؟

لكل طالب مؤهلاته الخاصة سواء أكان لبنانياً أو غير لبناني. والنصيحة التي قد تنفع الواحد قد تضر الآخر. لذلك أرى أن يتفقد الطالب نفسه وأن يكون له هدف ثم يسعى بكل قوته لبلوغ ذلك الهدف. ولأنّ الناس ليسوا في

مستوى واحد من التفتح والإدراك، فمن غير المعقول أن تجعل لهم هدفاً واحداً وطريقاً واحداً إلى الهدف. المهم أن يكون لكل طالب هدف.

ما رأيكم في ملاك التعليم في لبنان، وفي البرامج ولا سيما الأدبية منها حتى الصفوف التكميلية؟

ليس أسهل من أن تبصر العيوب في الناس وفي ما اختلقوه لأنفسهم من أجهزة تسهل عليهم العيش. والصعب هو أن تقضي دفعة واحدة على جميع المساوىء التي يرتكبها الناس في ما يختلقونه لأنفسهم من أجهزة. هكذا يمكننا القول إن برامج التعليم في لبنان بما في ذلك ملاك المدرسين هي في أمسّ الحاجة إلى تعديل كبير وتطهير شامل: ولكن التعديل لا يستطيعه إلا المستنيرون والمنزهون عن الغايات. وهؤلاء أين هم في لبنان؟ وكذلك قل في ملاك المدرسين، فالملاك الذي كونته الدولة الآن كيفما اتفق ولسد حاجات عابرة تبرر وجود وزارة تدعى وزارة التربية والتعليم. أما المعلم الصالح فهو أندر من الكبريت الأحمر في لبنان.

ما رأيكم في السياسة؟

كلمة ساس في القاموس تؤدي معنى العناية بالمسوس عناية لا تهمل أية حاجة من حاجاته. فسائس الفرس، إذا كان سائساً صالحاً، لا يطيق أن يرى فرسه جائعة أو هزيلة أو قذرة ولا يبخل عليها بالماء عندما تعطش وبالرياضة عندما تحتاج إلى رياضة. والمفروض في ساسة الشعوب أن يفعلوا بشعوبهم فعل السائس الصالح في فرسه. أما الواقع فهو بعيد جداً عن هذه الصورة. فساسة الدول يهتمون بأمور كثيرة إلا أن يجعلوا شعوبهم في مستوى من العيش لا يفكرون معه بالثورات والانقلابات والحروب وغزو غيرهم من الشعوب.

ماذا يمثل لكم المال؟

أمّا المال فهو في نظري عدوّ ما من صداقته بد. ذلك لأننا خلقنا حولنا جواً

بات فيه المال ذا سلطان لا يدانيه أي سلطان. وهذا هو مذهب أكثر الشعوب في العالم. فلو استطاع الإنسان أن ينعتق من عبودية المال والصنم الذي خلقه باسم المال لاستطاع أن يجد الإله الكامن في نفسه. وقبل ذلك فحرام عليه أن يتلفظ باسم الله، فهو في الواقع لا يعني إلا الفلس والدينار.

(مجلة الحقائق، فصلية مدرسية، بيروت ١ - ٥ - ١٩٦٦)

أعز كتبي إلى قلبي

ذهبت إلى العمارة التي يقيم فيها نعيمه، وكان برفقتي زميلي السيد فالح حسن الأسدي. . وهناك كان باستقبالنا الإنسان الكبير الذي بحثت عنه وعندها قالها كلمات حارة:

ـ أهلاً بضيوفنا. . أهلاً بالعراق العزيز. . أهلاً ببغداد العظيمة.

وبعد أن تفقد أصدقاءه في بغداد، سألته عن كتاب باللغة الانكليزية كان مفتوحاً على جانب منه، وفيما إذا كان يقرأ ذلك الكتاب، فقال:

لقد ضاق وقتي إلى حد أنه لا يتسع إلا للقليل من المطالعة، وذلك في الساعات التي أفرغ فيها من التأليف ومن الرد على الرسائل ومن استقبال الزائرين.

وهذا الكتاب أعود إليه في فترات الفراغ وهو من تأليف رجل من أوستراليا تتلمذ لأحد مشاهير المعلمين الروحيين في الهند اسمه ـ مهارشي ـ.

والمؤلف الذي اتخذ لنفسه اسماً هندياً ـ موني سادهو ـ يحكي في كتابه هذا عن قوى معلمه الخارقة وكيف أنه كان ينقل تلك القوى بالصمت للذين كانوا يقصدونه من أطراف الدنيا.

وأضاف الأستاذ نعيمه يقول:

يبدو أن ذلك المعلم قد بلغ من المعرفة حداً باتت الكلمة عاجزة عنده عن تأدية الحقيقة فكان يؤديها بنظراته وما ينطلق منها من إشعاع إذا قلّما كان يلجأ إلى الكلام إلا حيث لم يكن بد من الكلام.

والذي ينطلق إلى تلك العوالم التي يتحدث عنها مثل هذا الكتاب يصبح الكثير من مشكلات الناس في نظره وكأنه ألاعيب صبيانية، وكأنه الرغوة على وجه القِدْر أو الزَّبَد على وجه البحر.

وبعد فترة صمت قليلة تطلع خلالها الأديب الكبير إلى عويناته التي كان يحملها بين يديه، قلت له:

عرفنا أنك أبَيت أن تسمح ليراعك أن يخلد للراحة أو أن تسمح لقرائك أن يطيلوا من انتظارهم لما تقدمه من عصارات ذهنك، فماذا تعد لهم هذه الأيام؟ فقال:

بعد أيام قليلة تصدر لي تمثيلية بعنوان «أيوب» وقد حاولت أن أتناول فيها معضلة من أكبر المعضلات في الحياة البشرية ألاَ وهي معضلة القَدَر والأوجاع على أنواعها التي تنزل بالناس وليس من يدري إلى أي حد تكون بمثابة تجربة لنا وإلى أي حد تكون بمثابة قصاص على أشياء ارتكبناها عن وعي منا أو عن غير وعي. وقد اتخذت من حكاية أيوب كما هي واردة في التوراة منطلقاً لشرح فكرتي في هذه الأمور فتصرفت بالقصة تصرفاً كبيراً إذ خلقت أشخاصاً لا وجود لهم في حكاية أيوب. ذلك مع الاحتفاظ بالهيكل العظمي لتلك الحكاية، وللقارىء أن يحكم على تلك التمثيلية أو لها بعد صدورها.

بعد ذلك، عدت بالحديث إلى سنين أكلها الزمن من حياة نعيمه رغم أنها منحته الخلود في عالم الأدب والفكر. فسألته عن أول نتاج أدبي أدخله الحياة الأدبية، فقال، بعد تأمل:

أخذت أكتب، وأقرض الشعر باللغة الروسية يوم كنت طالباً في روسيا منذ

نحو ستين سنة، وقصيدة (النهر المتجمد) المعروفة باللغة العربية ليست سوى ترجمة لقصيدة نظمتها بالروسية عام ١٩١٠.

أما فيما يختص في الأدب العربي فقد كان أول نتاج لي مقالات متفرقة في النقد، وهذه قد جمعتها فيما بعد ونشرتْ في مصر عام ١٩٢٣ في كتاب بعنوان (الغربال)، علماً أن هذا الكتاب قد سبقه كتاب آخر وقد كانت تمثيلية لي بعنوان (الآباء والبنون) وهذه نشرتها مسلسلة في مجلة (الفنون) في نيويورك ثم صدرت في كتاب عام ١٩١٧.

وهنا قلت للأستاذ نعيمه:

منحت للقراء من عصارة ذهنك ما دبجه قلمك من مؤلفات: الغربال، أكابر، سبعون، كرم على درب، همس الجفون، كان ما كان، جبران خليل جبران وغيرها فأي من هذه أعز إلى نفسك، فأجاب يقول:

هذا سؤال يصعب الجواب عليه. إذ إن نتاجي يتناول وجهات عديدة وألواناً عديدة من الأدب، وقد كتبت في فترات متقطعة وفي حالات نفسانية مختلفة. ومن هذا القبيل فكل ما كتبته عزيز عليّ. أما إذا كان لا بد من التخصيص فأقول إن كتاب (الغربال) الذي يمثل فترة من حياتي لا يزال له عندي معزّة خاصة. فبهذا الكتاب قد مهّدت الطريق لنفسي ولغيري من خلال ما تراكم علينا من الجمود والتقليد خلال قرون طويلة فكان لا بد لي أن أشق طريقي على ضوء مفاهيم جديدة للأدب وقيمته في الحياة. ثم أذكر كتابي عن جبران خليل جبران الذي أثار ضجة مفتعلة حين صدوره، فهذا الكتاب ما تزال له قيمة خاصة عندي، إذ إنه جاء نهجاً جديداً في كتابة السيرة في دنيا الأدب العربي. ثم أذكر كذلك كتاب (مذكرات الأرقش) فهذا الكتاب كذلك يمثل نهجاً جديداً في الأدب العربي، ويمثل فترة خصبة في حياتي هي الفترة التي انصرفت فيها إلى التأمل الباطني وتقصي معاني الحياة والغاية من الإنسان ووجوده. وهذه النزعة ذاتها قادتني بعد سنين إلى وضع كتاب شامل يحوي

نظرياتي في الإنسان وحياته ومعاني وجوده. وذلك هو كتاب (مرداد) الذي ترجم إلى عدة لغات. وهذا لا يعني بالطبع أنني أنظر إلى مؤلفاتي الأخرى كما لو كانت ثانوية في نظري، فجميعها عزيز عليّ لأنه أخذ قسطاً ليس باليسير من وقتي ومن روحي.

بعد هذا سألت الأستاذ الكبير عن أخصب سنوات حياته الأدبية، فقال:

لعل السنوات التي أمضيتها في روسيا كانت أخصب سنوات حياتي، وأعني أنها فتحت لقلبي وفكري آفاقاً واسعة، وأنا ما أزال في مقتبل شبابي أفتش تفتيشاً محموماً عن الحق والجمال وعن العدل والإنسانية في عالم كادت تضيع فيه هذه المفاهيم ـ قبل الثورة طبعاً ـ. ولو أنا رحت أتفحص ذكرياتي في تلك الفترة لوجدتها كلها جميلة بصرف النظر عمّا رافقها من صعوبات ومشكلات كانت وقتية ولم تترك في نفسي جروحاً.

وعن أبرز ذكرياته في أميركا، قال:

أبرز ذكرياتي في أميركا هي ذكريات الرابطة القلمية وما كان بين أعضائها من تآخ وصداقة واندفاع في سبيل تحرير الأدب العربي من الركود والجمود، والانطلاق نحو الخلق والإبداع.

وسألت الأستاذ نعيمه:

الذي نعرفه أنك عشت في أميركا قرابة عشرين عاماً، وأنك جُندت في الحرب العالمية فما هي ذكرياتك في تلك الفترة؟ فقال:

خُضت غمار الحرب العالمية الأولى مع الجيش الأميركي، وعرفت عن كثب كيف ينسى الإنسان أنه إنسان، ويغدو آلة للتقتيل والتدمير بوحي سلطان غير سلطان ضميره وامتثالاً لقدرة خارجة عن نطاق عقله وقلبه. فالجندي في الحرب يغدو وكأنه قطعة من خشب على رقعة شطرنج تحركها أيدٍ لا يراها ولا قِبَل له بالاعتراض عليها، وهكذا تُمحى الشخصية الانسانية ويغدو الجنديّ وكأنه لولب صغير في آلة هائلة هي آلة الحرب.

وهنا وجه زميلي الأسدي سؤاله إلى الأستاذ نعيمه حول رأيه في الشعر الحر، وما يثار حوله من ضجيج، ولمن ستكون نهاية المطاف؟! فقال:

من شأن كل جديد في العالم أن يخلق خصاماً وجدلاً حول مراميه وغاياته، وابتعاده عن القوالب المألوفة، وفي اعتقادي أن كل ضجة تثار حول نهج جديد هي ضجة لا خير فيها. فمن الأفضل لنا أن نترك الزمان يفعل فعله. فللزمان غربال لا يخطىء حيث غرابيلنا معرضة للخطأ دائماً. والأمر الذي لا شك فيه هو أن الحياة لا تحتفظ إلا بما يخدم غاياتها ولا تُبقي على شيء يعاند تلك الغايات. فمجرد قيام الشعر الحديث يعني أن هناك حاجة إليه في نفوس الذين يكتبون ذلك الشعر. أما الذين لا يستسيغونه فما عليهم إلا أن يتركوه وشأنه.

وعلى ذكر ما يثار في الصحف الأدبية من معارك حول الأساليب الجديدة في الشعر بوجه خاص والأدب بوجه عام قال الأستاذ نعيمه:

عندنا في العالم العربي صحف دورية لا تُعنى إلا بشؤون الأدب والفكر، وعندنا كذلك اتجاه في الصحف اليومية هو تخصيص صفحة أو أكثر لشؤون الأدب. والظاهرة التي لا مجال لإنكارها هي أن الصحف الأدبية تعاني من قلة الموارد المادية أكثر مما تعانيه الصحف السياسية، فالإقبال على الأخبار السياسية ما يزال أقوى بكثير من الاقبال على الصحف الأدبية. لذلك لا تستطيع هذه الأخيرة أن تقوم بواجبها خير القيام. ولو أنها كانت من البحبوحة المادية في مركز يمكّنها من استغلال المواهب الأدبية في الديار العربية ودفع مقابل محترم لكل كاتب له شأنه ـ لكان أثرها في حياتنا أبرز بكثير مما هو الآن. أما والكثير من هذه الصحف لا يزال يعيش على الاستجداء فليس من العجب أن تجد في أعمدتها الغثّ إلى جانب الثمين والمبتذل إلى جانب المبتكر. على أننا إذا قارنّا هذه الصحف بما هي عليه الآن وبما كانت عليه قبل نصف قرن لوجدنا أنها قد قفزت قفزة رائعة إلى الأمام. والأمل كبير بأن يستمر هذا التقدم لتكون لنا صحف أدبية

يصبح من الشرف لأي كاتب أن ينشر فيها نتاج قلمه ويصبح لها تأثير أبعد بكثير في حياة المجتمع العربي وفي توجيهه توجيهاً صالحاً إلى كل ما فيه خيره ولمّ شتاته.

وفي ختام لقائنا الممتع مع هذا الأديب الكبير قلت له:

بصفتك ناقداً وشاعراً وقاصاً فما هي الكلمة التي تودّ أن تقولها للأدباء الشباب؟ فقال:

ليس عندي ما أقوله للأدباء الشباب إلاّ أن يحترموا الكلمة في كل ما يكتبون. فالكلمة هي الإنسان بل هي الحياة غير المنظورة في حروف منظورة. والذي يسخّرها لغايات شخصية ولمآرب خسيسة إنما يمتهن نفسه وينحدر بها من سُموّها الإلّهي إلى حضيض الأبالسة. والأديب الذي يقدّس الكلمة يقدّس نفسه وبالتالي جميع الناس، ولا خوف عليه من ألْسنة النقاد مهما قَسَت.

ودّعنا الأستاذ نعيمه بعد ذلك يغمرنا الإعجاب بطيبته.

(جريدة الجمهورية، بغداد ٢٣ - ٢ - ١٩٦٧)

كيف يكون مصير الله
اذا خلق الانسان انسانا؟

لا شك أن العلم الحديث قد جاء في الزمان الأخير بمُنجزات تبدو وكأنها معجزات حتى بات الكثير من الناس يتوقع أن يخلق الإنسان الحياة كما نعرفها الآن على الأرض. أي أن يخلق نباتاً وطيراً وحيواناً وبشراً. وذلك ما أستبعده بعد ألف سنة ـ بل قل مليون سنة ـ وإن كنت من المؤمنين بأن الطاقة التي تنطوي عليها نفس الإنسان طاقةٌ لا حدود لها على الاطلاق. فنحن لا ننفكّ نكتشف أشياء وأشياء، وعلى الأخص في دنيا العلوم، جاهلين أن ما نكتشفه ليس في الواقع سوى جوانب من الطاقة التي تكلمتُ عنها. فالإنسان في كل ما يكتشف لا يكتشف إلا ذاته. حتى إذا اكتشف ذاته اكتشف سر الحياة وسر الألوهة.

لئن استبعدت خلق الإنسان بيد الإنسان فما ذلك إلا لأن الإنسان، إذا صح له ذلك الخلق، سيلجأ إلى مواد جاهزة ليست من خلقه. وكل ما في الأمر أنه سيجري عليها تجارب ليخلق منها أنواعاً غير مألوفة في الوقت الحاضر. أما أن يخلق مواد لا وجود لها الآن فذلك في اعتقادي فوق طاقته، إلا إذا هو بلغ درجة الألوهة التي لا يعصاها شيء.

ولكنني أعود إلى سؤالك فافترض أن الإنسان تمكن من تكوين إنسان مثله فماذا يكون موقف الدين عندئذ؟

وجوابي هو أن الدين لن ينقرض من الأرض بل سيتخذ له وجهاً جديداً ومعنى ليس له في هذه الأيام. إذ إن الدين كما نفهمه بات وكأنّه مجموعة طقوس ومراسم لا عصب لها ولا حياة فيها. ولو أنها كانت تملك الحياة لما كان المتدينون في الأرض يتخبطون في مثل المشكلات التي فيها. فالدين في معناه الصحيح يرمي إلى رفع الإنسان من مستوى البهيمة، إلى مستوى الوعي الذي يتعدى الأنانية المحصورة إلى «الأنا» الشاملة. وأعني الوعي الذي تضيع فيه جميع الفوارق والفواصل والحدود بين إنسان وإنسان وأمة وأمة وبين الإنسان وسائر الكائنات. والدين كما يمارسه أتباعه هو أبعد ما يكون عن ذلك الهدف. بل إنه بات وكأنه عثرة في سبيل تفتّح الإنسان على نفسه الكبرى.

لذلك أقول إنه إذا صحّ وكوّن الإنسان إنساناً مثله فمعنى ذلك أنه سينظر إلى نفسه وإلى الله نظرة جديدة. فلا ينكر وجود الله بل يمضي يعمل وكأن يده في يد الله، وعندئذ يشعر بأن الله قوة هائلة كامنة في نفسه وغير منفصلة عنه. فنحن كلما تفتّحت الطاقات الكامنة فينا ازداد شعورنا بوجود قوة أزلية أبدية من وراء كل المحسوسات. ثم ازداد وعينا للصلة الوثيقة التي بيننا وبين تلك القوة. فما نفيناها لأننا بنفينا لها إنما ننفي وجودنا.

هل تظن الإنسان يجني أي نفع من خلقه إنساناً على شاكلته؟

تتعالى أصوات كثيرة تحذر من ازدياد عدد السكان على الأرض وتخشى أن تضيق الأرض بالناس إذا هم استمروا يتوالدون بالسرعة التي يتوالدون بها. فكيف بهم إذا أصبح بإمكانهم أن يخلقوا الناس في المعامل بدلاً من أن يتركوا أمرهم للتوالد الطبيعي الذي ألفوه مذ كانوا على الأرض، ومن ثم فما نفعهم من أناس يخلقونهم إذا هم لم يوفروا لهم أسباب الراحة وينفوا من حياتهم كل أسباب الشقاء. ولو أنهم خلقوا لنا بشراً شبابهم دائم وقواهم البدنية والروحية في نمو مطّرد وبغير نفاد. لا تتأكّلهم الحسرات على أشياء فقدوها ولا تقلقهم المخاوف من الفقر والجوع والشيخوخة والموت لقلنا: «بارك الله في من

يخلقون». لكنهم إذا لم يفعلوا غير ما تفعله الطبيعة الآن بطرقها العجيبة التي ألفناها منذ كنا على الأرض فعملهم إذ ذاك تقليد وتزييف نحن في غنى عنهما. وعندي أنه من الخير للعلم أن ينصرف إلى خلق حياة رضية هنية على الأرض بدلاً من أن ينصرف إلى تكثير سكان الأرض قبل أن يهيىء لهم أسباب الراحة والهناء. وها هم أبناء الأرض يتناحرون ويتناهشون في سبيل أشياء لا قيمة لها في ذاتها ولم يهتدوا بعد إلى طريقة يتعايشون فيها بسلام ويتقاسمون خيرات الأرض بالعدل. والذي يبدو لي أن العلم وحده لن يقود الناس إلى الطمأنينة التي ينشدون. أما الدين فقد برهن هو كذلك على عجزه في ذلك الاتجاه. والذي يرجوه أيّ عاقل هو أن يعود الدين إلى ركائزه الأساسية وأن يعود العلم إلى ركائزه الإنسانية لعلهما إذا تعاونا بعد ذلك كان في تعاونهما للناس خير عميم.

إذن في اعتقادك أن الإنسان إذا تمكن من خلق بشر مثله لن يكون إلاّ مقلّداً لا مبدعاً؟

هذا صحيح فنحن حتى اليوم ما تجاوزنا حدود الطبيعة في أي شيء. وكل ما في الأمر أننا اكتشفنا بعض نواميسها، فبات في إمكاننا أن نسخّرها لغاياتنا. ولو نحن وقفنا عند أي مخلوق من المخلوقات من أصغرها إلى أكبرها لهالنا ما فيها من دقة في التركيب والتنظيم وفي تنويع الأشكال والألوان، ناهيك بالسرّ الأكبر الكامن فيها وهو سر الحياة. فحيثما كانت الحياة كان هنالك نمو وحركة ثم انحلال. إلاّ أن الانحلال لم يعنِ يوماً ـ ولا يمكن أن يعني ـ فقدان الحياة. إذ إن الحياة تستمر رغم الانحلال ورغم الموت، فهي السر الأكبر. وهذا السر متى أدركه الإنسان ما أظنه يعود يتلهى بتقليد الطبيعة إذ سيكون عندئذ خالقاً بقدرته كما نعتقد اليوم أن الله خالق بقدرته.

الحياة هي الحقيقة الكبرى وسرُّها هو سر الأسرار. ومن الأكيد أن الذي يدركها أو الذي يدرك ذلك السر، لن يجد السبيل إلى التعبير عنه بلغة بشرية لأنه سيصبح فوق مستوى البشر بكثير.

لذلك أشك كل الشك في أن يتمكن الإنسان ـ ما دام إنساناً ـ من خلق الحياة.

(ملحق النهار، بيروت ٢ ـ ٤ ـ ١٩٦٧)

أيوب التوراة وأيوبي أنا

دخلت على الأستاذ ميخائيل نعيمه عشية صدور كتابه «أيوب» لأشاهد على طاولته أول نسخة منه. وهو مسرحية أدبية فلسفية ذات أربعة فصول، فبادرته بالقول: هل أن نهضتنا المسرحية هي التي دعتكم لتأليف هذه المسرحية؟ فضحك وقال: لا ليست هي التي دعتني لتأليف هذه المسرحية ولئن كنت أشعر بهذه النهضة المسرحية التي لا ينقصها إلا بعض الممثلين المحترفين لكي تصبح كاملة.

قلت: تعيش هذا الشتاء في بيروت بعيداً عن الشخروب فأين يكمن الفرق بين الإثنين؟

قال الأستاذ نعيمة: إن الفرق عظيم بين المدينة والشخروب. ففي المدينة تجد أن الإنسان يدافع ضد كل شيء على الاطلاق. بينما فوق، أي في الشخروب يشاهد المرء أن الدنيا تغنّي له ويغنّي لها. يختلي بنفسه فلا يعود يسمع شيئاً.

قلت للأديب نعيمه: هل لكم أن توجزوا لنا مسرحية أيوب التي بين أيدينا؟

أجاب: يظهر أن الحياة البشرية فيها حقيقة ثابتة، فالكل يتعرّض للألم والمصائب، وهناك فئة من البشر إذا تألّمت قال الناس إنها تستأهل هذه الآلام

لأخطاء وشرور ارتكبتها. وفئة تتألم دون سبب ويتساءل الناس لماذا هذه الآلام لهذه الفئة الصالحة! هكذا كان أيوب.

وأضاف يقول: الإنسان الذي يعيش حياة الألم عليه أن يتوقف ليسأل عن منابع هذا الألم. هل هي من الإنسان ذاته أم أن بعض ما يأتيه من قوى تحجبت عنه. فهو لا يعرف ما هي ولا من أين هي. إن هذا العالم الذي نعيش فيه عالمٌ منظمٌ غاية التنظيم. وإذ ذاك لا يمكن لأي شيء أن يحدث إلا ضمن النظام الذي يسيّر الأكوان. فلا مجال لما يدعوه الناس صدفة أو مصادفة. وإذا صحت هذه النظرية صحّ القول بأن كل ما يجري فينا وحوالينا إنما يخضع بذلك للنظام الشامل. عندئذ ينبت السؤال: كيف لنا أن نفهم ذلك النظام فنتحاشى ما يأتينا عنه من كدر ونسلك سلوكاً تكون نتيجته السلامة والراحة والطمأنينة.

وقصة أيوب كما ترويها التوراة تضع هذا السؤال أمامنا بطريقة بارزة جداً. فمن سياق القصة يُفهم أن أيوب كان رجلاً مخلصاً صالحاً منتهى الصلاح. وبرغم ذلك لم ينجُ من تجربة قاسية جداً. ولأنه صبر على تلك التجربة فقد بات صبره مضرب المثل.

أضاف: وفي الرواية أن الرزايا التي حلت بأيوب كانت نتيجة تحدي الشيطان لله، إذ راح الله يعتز أمام الشيطان بإنسان بارّ كأيوب، فما كان من الشيطان إلا أن طلب إلى الله أن يطلق يده في تعذيب أيوب لكي يرى أنه في النهاية سيكفر بالله. فكان أن حلّ بأيوب ما حلّ من الرزايا دون أن يفقد إيمانه وصبره.

قلنا: فما هي بنظركم هذه القوة التي تحلّى بها أيوب ليصمد أمام هذه التجربة؟

قال الأديب الفيلسوف: هنا السر. فما هي تلك القوة الهائلة التي ندعوها الإيمان والتي أسعفت أيوب ليصبر حتى النهاية دون أن يكفر بالنظام السرمدي وبرب النظام.

ذلك الإيمان هو في نظري القوة الهائلة التي يحسن بالإنسان أن يتدرع بها في وجه كل مصيبة تنزل به. إذ إن إيماناً كهذا يعني أننا نجهل النظام الذي يسيّرنا ولكننا لا نقطع الأمل من معرفته،يوماً ما، ومن السير على هديه. ذلك الإيمان هو الذي يجترح العجائب.

هنالك فارق كبير بين أن يستسلم الإنسان عن جهل مطبق وعن ضعف مخجل وبين أن يستسلم عن وعي بأنه يستسلم ليعرف ولتصبح القوة التي يستسلم لها قوّتَه ذاته. وإيمان أيوب كان من هذا النوع.

ولذلك لم ينسحق بل نهض من عثرته ظافراً وأقوى مما كان من قبل.

قلت للأستاذ نعيمه: تقول في قصيدة عن النفس إنها جزء من إلّه، وفي حديثك الآن عن الإيمان شيء من هذا. فهل لكم يا سيدي رأي خاص بالله والإنسان؟

قال الأستاذ نعيمه: بالطبع إن القوة التي منها هذه الكائنات التي لا تحصى، المنظور منها وغير المنظور، هي قوة لا يدركها العقل ولكنها تتجلى لنا في شتى المظاهر المحسوسة. ولعلّ أبرزها على الأرض هو الإنسان. وهذا الإنسان الذي بات يملك شيئاً من الإدراك والوجدان والإرادة لا يمكن أن يكون منفصلاً عن القوة التي منها صدر أكثر مما ينفصل شعاع الشمس عن الشمس.

وإذا نحن دعونا تلك القوة الله، فالله لا يمكن إلا أن يكون في الإنسان وإلا أن يكون الإنسان على صورته ومثاله، وذلك يعني أن في استطاعة الإنسان أن يكشف عن الإلّه الكامن في أعماقه إذا هو عرف السبيل إلى ذلك. ومتى كشف الإنسان عن الله في ذاته انهارت من أمامه جميع الحواجز الحسية التي لا قصد منها إلا أن تكون للإنسان مدارج يرقى بها إلى الله.

قلت للأستاذ نعيمه: أين تلتقي آراؤكم وقصة أيوب، وكيف وفقت بين الاثنين؟

قال: أخذت من قصة أيوب هيكلها العظمي وجميع ما تبقى خلقٌ من

عندي. . . ومن أهم الأشخاص الذين خلقتهم في المسرحية «حائك» دعوته «سرحبيل» وقد جعلت هذا الحائك البسيط في مظاهره والساذج في سلوكه يتمتع بشيء من الاشراق النفساني بحيث إنه بات يرى مهنته التي هي الحياكة وكأنّها مهنة الكون بأسره. فالكون في نظره نسيج هائل يحاك على منوال هائل، وفي هذا النسيج تتداخل الخيوط بعضها في بعض لتؤلف الكل الشامل. وهذا يعني أن الفردية لا وجود لها ولا قيمة لها في ذاتها إلا إذا هي أحسّت نفسها مكملة للنسيج فكأنها هي النسيج بكامله.

وهذه الفردية لا تعرف ذاتها إلا إذا هي اتحدت بالكل فباتت وكأنها الكل.

هكذا نرى على سطح الأرض أنهاراً كثيرة لكل منها مجراه وكيانه الخاص. ولكنها جميعها عندما تبلغ البحر تفقد كيانها الخاص وتصبح كأنها البحر. . .

قلت: ذلك رأيكم بالإيمان، فما رأيكم بالخلود؟

فأجاب: الخلود يعني عدم الفناء فإذا استطعت أن تدلني على شيء يفنى في هذا العالم، كان بإمكانك أن تضع الخلود موضع الشك.

كل ما في العالم خالد، وكلّ ما لا تعرف له بداية أو نهاية خالد. عندئذ فالموت ليس انقطاعاً للحياة بل هو حلقة في سلسلة لا بداية لها ولا نهاية. وهي سلسلة الحياة.

والقِيَم «سيدي» ما رأيكم بها؟

فيما يختص بالإنسان لا قيمة لأي شيء إلا على قدر ما يساعد ذلك الشيء الإنسان في الوصول إلى هدفه. وهدفه هو معرفة نفسه، ومعرفة نفسه تعني معرفة كل ما في الكون لأن الأكوان كلها انطوت في الإنسان. لذلك يترتب على الإنسان أن ينفي من حياته كل ما يعوقه في سلوكه إلى هدفه، فالرذائل بأنواعها هي من الأشياء التي تعوق الإنسان. والفضائل بأنواعها هي من الأمور التي تساعده.

أما أين تضع الحد بين الفضيلة والرذيلة فذلك يعود إلى وجدان الإنسان وإلى درجة التفتح الذي بلغها في حياته فالحلال والحرام ليسا ما يحلله القانون البشري بل هما ما يفرضه الإنسان على نفسه.

فرجُلٌ تفتحت نفسه لجمال الحق ولمعنى الألوهة لرجلٌ يحرّم على ذاته كل ما من شأنه أن يضرّ بأي المخلوقات أو أن يقوم حاجزاً بينه وبين أي المخلوقات.

وبكلمة أخرى إنه رجل اكتشف معنى المحبة. أما الرجل الذي لا تزال نفسه تتمرغ في حمأة الشهوات المادية فرجل يتحايل على القانون ليستر ضعفه تجاه شهواته الحيوانية.

(جريدة الزمان، بيروت ١٠ - ٤ - ١٩٦٧)

لغتي المسرحية: حل بحيلة

للفن المسرحي مكانته في البلدان التي يتطور فيها الأدب. وعندنا، ورغم تبلور التيارات الأدبية والفكرية، ما برح هذا الفن هزيلاً يفتقر إلى المعونات المادية والتشجيع لينضج فينتشر. وما زال كتّابه الموهوبون بعيدين عن أجوائه.

على أن ميخائيل نعيمه شذّ. لقد أصدر في الأسبوع الماضي مسرحية بعنوان «أيوب» استوحى موضوعها من سِفر أيوب. ولناسك الشخروب مسرحية بعنوان «الآباء والبنون» أصدرها عام ١٩١٧. وقد مُثّلت مراراً فوق المسارح اللبنانية. وظل نعيمه خمسين عاماً منقطعاً عن كتابة المسرحية إلى أن أصدر «أيوب».

وفي هذا الحديث يفتح صاحب المسرحية الجديدة أوراقه. فيلقي ضوءاً على حياة المسرح، ويتحدث عن الممثلين الطالعين، ويحث الدولة على مساعدة المسرح حتى لا يغلق أبوابه...

أما كيف عاد نعيمه إلى الفن المسرحي، فإليك ما يقوله:

للمسرح في نظري قيمة لا تعادلها قيمة أي من الفنون الأخرى. فعلى المسرح تجتمع جميع الفنون وتشترك حواس الإنسان جميعاً. فتأثيره في الناظر

أكثر من تأثير الكلمة المطبوعة في القارىء. فإذا أنا افتتحت حياتي الأدبية بمسرحية فمردّ ذلك إلى هذا التقدير العالي الذي أُكنّه للمسرح. إلا أنني حينما كتبت «الآباء والبنون» منذ خمسين سنة لم أكن أجهل أن المسرح العربي يعاني من صعوبات كثيرة. وفي طليعة تلك الصعوبات ازدواجية اللغة، ثم فقدان الممثلين، ثم الحالة الاجتماعية التي كانت تستنكف أن ترى امرأة تظهر على المسرح، وتستنكف أن يتصدى كاتب المسرحية لشؤون كثيرة كالسياسة والدين ناهيك بفقدان التنظيم المسرحي. أما اليوم وقد تخطّينا الكثير من تلك العقبات، وباتت لدينا نواة مباركة للمسرح فقد عاودني الحنين إلى كتابة المسرحية. ولذلك كتبت «أيوب».

ويتحدث عن مسرحيته الجديدة وعن المشكلة التي يتصدى لها فيقول:

قرأت سِفر أيوب كما هو وارد في التوراة أكثر من مرة. وفي كل مرة كان يستهوينيْ في القصة أمران: قالبها الشعري ومضمونها الذي يدور حول العقاب والثواب. وقضية العقاب والثواب قضية معقدة أفظع التعقيد. فليس في الناس من لا يتعرض للأوجاع والمصائب. وهنا يبرز السؤال من أين تأتي هذه الأوجاع وتلك المصائب، وإلى أي حد يجلبها الناس إليهم بأعمال يعملونها وأفكار يفكرونها، وإلى أي حد تكون تدخّلاً مباشراً من قوى نجهلها ولا سلطان لنا عليها؟ فأيوب، حسب الرواية، كان رجلاً باراً وصدّيقاً. إلا أنه لم ينجُ من تجربة قلّما تعرض لمثلها إنسان. فكيف نوفّق بين تجربته وبين براءته؟

تلك هي المشكلة التي أتصدى لها في المسرحية وأحاول أن ألقي عليها بعض الأضواء من عندي. لذلك أبَحْت لنفسي أن أتصرف بالقصة كما هي مرويّة في التوراة فأخلق أحداثاً جديدة وأشخاصاً لا وجود لهم في سفر أيوب. ولا أخالك تتوقع مني أن ألخّص لك المسرحية إذ إن تلخيصها قد يفسد معانيها ومراميها.

فقلت له:

وكيف تخطّيت، أستاذ نعيمه، ازدواجية اللغة التي صادفتها في مسرحيتك الأولى؟

موضوع «الآباء والبنون» يتناول حالة اجتماعية في لبنان منذ نصف قرن وأكثر. وأشخاصها بينهم الأمي وبينهم المتعلم. فلم يطاوعني ذوقي أن أجعل الأمي اللبناني يتكلم بلغة الدواوين والمقامات، إذ إن في ذلك تشويهاً لواقعه وحقيقته. لذلك لجأت إلى التحايل فجعلت المتعلمين يتكلمون لغة مُعربة، وجعلت غير المتعلمين يتكلمون العامية. واعترفت في المقدمة التي وضعتها للرواية أن ذلك الحل لم يكن غير حيلة مني لا تحل المشكلة في أساسها.

أما في «أيوب» فالأحداث تجري في زمان يعود إلى ما قبل المسيح. لذلك لم أجد أيّ بأس في أن أجعل الأشخاص جميعهم يتكلمون لغة فصحى.

وإذا طلب منك السماح بتمثيل «أيوب» فهل تقبل؟

بالطبع على أن يكون الممثلون من الذين أتقنوا فنهم غاية الاتقان.

وهل تعتقد أن عندنا في لبنان ممثلين من ذلك الطراز؟

شهدت في السنوات الأخيرة عدة مسرحيات مترجمة قام بتمثيلها رجال ونساء لبنانيون، وجدت بينهم من أحسن تقمّص الشخص الذي يمثل دوره، وبات يعرف أن الكلمة على المسرح هي غير الكلمة في الكتاب. فالكلمة على المسرح يجب أن تبرز جميع معانيها وألوانها لا بمجرد نطقها، بل بما تثيره في النفس من انفعالات. لذلك كان على الممثل الماهر أن يمثل الكلمة بكل خليّة من خلايا جسمه، وعلى الأخص إذا كانت من الكلمات التي تحمل أكثر من معنى واحد أو لون واحد أو بُعد واحد. فملامح الوجه كلها بل جسد الممثل كله ينبغي أن تجند جميعها في سبيل أداء الكلمة بكل ما فيها من فكر أو عاطفة أو لون أو بُعد يتعدى في بعض الأحيان حتى حدود الخيال.

أعرف أن معظم الممثلين عندنا لا يزالون حتى اليوم من الهواة. على أنني وجدت بينهم مواهب لو قُيِّض لها من يصقلها ويهذبها. ثم لو قُيِّض لها أن تحترف التمثيل فتجعله عمل حياة لكان لنا في وقت قصير مسرح لبناني نعتز به، ونعتبره أداة فعالة في تطوير حياتنا الاجتماعية والروحية.

وهل يمكن لعمل كهذا أن يبرز إلى الوجود دون معونة ما؟

هنالك بلدان كثيرة قام فيها التمثيل على أكتاف أشخاص كرّسوا حياتهم له. ثم وجدوا بين الأغنياء من قَدّر لهم ذلك فساعدهم من الناحية المادية. وهنالك بلدان تبنّت الحكومة فيها شؤون المسرح فراحت تبني له أفخم المباني وتنفق على الممثلين بسخاء. وإنه لمن المؤسف والموجع أن لا نرى في لبنان على كثرة المتمولين فيه من أحسّ قيمة المسرح فاندفع ينفق عليه من ماله الخاص. لقد آن للحكومة عندنا أن لا تقصّر حيث قصّر الأفراد. ولكنها، ويا للأسف لاهية بأمور كثيرة هي في نظرها أهم بكثير من كل ما يتصل بالمسرح والأدب والشؤون الفكرية والروحية على الاجمال.

ذكرت أنه بات لنا نواة مسرحية لا بأس به، فهل عنيت بذلك ممثلين فقط أم كتّاب المسرحية كذلك؟

عنيت الممثلين في الدرجة الأولى. وإنه لمن المؤسف أن تكون أكثر المسرحيات التي شهدتها مترجمة عن لغات أجنبية. ففي الغرب قد بات من الممكن لكاتب المسرحية أن يعيش من قلمه وللممثلين أن يعيشوا من تمثيلهم. أما عندنا فلا كاتب المسرحية ينتفع منها بفلس، ولا الممثل يستطيع أن يحصل من تمثيله على مقوّمات العيش. ولعل ذلك من الأسباب الرئيسية التي تصرف الموهوبين من كتابنا عن كتابة المسرحية.

(مجلة الجمهور الجديد، بيروت ٢٤ ـ ٥ ـ ١٩٦٧)

عشت مخاض الثورة الروسية

قلت لميخائيل نعيمه:

قد لا يعرف بعض القراء أنك بدأت في مقتبل حياتك تنظم الشعر، وأصدرت ديواناً باسم «همس الجفون». ثم انقطعت عن نظم الشعر. فما حكايتك مع الشعر؟

تبدأ حكايتي مع الشعر بأول قصيدة نظمتها بالروسية في عام ١٩١٠. وكان عنوانها «النهر المتجمد». أوحاها إليّ منظر نهر عرفته في الصيف، فإذا هو يسير بارتياح بين الحُقول والغابات.

حينما جئته في الشتاء وجدته متجمد الوجه، تسير عليه الناس والعربات، ولا تسمع له خريراً، وتحسب أنه زال من الوجود.

وتلك القصيدة عينها ترجمتها بعد سنوات إلى العربية في عام ١٩١٧، وضمّها ديواني «همس الجفون».

والطريف في هذه القصيدة، أنني في آخرها أتوجّه إلى روسيا التي عرفتها آنذاك، وأسألها متى تنفكّ من عقالها، كما سينفك ذلك النهر المتجمد فيبصر العامل والفلاح أيام رغد وهناء. ثم أختتم القصيدة بقولي:

«إنك لا تجيبين يا أمنا روسيا فنامي إلى أن يأتيك يوم لا بد منه».

فكأنني تنبأت عن الثورة. واتفق بعد نصف قرن أن زرت روسيا السوفياتية وأن عرف القوم مني عن وجود تلك القصيدة، فأخذوها ونشروها في عدة صحف، وعلّقوا عليها كثيراً.

وبعد ذلك نظمت الشعر فترات متقطعة إبّان وجودي في المهجر. ثم انتقلت من العربية إلى الإنكليزية فنظمت فيها عدة قصائد، نُشر بعضها في صحف بارزة كالنيويورك تايمز. وحينما عدت إلى الوطن، جمعت أشعاري العربية والانكليزية، ونشرتها في مجموعة سميتها «همس الجفون».

المعروف أنك سافرت إلى روسيا طالب علم قبل قيام ثورتها بعشر سنوات ولا شك أن هذه السفرة قد تركت في نفسك انطباعات عن المجتمع الروسي قبل الثورة.

لقد كان في مستطاعي أيام دراستي في روسيا أن أحسّ الضغط الهائل الذي كان يتحمله الشعب، وأن أجزم جزماً بأن تلك الحالة لن تدوم.

أحسست روسيا في ذلك الوقت كما لو كانت هَرماً هائلاً يتحمل جميع أثقاله الذين هم في أسفل، أعني عامة الشعب ما بين فلاحين، وعمال في المصانع والمناجم. ولأنني كنت على اطلاع واسع بما يبثّه الكتّاب الروس من أفكار ثورية، فقد بات في إمكاني أن أتأكد أن هذه الحالة لن تدوم، فلا بد من انقلاب هائل. والذين يجهلون تاريخ روسيا يجهلون أن محاولات عدة سبقت ثورة البلاشفة التي باتت اليوم معروفة بثورة أكتوبر.

بصفتك أديباً، هل يمكن أن توضح لنا بإيجاز دور الأدباء الروس في التمهيد أو الارهاص لهذه الثورة؟

ابتدىء بغوغول الذي اشتهر أول ما اشتهر بحكايات بسيطة أخذ يحكيها عن حالة الفلاحين حواليه. ثم بروايته الشهيرة التي اختتم بها حياته الأدبية، وهي «الأرواح الميتة». ففي هذه الرواية يمثل المؤلف أفظع التمثيل الحالة التي كانت سائدة في أيامه. إذ كان يباع الفلاحون مع الأرض التي يعملون فيها.

ولقد استطاع غوغول أن يصوّر جميع البشاعات النفسية التي تلازم نظاماً كذلك النظام.

ثم أنتقل من غوغول إلى بوشكين الذي شحن شعره بالتغنّي بالحرية، والذي انضم إلى جمعيات ثورية سرية، فكاد يكون ضحية ميوله الثورية.

ثم أذكر نكراسوف الشاعر الروسي الشعبي الذي وقف شعره على وصف المآسي والفواجع التي كان يعانيها الإنسان البسيط في روسيا.

ويأتي بعده كتّاب كرّسوا أدبهم لفكرة الثورة أمثال باكونين وغيرتسن، ناهيك بتولستوي، ودوستويفسكي، ومن بعدهما غوركي، وهؤلاء بذروا الثورة في كل مؤلفاتهم.

ولأنني عشت في ذلك الجو، زماناً، فقد كان من السهل عليّ أن أرى حتمية الثورة، وإن لم يكن في مستطاعي أن أتنبّأ عن زمانها وعن مداها، وعن الشكل الذي ستتخذه.

لا شك أن هؤلاء الأدباء، كان لهم إلى جانب هذه القيم الثورية نظرات في الكون والحياة. وأنت كأديب، بعد أن صقلتك التجربة، لك أيضاً نظرة تختص بك. فما هي نظرتك كمفكر من الشرق عاش حيث عاشوا هم؟

عندما ابتدأت أفكر، وجدت نفسي أمام مشكلتين كبيرتين استعصى على فكري القاصر حلّهما، وهما: مشكلة الشر، ومشكلة الموت.

والمشكلتان تفرضان فرضاً وجود نقيضين لا يلتئمان. فالشر ونقيضه الخير في صراع أبديّ. والموت ونقيضه الحياة في صراع لا ينتهي إلى غلبة أحد الطرفين. إلا أنني توصلت في النهاية إلى أن أرى الكون وحدة لا تتجزأ فهو متداخل بعضه في بعض إلى حد أنه يستحيل عليك أن تفصل أي جزء منه عن الآخر.

هذه نظرة شمولية إلى الكون؟

نعم، وهنا ابتدأت بذاتي فسألت نفسي: من أنا؟

وعندما حاولت أن أجد لنفسي حدوداً، وجدتني وكأنّي أحاول المستحيل إذ إنني متداخل في كل ما في الكون، مثلما كل ما في الكون متداخل فيّ. ولأنني لا أعرف لهذا الكون بداية أو نهاية، فأنا لا أعرف لنفسي بداية أو نهاية. وحيث تضيع البدايات والنهايات تضيع جميع المقاييس البشرية. فلا قبل، ولا بعد، ولا هنا، ولا هناك، بل وجود بغير حدود. عند هذه الفكرة الشمولية ـ كما ذكرت ـ وجدت أن لا مناص لي من التسليم، بأنّ في الكون قوّة تستمر إلى ما لا نهاية، وأنها غير محسوسة، وإنْ هي اتخذت لذاتها أشكالاً محسوسة. فالمحسوسات جميعها تتبطّن عن شيء غير محسوس، وذلك الشيء هو حقيقتها التي لا تتغير ولا تتبدل في حين أن أشكالها الحسية معرضة للتغير والتبدل، فلا ثبات لها، ولا حقيقة لها في ذاتها.

عندئذ أيقنت أن الازدواجية التي نراها في حياتنا اليومية ليست سوى مرحلة تؤدّي بنا إلى الأحديّة التي لا ازدواج فيها. فهي فوق الخير والشر، وخارج نطاق الزمان والمكان. وما علينا إلا أن نعيها وعياً كاملاً إذا نحن شئنا أن نتخلص من ألاعيب الازدواجية، وأوجاعها، وآلامها.

أفهم من ذلك أنك تؤمن بالتناسخ. فهل الازدواجية تؤدّي إلى الأحدية؟

حسبي أن أعرف أنني غير قابل للاضمحلال، ليصبح في إمكاني أن أتقبّل الازدواجية دون أن أعطيها من حياتي أكثر مما تستحق من الاهتمام. فما هي غير مرحلة في طريقي إلى الأحدية، أو إلى وعيي لنفسي وعياً كونياً لا فردياً.

يبدو من كلامك هذا أن لك تفكيراً خاصاً أعني شديد الخصوصية في طبيعة الإنسان وجوهره، فهل تزيدنا ايضاحاً؟

إنما الإنسان كما نعرفه ناسوت ولاهوت. اللاهوت هو الحقيقة الأزلية، والناسوت ليس سوى الغلاف المحسوس لتلك الحقيقة. وهي لن تظهر في أبهى

روعتها إلّا إذا زال الغلاف عنها. وذلك يعني أن الإنسان لن يحقق الإلّه في نفسه إلا إذا هو تخلص من الإنسان الذي يحجب عنه الإلّه.

وكيف يتم ذلك؟

الوعي الكامل الذي تكلمت عنه، أي وعي الإنسان نفسه إلّهاً منزهاً عن التقلبات، لا يمكن أن يتم خلال عمر واحد. فالعمر الواحد مهما طال لا يتسع لاستيعاب أيّ علم من العلوم البشرية المعروفة اليوم. فكيف بالعلم الأكبر، وهو العلم الذي يؤدّي إلى معرفة الله في الإنسان. ذلك العلم الذي لا بد له من بساط أوسع بكثير وأطول بكثير من سنوات معدودات. وهل يمكن للإلّه، والأبديات في قبضة يده، أن يكون بخيلاً إلى حد ألا يفسح للإنسان مجالاً لمعرفته إلا بضع سنين، كما لو كانت معرفته قريبة التناول كمعرفة الهجاء والحساب مثلاً.

إذن فلا بد من التناسخ في رأيك، لكي يوجد وعي الإنسان المنزّه؟

هناك أمور محيّرة تفرض عقيدة «التناسخ». . منها فكرة العدل الربّاني. إذ كيف لله، وهو عنوان العدالة أن يهب البعض الكثير الكثير، وأن يبخل على الآخر حتى بالقليل القليل. فالتفاوت في حظوظ الناس هو احتجاج صارخ ضد العدالة الربانية.

ثم هناك صلات الناس بعضهم ببعض، فهذه تنبت وتتأصل، كما لو كانت مصادفات لا أكثر، في حين أننا نعيش في عالم منظم أروع التنظيم!. فلا مجال فيه لأيّ مصادفات. بل هو خاضع في كل شؤونه لنظام صارم لا يتغير، ولا يتحوّر. ولعل أبرز ما في هذا النظام، هو نظام الأسباب والنتائج.

وإذن فصلاتنا لا تنبت اعتباطاً. بل تخضع لذلك النظام. وكذلك جميع ما ينتابنا من خير وشر. فنحن مسؤولون عن كل ما يحدث لنا. وهذه المسؤولية ترفع عن عاتق الإلّه الكامل مسؤولية التفاوت في حظوظ الناس، وتردّ إليه العدل الذي نتخيله ملازماً له.

في هذه الحالة لا بد أن يتكون إنسانك من خلال أجيال عدة؟

في ضوء هذه النظرية يغدو من المعقول أن يولد الناس، ثم يموتوا كرّة بعد كرّة، إلى أن تتهيأ لهم معرفة النظام الذي يسيّر جميع الأكوان، فينصاعون له بملء إرادتهم. وهكذا يتخلصون من أوجاعهم، ومن فرديتهم ويتّحدون بذاتهم الكبرى التي لا وجود إلّا لها وفيها.

والإنسان كيان معقّد جداً، لكنه يملك المفاتيح إلى كل عقدة في نفسه. وهو، منذ أن كان، ما برح يشتاق إلى المعرفة التي تمكّنه من السيطرة على كل ما يسيطر عليه الآن. وهذا الشوق هو دليله على أنه يملك القدرة على تحقيق ما يشتاقه. فما عليه إلّا أن يسعى، وأن يجاهد، وأن يتطلع أبداً إلى الأبعد، عالِماً أن ما هو فيه الآن ليس سوى درجة في السلّم الذي يؤدّي به إلى المعرفة التي يشتاقها.

هذه فلسفة تفاؤلية طويلة النفس. لكن الناس ليسوا في مستوى واحد للتفتح النفسي والروحي. وهذا سيطيل الطريق إلى الخلاص؟

الخلاص لن يأتيهم دفعة واحدة. فهم كالغابة، فيها الشجر الباسق، والأدغال الملتصقة بالأرض، والطفيليات التي تعيش على غيرها من الأشجار، والمتسلّقات. فالذين أدركوا الخلاص هم القلّة وهم الحُداة الذين تسير على هَدْيهم القافلة البشرية. هؤلاء يضعون للناس الأهداف البعيدة عالمين أن الناس لن يدركوها بقفزة واحدة، بل لا بد لهم من سير طويل ومُضنٍ، ومن تعثّر هنا وهناك.

إلّا أنني واثق من أن جميع الناس سيدركون الهدف يوماً. فليس في نظري من هم مُعدّون إلى الهلاك الأبدي. إذْ إن الشعلة الإلّهية التي فيهم لا يمكن أن تخبو وأن تنطفىء مهما طال الزمان، فهي كالنار كامنة في الحطبة لا بد أن يأتيها يوم تلتهم فيه الحطبة، وتبرز إلى الوجود بكامل بهائها. وهنا يكمن سرّ تفاؤلي بالإنسان ومستقبله.

وعلى ذكر الإنسان، هناك شيء يتصل به وهو الوقت. قرأت أنك تقول إن الوقت عندي ليس من ذهب، بخلاف ما تعارفنا عليه. فكيف توضح ذلك؟

الوقت من ذهب في نظر الذين يعتبرون أن غاية الإنسان من وجوده هي جمع أكبر كمية ممكنة من الذهب. أما عندي فقيمة التراب قد تعلو أحياناً على قيمة الذهب. ولا قيمة للأشياء في ذاتها، بل قيمتها في طريقة استعمالها. فالثروة المادية عبء وأي عبء على أصحابها. والوقت الذي ينفقونه في جمعها وقت مهدور. أما الوقت الذي ننفقه في تخفيف متاعب الناس وأوجاعهم فوزنه فوق وزن الذهب بكثير. هذا يبقى، وذلك يزول. هذا جناح، وذلك غل في العنق.

وإنه لمن المؤسف جداً أن ترى الناس قد جعلوا أثماناً لكل شيء، حتى للإنسان الذي لا يُثمّن بأيّ شيء. وأن اكسَبَ إنساناً لخيرٌ عندي بكثير من أن أكسب ثروة. وأن أخسر ثروة لأهون عليّ بكثير من أن أخسر إنساناً.

المعروف أن الغالب على الغرب بصفة عامة الفلسفتان المادية والوجودية، فهل يتفرد الشرق بفلسفة خاصة.. أقصد فلسفة روحية طالما عُرف بها؟

اسمع! إمّا أن يكون العالم الذي نعيش فيه عالماً منظّماً، أو عالماً فوضوياً. فإن كان فوضوياً، فلا قيمة لأيّ شيء نعمله أو نفكر فيه. وإن كان منظماً فواجبنا إذ ذاك أن نهتدي إلى نظامه لنسايره فنسعد، ولا نخالفه فنشقى.

وإذ ذاك فقيمة أية فلسفة تقاس في نظري بمقدار ما تهديني إلى ذلك النظام، وإلى الطريق الذي يجب عليّ سلوكه، لأسعد بالنظام ومسايرته، بدلاً من أن أشقى به وبمعاندته.

لقد درجنا على القول بأن الشرق روحيّ، والغرب ماديّ. وإذا كان لذلك من معنى، فمعناه أن الشرق يؤمن بأنّ جوهر الحياة روح لا مادة، وأن الغرب يرى العكس. والواقع هو أن روحانية الشرق باتت أكثر مادية من مادية الغرب.

إلا أنّ هذا التنكر من قبل الشرقيين لروحانيتهم لا ينفي وجود الروح التي آمنوا بها من زمان. وكل ما في الأمر أن هذه المدنية الغربية قد طغت عليهم في الوقت الحاضر فكادت تسلخهم عن إيمانهم بحقيقة الوجود التي هي روح لا مادة. ولكنهم من بعد انجرافهم مع هذه المدنية الغربية هذا الانجراف سيعودون إلى جذورهم الشرقية، سيعودون يفتشون في المادة عن الروح.

إلّا أنّ ذلك لن يتأتى إلّا من بعد أن يشبعوا من المدنية الغربية حتى التخمة.

وعندي أن هذا العالم الذي يتخبط اليوم في خضم من المشكلات وفي دياجير من الظلمات لن ينتشله مما هو فيه إلا صوت من الشرق. أما متى يكون ذلك، فعلمه عند الله.

أنتقل إليك أنت شخصياً، فأقول: لقد جعلت من نفسك ناقداً في فترة من حياتك فكتبت سلسلة من المقالات جمعتها في كتابك «الغربال». فلِم اتجهتَ للنقد؟

بدأت حياتي الأدبية ناقداً لأنه كان يضايقني جداً أن أرى الجمود يسيطر على الأدب العربي ـ في بداية القرن ـ حتى لا تكاد تكون صلة بينه وبين الحياة التي يحياها الناس والأدباء أنفسهم. فكأنما الأدب صناعة لا أكثر، وغير مطلوب منه أن يدخل قلب القارىء ونفسه ليفتح آفاقاً جديدة وكوى جديدة يطل منها على الحياة.

لقد كان الأدب في الغالب أدب صناعة وأدب ألفاظ وأدب تملّق. ولأنني أقدّس الكلمة، وأعتبرها أكثر من صناعة، ثُرتُ على الذين جعلوا منها أداة للتسلية والتفكهة لا أكثر.

لقد كان عليّ أن أشقّ طريقي وسط أدغال كثيفة من الدجل والتزوير والتعسف بجمال الكلمة وجلالها، فكان من ذلك مجموعة مقالات نشرت

بالقاهرة، ضمها «الغربال». وقد أدّى «الغربال» رسالته، فساعد في توجيه الأدب العربي، وخلق صلة بين الأدب والحياة.

لكن لماذا انصرفت عن النقد بعد ذلك؟

بعد أن شعرتُ بأن النهضة الأدبية سائرة في طريقها الجديد، وأن لا خوف عليها من الانتكاس، والعودة إلى زمان الانحطاط، طلّقت النقد، واتجهت بكل تفكيري إلى الإنسان ومعنى وجوده والطريق الذي يجمل به سلوكه لتحقيق وجوده. وذلك أني انتقلت من النقد في معناه المحصور إلى النقد في معناه الأوسع.

ومن ثم فصدري اليوم لا يضيق - كما كان في السابق - بأشياء كثيرة قد تزعجني إلى حين، ولكنني أعتبرها بعضاً من النظام الكوني، فلا أعترض عليها. وكثيراً ما أنظر حوالي، فأرى أن الأرض لا يضيق صدرها بالوردة والعوسجة تنبتان جنباً إلى جنب. ولا يضيق صدر الهواء بالنسر والخفاش، ولا صدر البحر بالجدول الصافي وبالنهر العكر.

وهذه الرحابة في نظرتي إلى الكون جعلتني أقلع عن النقد، تاركاً أمره لغربال الزمان الذي لا يبقى فيه على المدى الطويل، إلاّ ما هو صالح للبقاء وإلا ما هو يدفع بالقافلة البشرية دائماً إلى الأمام، ولو بدا لنا سيرها بطيئاً جداً.

إذا كنت قد تركت النقد بعد أن جعلت من نفسك معلّماً وموجّهاً، فما هو دورك الذي لعبته بعد ذلك؟

إنني أسعى لتوجيه نفسي في معارك الحياة بدلاً من أن أسعى إلى توجيه الأدباء في معارج الأدب. وعلى قدر ما أوجّه نفسي، أحاول أن أوجّه غيري، غير آبه بما أحققه من نجاح، أو بما ينالني من فشل. فما عليّ إلاّ أن أعمل بوحي نفسي، ووحي نفوس كثيرة تتصل بنفسي دون أن أراها ودون أن أعرف ما هي، وأين هي!

لكنك لم ترسم لي صورة الناقد الحق، خاصة وأن في عالمنا العربي تدور اليوم رحى معارك نقدية؟

تريدني أن أحصر كلامي في النقد، والنقد مهمّة شاقة إلا على الذين وهبتهم الطبيعة حساً مرهفاً بالجمال، إنْ في الشكل، وإن في اللون، وإن في الايقاع. والكلمة وحدها التي هي أداة الأدب الأولى تستطيع أن تجمع بين جميع الفنون من هندسة، وتصوير، وموسيقى، وحركة، وما إلى ذلك. فالناقد الذي لا يحسّ جميع هذه الجوانب العميقة في الكلمة لا يستطيع أن يكون ناقداً. والنقد لا قيمة له إلّا إذا كان خلقاً. فلا يكفي أن نبيّن معايب المنقود ومحاسنه، بل لا بد للناقد أن يرسم للأدب نهجاً يسير عليه. ولكي يكون له ذلك، لا بد له من ثقافة واسعة جداً، ومن ذوق مرهف، وخيال وثّاب، وفكر نفّاذ، ومقدرة خارقة على التعليل. وهذه الصفات يندر أن تجتمع في عدد كبير من الناس. لذلك قلّ عدد الناقدين الذين هم بحق خلاقون.

فلا عجب إذ ذاك أن تمر بنا فترات من الزمن يكثر فيها المتطفلون على النقد ويقل الناقدون الأصيلون. إلا أن الزمان لا يتوقف. ففترة من القحط لا بد أن تعقبها فترة من الخصب. لذلك لا أرى أيّ مبرّر لشكوانا من قلة الناقدين. فلعلّ المعارك النقدية تتمخض عن ناقد يغزو اسمه جميع الأقطار العربية، ويغدو نبراساً يستضيء بنوره عدد كبير من الأدباء.

أرجو أن تبين بصراحة رأيك في إنتاج الأدباء العرب الذين زاد احتكاكهم بالغرب. وهل تقرأ لهم؟

كان من احتكاكنا بالغرب منذ مطلع القرن الحاضر وحتى أيامنا هذه أن تلقّح الأدب العربي بأنماط لا عهد له بها من قبل، كالقصة، والرواية والمسرحية والقصيدة الطويلة النفَس التي ندعوها ملحمة. وكان علينا في هذه الفترة القصيرة من الزمن أن نطوّر هذه الأنماط الجديدة لنبلغ بها مستوى بَلَغَتْه في الغرب بعد سنين طويلة من التجربة والاختبار. فعملنا إذ ذاك كان عملاً شاقاً، وعلينا أن

نغتبط بالنتيجة التي بلغناها في هذه المدة القصيرة. إذ بات لنا من يحسن كتابة الأقصوصة والرواية والمسرحية والملحمة. وبات بعض نتاجنا حرياً بأن يترجم إلى لغات أجنبية، وأن ينال شيئاً من التقدير.

وما رأيك في الشعر الحديث؟!

الشعر الحديث. جاءنا وكأنه طفرة تحاول أن تطمس معالمنا الشعرية القديمة. إلّا أنها ـ رغم تطرفها ـ طفرة مباركة. فهي دليل الحيوية فينا، لأنها تفتش عن شيء جديد، والتجديد من سنة الحياة. هذا مع العلم أن الكثير في شرقنا العربي يمتعض من هذه الثورة، ويخشى على تراثنا القديم. وذلك خوف في غير محله. فالجميل من القديم سيبقى جميلاً، والقبيح من الجديد سيبقى قبيحاً.

أرى أنك تؤمن بالتجديد في الشعر، فهل يمتد إيمانك هذا إلى سائر الفنون الجميلة، ولا سيما التشكيلي منها؟

في اعتقادي أن المدرسة التي ندعوها الكلاسيكية في الفن التشكيلي لا تزال القمة. كما نرى تماثيل فيدياس الإغريقي. وفي عصر النهضة نجد رفاييل، وميكلانجلو، ودافنشي، ورمبرانت، وروبنز، وفيلاسكويز.. هؤلاء يمثلون القمة في الفن.

والنزعات التي ظهرت فيما بعد ليست سوى نظرات تعيش على هامش هؤلاء العباقرة.

وماذا تقول عن التجديد في الفن؟

إذا استثنيت من ممثلي هذا الفن رجلاً مثل بيكاسو تجد أكثر الذين يمارسونه مقلِّدين، أكثر منهم خلاقين، ولا شك أن بيكاسو فنان أصيل، لو شاء أن يرسم أو ينحت كما فعل الكلاسيكيون لما قصر عنهم في شيء ولكنه رجل فتقت له الفكرة بأن يمثل المحسوسات، لا كما تراها العين المجردة، بل كما

تراها العين الباطنية وله في ذلك ما يبرره. فهو فنان أصيل، لكن مقلديه أمعنوا في التجربة حتى بات الفن عندهم شكلاً من تشويه المحسوسات تحت ستار أن هذا التشويه يؤدّي المعنى الباطني من خلال الشكل الخارجي.

هل هذه نظرتك الخاصة للتجريد؟

أنا أؤثر للفن أن يمثل الأشياء كما أتناولها بحواسي لا أن يعطل الأشياء ويعطل معها حواسي. فحسبي من حواسي ما أعانيه منها. ولكنني أريد من الفن ألاّ يكتفي بتمثيل الأشياء كما هي، بل يدلني من ورائها على حقيقتها غير المحسوسة. وعليه إذا هو لم يستطع أن يحمّل القبيح ألاّ يقبّح الجميل!. وليترك لي قضية تجريده من ظواهره، والغوص إلى باطنه.

إنني أصر على القول بأن الطبيعة هي الفنان الأكبر. وإنّ علينا، عندما نتمثل بها، أو نمثلها في لوحاتنا، أن ننفذ من أكسيتها الخارجية إلى معانيها الباطنية. فنحن إذا شوّهنا جمال الأشياء، شوهنا جمال روحها كذلك. ومن حولنا قباحات كثيرة، فلا يجمل بنا أن نشوه ما يبدو لنا جميلاً منتهى الجمال. ولا همّ لي ماذا يسمّون ذلك التشويه، أو كيف يفلسفونه، فإن فلسفة البشاعة ليست سوى بشاعة!

سؤال عن جبران وهو «رفيق أحلامك، وصديق أفكارك، وشقيق روحك» كما وصفته في كتابك عنه. كيف يتفق هذا مع الهجوم الذي شُن عليك، بدعوى أنك صورته في مراحلك الثلاث «سبعون» بأنه عاش حياته مترنحاً بين متطلبات اللحم والعظم والدم؟

جبران كما كتبت، ولا تعليق لي على ما كتبت.

سؤال شخصي: ما هو رأيك في الحب، بعد الذي سمعته منك عن الازدواجية والأحدية؟

الحب.. ولا أعني به حب الرجل للمرأة فقط، هو المفتاح لكل أسرار

الوجود. فبالحب تتماسك جميع الكائنات، وبه تحيا، وبدونه لا معنى لوجودها. ونحن متى عرفنا ذلك الحب، عرفنا الله، وتعرّينا أمامه. ولي فصل في كتاب «مرداد» عن الحب أبدؤه هكذا:

«إنكم تحيون لتعرفوا المحبة، وإنكم تحبون لتعرفوا الحياة»[1]، فبغير المحبة لن نفهم الحياة، وبغير الحياة لن نفهم المحبة. . . فكأنهما واحد».

في هذا الكتاب نفسه ـ «مرداد» ـ تقول إن الزواج مقبرة الحب. فهل الزواج عندك معناه ازدواجية أيضاً؟

الحب قوة أبدية، وباقية ما بقي الزمان. أما اللحم والعظم فللفناء. لذلك، إذا أضاع الحب نفسه فيما تثيره شهوات اللحم والدم، فقد تخلى عن قوته، وأصبح عرضة للانحلال بانحلال اللحم والعظم.

ألا يعني هذا أنك لا تؤمن بالزواج؟

هذا لا يعني أن في استطاعة البشر، كما هم اليوم، أن يحيوا حياة حب صاف. ويعني أنهم ما داموا يخضعون حبهم لسلطان اللحم والدم، دامت الحسرات والأوجاع تترصدهم عند كل عطفة من الطريق. فعليهم أن يختاروا بين ذاك وهذا، بين الحب الصافي، الذي هو غبطة صافية، والحب الممزوج بشهوات اللحم والدم، الذي يحمل معه الكثير من الأوجاع والآلام، والمرارة، وخيبة الأمل!.

(مجلة الهلال، القاهرة يونيو ١٩٦٧)

---

(١) «مرداد»: مؤسسة نوفل، طـ٧، بيروت ١٩٨٥، ص ١٠٨.

الشيوعية والرأسمالية

في كتابك «أبعد من موسكو ومن واشنطن» هل كنت ترمي بهذا «الأبعد» إلى إيجاد حلول جذرية لبعض المشكلات التي نتخبط بها حالياً؟

يسرني أن تثير هذه القضية لأنها في صميم المحنة التي يعانيها العالم كله وليس العرب وحدهم. إن ما قصدته بقولي «أبعد» في كتابي: «أبعد من موسكو ومن واشنطن» هو أن الأفكار التي أبسطها في ذلك الكتاب هي أبعد من تلك التي تبشر بها الشيوعية والرأسمالية على حد سواء. فقد شئت في ذلك الكتاب أن ألفت نظر القارىء إلى أن الناس ما يزالون قاصرين عن إدراك النظام الكوني الذي له اليد الطولى في كل ما يحدث في الكون، بما في ذلك عالمنا البشري الصغير. فلو أن الإنسان كان مستقلاً كل الاستقلال في كل ما يفكر ويعمل - لجاز له أن يقول: إني أريد كذا، فيكون له ما يريد. إلا أن الواقع يشهد بأن ما من خطة رسمها إنسان واستطاع أن ينفذها بحذافيرها. وذلك يجري على الفرد كما يجري على الجماعات.

فهل من يصدق أن هتلر عندما خطط للحرب العالمية الثانية كان يخطط النهاية التي انتهى إليها؟ أم هل من يصدق أن نابليون عندما خطر له أن يوحّد أوروبا كان يعرف أنه سينتهي إلى جزيرة القديسة هيلانة؟

ومن هنا، إذا نحن نظرنا إلى المحنة التي يعانيها العرب اليوم لوجدنا أنها

ليست من تخطيط اليهود ولا من تخطيط العرب، بل من تخطيط قوة تسير الأكوان، منظورها وغير منظورها، لعل الناس يدركون في النهاية أن الغاية من وجودهم تفهم تلك القدرة والنظم التي تسير عليها.

فكل نظام بشري لا يساير النظام الكوني مصيره حتماً إلى الفشل والاندحار. ولأن الناس بأكثريتهم الساحقة لا يزالون يجهلون ذلك النظام، فهم يتخبطون في دياجير من المشكلات التي لا نهاية لها. فلا يحسبون أنهم تخلصوا من مشكلة إلا ليجدوا أنفسهم عالقين في مشكلات جديدة.

ولا عجب، فالنظام الذي نلمسه في كل يوم يقضي بأن يولد كل شيء من ذاته، أعني أن العنب ينبت من العنب وليس من الشوك، وهكذا فالخير لا ينبت إلا من الخير والشر لا ينبت إلا من الشر. وهكذا لا يولّد البغض إلا البغض ولا المحبة إلا المحبة.

لأن المحبة هي سلام وطمأنينة وحرية، ولأن البغض هو حرب وقلق وعبودية، فعلى الناس أن يختاروا بين الاثنين. إما أن يحبوا فيعيشوا بسلام وإما أن يبغضوا فيظلوا في خصام دائم.

لو تخلص العالم من الأوثان التي ذكرتها في كتابك «الأوثان»، هل يسوده السلام؟

لو كان الناس في مستوى واحد من الفهم لبات من السهل أن تخلق لهم مستوى واحد من المعيشة. فالإنسان كائن سريع التأثر بكل ما تقع عليه حواسه.

فلو كان لك أن تتصور عالماً لا خبث فيه ولا كذب ولا رياء ولا بغض ولا طمع لكان من السهل أن تقود الناس إلى حياة فيها من الراحة والطمأنينة والسلام، أكثر مما فيها من قلق وخوف وذعر. لذلك أقول: إن ما توصلنا إليه، ومن أسباب عجيبة للتأثير في عقول الناس وقلوبهم، لو هو استُعمل للخير لكان وجه عالمنا اليوم وجهاً مشرقاً، وجهاً يطيب لك التطلع إليه.

فلو أننا في كل يوم، إذا أدرنا مفتاح الراديو لم نسمع إلا أخباراً جميلة عن تكاتف الناس وتعاضدهم في التغلب على مشكلاتهم، ولو أننا في كل يوم، إذا ذهبنا إلى السينما أو المسرح أو إلى النادي لم نبصر ولم نسمع إلا عن النجاحات التي يحققها الإنسان في حربه مع الطبيعة، لكانت حياتنا أطيب مذاقاً بكثير مما هي عليه اليوم. ولكن الأمور تجري على العكس.

فالصحف والراديو والتلفزيون والسينما لا تحمل إلينا خبراً مفرحاً إلا حملت معه أخباراً مليئة بالحقد والكره والبشاعة.

نعم، إن الوسائل التي نملكها الآن للتأثير على الناس لهائلة. ولكننا حتى اليوم لم نحسن استعمالها.

(ملحق الأنوار، بيروت ٦ - ٨ - ١٩٦٧)

كل لغة تلتصق بالدين تضمحل

«ما رأيك بالأدب اللبناني المعاصر، وكيف الطريق إلى النهوض به وجعله في مصاف الأدب العالمي؟».

«الأدب يخلقه الأدباء، وهؤلاء إذا كانوا من عيار ثقيل وكانت لهم نظرة عالمية واسعة استطاعوا أن يخلقوا أدباً تهتم له جميع الأمم. وليس هنالك من سبيل إلى خلقهم إلا إذا شاءت القدرة الربانية أن تمهد السبيل لوجودهم وذلك ما لا نستطيعه نحن بالتخطيط الاصطناعي».

«هب أنك ذهبت إلى الأديب ميخائيل نعيمه بشأن مقابلة صحفية فما هو السؤال الأول الذي توجهه إليه؟».

«كنت أسأله عن رأيه في هدف الإنسان من حياته وإلى أي حد تستطيع الكلمة أن توجهه نحو ذلك الهدف وتساعده في بلوغه».

«ما هو أجمل كتاب قرأته؟».

«الإنجيل» و «بهاغفادغتا» في سموهما الروحاني و «القرآن» في بلاغته.

«هل صحيح أن المسرح اليوم هو دون مستوى الأدب؟».

«المسرح عند العرب لا يزال طفلاً بالنسبة إلى المسرح عند الغربيين وهم

الذين عرفوه منذ أيام الإغريق. أما العرب فعهدهم به حديث جداً وهو لا يعود إلى أبعد من أواخر القرن الماضي. ولذلك أسباب عديدة منها ازدواجية اللغة عند العرب ما بين محكيّة ومكتوبة، ثم نظرة العرب إلى المرأة التي كان يُحرّم عليها الظهور على المسرح. أضف إلى ذلك تزمتهم في الأمور الدينية والاجتماعية التي كانت تضيّق على كاتب المسرحية آفاقه فلا يستطيع أن يعالج هذه الأمور بصراحة وجرأة.. وإذا أنت حرّمت على مؤلف المسرحية أن يتصدى للدين وتقاليده فقد حرمت عليه أن يتحدث عن أهم جانب من جوانب الحياة التي يحياها الناس من حواليه».

«أما الآن فإنه وإن تكن مشكلة ازدواجية اللغة ومشكلة الدين ما تزالان قائمتين عندنا فقد تمكنّا من أن نخلق نواة مسرح عربي لا بأس بها. ويقيني أن هذه النواة ستنمو إلى حد أن يصبح المسرح ذا شأن كبير في توجيه حياتنا».

«ماذا تحبذ أن تكون لغة المسرح؟».

«قلت إن مشكلة ازدواجية اللغة ما تزال قائمة، وهي عثرة كبيرة في سبيل تقدم المسرح الذي يسعى إلى تصوير الحياة كما هي. وإذا أنت ألقيت نظرة سريعة على ما يجري الآن عندنا في دنيا الإذاعة والتلفزيون وجدت أن اللغة العامية تكاد تطغى على الفصحى في أكثر ما يذاع من مسرحيات. إلا أنني لا أريد الفصحى أن تتخلى عن دقتها وجمالها للعامية ولا أريد للعامية أن تطغى على الفصحى. فلا بد من تلاقٍ بين الاثنتين. أما متى يكون ذلك وكيف فالمستقبل كفيل بأن يجيب على هذا السؤال».

«قلت: «لم تعيش؟»».

فأجاب صاحب «سبعون» و«زاد المعاد»: «كان الأحرى بك أن توجه هذا السؤال إلى القدرة التي أنا منها والتي وضعتني في هذا الكون الهائل الذي يسحرني بما فيه من نظام وجمال ولا أعرف له بداية ولا نهاية».

«ولماذا تكتب؟».

«أكتب لأعبر عن عظيم تقديري للنظام الذي ذكرتُ وعن شوقي اللافح إلى معرفته والسير معه لا ضده. وذلك لأنني أعتقد أن ما من ألم يأتيني إلا لانحرافي عن ذلك النظام، وأن ما من سعادة لي ولغيري من الكائنات إلا بمعرفة ذلك النظام وجعله نظاماً لوجودي».

ما رأيك بقول بيار بروسيه: «إن كل لغة تلتصق التصاقاً وثيقاً بالدين تضمحل، إذ تصبح شيئاً أثرياً؟»

«هذا القول فيه الكثير من الحقيقة إذا نحن فهمنا الدين كما يفهمه اليوم عامة الناس. فهذا الدين من شأنه أن يتحجر على مدى الأيام وأن يصبح مجموعة طقوس وتقاليد لا أثر فيها للشعور العميق بوجود قوة مدبرة ومنظمة في الكون، واللغة التي تلتصق بمثل هذا الدين التصاقاً وثيقاً من شأنها هي كذلك أن تتحجر معه. أما الدين الذي يشدّ بالإنسان أبداً إلى أعلى ليعود به إلى مصدره الإلّهي فاللغة التي تلتصق به هي لغة حية ومتطورة أبداً بتطور الإنسان في سيره نحو الكمال الذي تضيع فيه جميع التناقضات.

«هل تستهويك برامج التلفزيون، ومن هم الممثلون الذين تعجب بهم؟».

«لم يستهوني التلفزيون حتى الآن لتفاهة البرامج التي تذاع منه. فأكثرها من الغث الذي يصرف الإنسان عن مشكلاته الأساسية ليغرقه في رغوة من التفاهات الدنيوية».

وعدتُ أسأل صاحب «الغربال» و«المراحل» عما إذا كان متفائلاً في حياته، فأجاب ببداهة:

«تستطيع أن تستنتج من جوابي على سؤالك الأسبق أنني متفائل إلى أبعد حدود التفاؤل. فما من إنسان في نظري إلا وهو مؤهل لأن يبلغ يوماً تلك

المعرفة التي تنهار معها حدود الزمان والمكان فيتحد اتحاداً لا انفصال بعده بالقدرة الشاملة التي هو منها».

ثم قلت: «هل لك أن تعطينا فكرة موجزة عن حياتك الدراسية والأدبية»؟

فأجاب ببطء:

«إني لم أضع كتابي «سبعون» في ثلاثة مجلدات إلا لأعطي صورة عن حياتي منذ وعيت نفسي حتى بلغت السبعين من عمري، وإنه لمن الحيف أن تسألني تلخيص تلك المجلدات الثلاثة في بضع كلمات».

ورحت أسأله: «هل تعتقد أنه من السهولة لكاتب ما أن يؤرخ حياتك في كتاب؟».

فجاء جوابه: «إنه لمن المستحيل على أي كاتب أن يعطيك صورة عن حياته بكل تفاصيلها، فكيف بأن يعطيك صورة عن حياة إنسان غيره؟ إلا أننا إذا فاتتنا جميع التفاصيل فلا يفوتنا على الأقل أن نعطي صورة مجملة عن حياة هذا الأديب أو ذاك، على أن يكون القارىء ممن يستطيعون أن يقرأوا بين السطور. فالتاريخ في مفهومه المتداول بين الناس تاريخ مبتور أبداً لأنه لا يستطيع التغلغل في جميع الدقائق التي يتكون منها حدث من الأحداث. مثال على ذلك هذه الحرب التي دارت رحاها مؤخراً بين العرب واليهود وكنا جميعاً من مرافقيها، ولكنك مع ذلك لن تجد اثنين يرويانها لك رواية واحدة ويعرفان جميع الأسباب البعيدة والقريبة التي أدت إليها وإلى نتائجها».

قلت: «كثر الكلام حول الشعر الحديث، فما رأيك الخاص فيه؟».

أجاب:

«رأيي أنه لا يحدث شيء في الكون إلا لحاجة إليه وإلا إذا تهيأت الظروف لحدوثه لذلك لا أستغرب أن يقوم بيننا من يدعو إلى الابتعاد عن الشعر القديم وخلق ما يسمونه بالشعر الحديث. فالتطور من سنة الحياة. ومن سنة الحياة كذلك أن تتقبل ما يؤاتي ذوقك ويستجيب لرغبة في نفسك، وأن ترفض ما

يتنافى مع ذوقك ورغباتك. فإذا كنت ممن لا يستسيغون الشعر الحديث فما عليك إلا أن تتركه وشأنه وليس لك أن تنكره على الذين يستسيغونه».

وعدت أسأل: «من أي أمة انبثقت التقفية الشعرية في نظرك؟» فأجابني:

«هذا سؤال يصعب الجواب عليه إلا إذا تمكنّا من العودة آلاف السنين إلى الوراء لنعرف أي الشعوب كانت أسبق إلى التقفية. أما في ما يختص بالشعر العربي فأغلب الظن أنه ولد وولدت القافية معه، وذلك ظاهر حتى اليوم في الأغاني الشعبية التي لا تستغني عن القافية. ومَرَدّ ذلك إلى سليقة في الإنسان تجعل الأذن تطرب للسجع والتقفية».

وسألت الأستاذ نعيمه: «ما رأيك بمذهب داروين في أصل الإنسان؟»

فأجاب: «مذهب داروين يبدو معقولاً جداً، وليس هنالك ما يضير القوة المبدعة إذا هي أبدعت هذه الكثرة الهائلة من الأجناس من مادة أولية بسيطة ثم جعلتها تتركب وتتعقد لتبلغ بها مرتبة الإنسان الذي هو أعجب كائن على الأرض».

(مجلة الرحمة، بيروت أيلول ١٩٦٧)

أعطني حياة لا ألم فيها
وأهلاً بالموت

نريد منك كلاماً لملحق الأنوار؟

تريد مني حديثاً «لملحق الأنوار» وأنت عزيز عليّ، وصاحب «الأنوار» عزيز عليّ فأين المفرّ.

وتريدني أن أتحدث إليك في أي موضوع أشاء. ولعلك ستعجب إذا قلت لك إن الموضوع الذي يخطر في بالي الآن هو موضوع الألم. فالألم يبدو لي وكأنه الحقيقة التي لا مفر من مواجهتها لأي حي، ولو في فترات قصيرة من حياته. وفي وجه هذه الحقيقة، تبدو جميع نشاطات الإنسان تافهة وحقيرة، فإنها ليست أكثر من مخدرات يلجأ إليها الإنسان لينسى آلامه.

فنحن عندما يغزو الألم لحومنا وعظامنا ونفوسنا وقلوبنا، ننسى تماماً كل ساعة من اللذة تمتّعنا بها فيما مضى من أيامنا. ولا يبقى من شاغل إلاّ شاغل التخلص من الألم. وما دام الألم لنا بالمرصاد، دُمنا وكأن جميع ما نعمله تهرّبٌ من مواجهة الألم. فحالنا إذ ذاك هي حال النعامة تطمر رأسها في الرمل لتنسى أن الصياد يتعقبها.

لست أدري إذا كان الجماد يحسّ الألم وكذلك الغازات والأشياء التي ندعوها غير حية. فمن ذا يستطيع أن يعرف ما تحسّه الذريرات التي يتكون منها

الصخر إذا أنت فجرته بالبارود والديناميت ففرقت شمل تلك الذريرات وبعثرتها في كل ناحية.

وهكذا قل في الحطبة التي تضرم فيها النار فتبعثر الذرات التي تتكون منها في كل جانب.

فليس من المستبعد أن تحس تلك الذريرات ألم التشتيت والابتعاد عن اخواتها. أما إذا انتقلت إلى عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الإنسان فليس من الصعب عليك أن تدرك الآلام التي تتعرض لها هذه جميعها عندما تحولها قدرة غير قدرتها من حال أَلِفَتها وارتاحت إليها إلى حال لا تعرف ماذا يكون شأنها منها.

لقد أَلِف الإنسان الألَم حتى غدا وكأنه بعض منه. وحريّ بالإنسان الذي يكره الألم أن يعرف أن حياته لا قيمة لها على الاطلاق إذا كان سيبقى رفيقه إلى الأبد. وحريٌّ بالإنسان أن يجند كل قواه الهائلة لمحاربته، فهو عدوه الأكبر والألدّ.

فالألم كما تعرف أصناف وأصناف. فمنه ما يفتُك بالجلد واللحم والعظم، ومنه ما يفتك بالقلب والفكر والروح، وهو الألم الأفظع. ثم إن هنالك آلاماً تأتي الإنسان من قدرة غير قدرته، فلا حيلة له معها إلا الصبر وهناك آلام يجلبها الإنسان لنفسه، وهذه هي التي يجمل بالإنسان أن يتوقف هنيهة ليتدبر أمرها ويتخلص من وطأتها.

ما نفعنا من الوصول إلى القمر أو إلى الزهرة أو إلى المريخ وغيرها من الكواكب ما دمنا لم نحسن بعد استثمار الأرض والعيش على الأرض، وما دمنا سنحمل معنا إلى الكواكب الجديدة التي نطأها جميع الهموم والأكدار والأوجاع التي تعبث بحياتنا على الأرض؟ كيف نتطلع إلى الفضاء الأوسع وقد ضيّقنا على أنفسنا فضاء هذه الأرض الصغيرة؟

هل إن الخلاص من الألم شيء وارد بالنسبة لك؟

كيف نرجو الخلاص من الألم ونحن في كل يوم نستنبط الآلات التي لا عمل لها إلّا إغراق الناس في الآلام؟ كيف نزهو بفنوننا وعلومنا وقومياتنا واقتصادياتنا وأي نظام آخر من نظمنا البشرية، وهذه لم تخفف عنا حتى اليوم، ذرة من أوجاعنا؟

ها هي المستشفيات في الأرض تعجّ بالمصابين من كل نوع حتى لتبدو الأرض كلها وكأنها مستشفى واحد هائل!.. والذي يجري في فيتنام أو في اليمن أو في الكونغو أو في الشرق الأوسط، ليس سوى وَشَل من بحر البشاعات التي تضجّ منها هذه الأرض؟.. إنه ليسهل عليك أن تقرأ في الصحف بيانات المتحاربين، كأن يقول الواحد: إننا قتلنا كذا وكذا وجرحنا كيت وكيت من الأعداء. ويقول الآخر عكس ذلك أو أفظع من ذلك. وأنت تقرأ الخبر تمرّ به مرور الكرام، ثم تنصرف إلى عمل ساعتك ويومك. أما الآلام المبرّحة التي تعرّض لها الذين ماتوا والذين جُرحوا، فلا يخطر في بالك أن تقف عندها وتتحسسها في أعمق أعماقك.

كذلك تقرأ أن سقراط جرع السم بإرادته ومات شهيد عقيدته. ولكنك لا تحاول أن تصور لنفسك كيف مشى السم في شرايين سقراط وكيف راح جسمه الجبار يتلوّى من الوجع قبل أن توقّف قلبه عن النبض؟!

إن عالماً يرتكب مثل هذه الفظائع ثم يفخر بها لعالمٌ أحوج إلى «البيمارستان» منه إلى نظم الشعر والموسيقى والرقص والرسم والنحت، والعلم بجميع أنواعه.

والذي يزيد في هول هذا الواقع البشري هو أن الناس منصرفون عنه إلى تُرّهات تبدو لي وكأنها المساحيق التجميلية تذرّها على وجه إنسان يرعى السرطان في أمعائه أو في كبده أو في دماغه.

خلاصة القول إن الإنسان إذا لم يتخلص من الألم فحياته سخرية في

سخرية وضياع في ضياع. ولن تجديه فتيلاً جميع هذه التجارب التي يجريها على حياته المادية والمعنوية، فيستبدل نظماً بنظم وأوضاعاً بأوضاع ويبقى حيث هو، ولو أنه وعى رسالته في الأرض لجنّد جميع قواه الهائلة لمحاربة الألم قبل كل شيء. وإذ ذاك لعله يدرك أن الخلاص من الألم لا يأتي عن طريق بذر آلام جديدة يلقيها في كل ساعة في تربة حياته اليومية. ولعله إذ ذاك يعدّل في سلوكه تجاه إخوانه الناس وتجاه باقي المخلوقات.

في مدينة شيكاغو في الولايات المتحدة مسلخ يُعدّ من مفاخر تلك المدينة، بل من مفاخر الولايات المتحدة كلها. وهذا المسلخ يدخله الثور الحيّ من باب ليخرج بعد ساعات من باب آخر وقد أصبح لحماً معلباً يسوّق في جميع أقطار الأرض. ولا يخطر في بال الذين يأكلون هذه المعلبات أنهم يأكلون معها آلاماً لا يتصورها العقل. وتراهم مع ذلك غافلين عن أن الذي يتغذى بالألم لا بد أن يتغذى الألم به.

هذا مثل من آلاف الأمثال التي تتكرر كل يوم في الأرض.

يعيش الناس بالألم ويحاولون أن يتهربوا من الألم. يعيشون بالموت ويكرهون الموت. وتلك لعمري هي الأُحجية الكبرى. فما قولك بالإنسان يتلمّظ لشقاء أخيه الإنسان، يحسب أنه سيهضم ذلك الشقاء ويحوله في جسمه إلى سعادة؟ ثم ما قولك بالذين يقتلون الناس دون أن يريقوا قطرة من دمائهم؟! أولئك هم المستبدون والمتغطرسون والمستثمرون في الأرض، الذين لا يطيب لهم شيء، مثلما يطيب لهم أن يشبعوا بجوع غيرهم، ويتمجدوا بذلّ إخوانهم، ويمشوا على أشلاء أعدائهم. ثم يأملون أن يجنوا من كل ذلك سعادة لا يشوبها أي كدر أو أي ألم.

ذلك لعمري هو الجنون بعينه. وإن تسألني كيف السبيل إلى الخلاص من الألم، أجبْك بأنه في تربية الإنسان تربية جديدة، وفي خلقه خلقاً جديداً من الداخل لا من الخارج.

إن عمر الإنسان على الأرض لا يعد بآلاف السنين بل بالملايين. وهو قد جرب، حتى اليوم، كل أصناف النظم البشرية فلم يهتد بعد إلى نظام واحد يريحه من الألم. أما هذه التربية التي أحدثك عنها فلم يجربها بعد.

لم يجرب الإنسان أن يخلق نفسه من الداخل لا من الخارج. فلعله إذا هو فعل ذلك، عرف أن حياته تقوم لا بجهده وحده بل بجهد الكون على بكرة أبيه. وإذ ذاك، فعليه أن يصادق جميع القوى التي تقوم بها حياته، دون أن يعادي أياً منها. فهو لولاها لما كان. . وعليه أن يفهم أن حياته إذا عزّت عليه، فحياة كل مخلوق كذلك هي عزيزة عليه. وعليه أن يفهم أنه إذا أحب نفسه، فنفسه هذه لا تنحصر في جسمه وحياته، بل تمتد إلى كل منظور وغير منظور في الكون. وإذ ذاك فمحبته لنفسه يجب أن تمتد كذلك إلى كل منظور وغير منظور في الكون. ومتى وعى الإنسان أن نفسه شاملة إلى ذلك الحد بات في مستطاعه أن يتحاشى الأذيّة لأي مخلوق إذا هو شاء أن لا تأتيه أذية من أي مخلوق.

ذلك هو النهج الذي يحسن بالإنسان أن ينهجه في حياته. وكل نهج سواه سيؤدي به حتماً إلى بحور من الدمع والدم، وآلام لا حصر لأنواعها وأشكالها وأوجاعها.

ستسألني: وما قولك بالموت؟ وجوابي هو أن الموت إذا جاء بدون ألم فأهلاً به، لأنني لا أستطيع أن أصوّر لنفسي عالماً لا موت فيه، عالماً ينمو باستمرار. فما قولك برجل ينمو طولاً وعرضاً باستمرار وإلى ما لا نهاية، أين يصبح بعد ألف سنة؟! وهل يبقى لغيره مجال معه؟ وإذا عاش وحده فما قيمة حياته؟ كذلك قل في النبات والحيوان. وعندئذ تعلم علم اليقين أن الموت حكمة لا قصاص وأن الأرض محطة يمرّ بها آلاف الناس من غير أن يختنقوا لينطلقوا إلى ما هو أبعد منها. أجل، أعطني حياة لا ألم فيها وألف أهلاً وسهلاً بالموت.

إنه امتداد لهذا العالم وليس عالماً آخر. لأن الكون وحدة متماسكة وليس

من يعرف لها بداية أو نهاية. وذلك يعني أن كل ما فيها لا بداية له ولا نهاية.

هل ترى أن باستطاعة العلم أن يجعل العالم بدون ألم؟

ليس العلم بقادر في نظري أن يبلغ بنا عالماً خالياً من الألم. فالآلام، كما ذكرت، بعضها نعانيه في الجسد وبعضها نعانيه في الروح. فإذا سلّمنا أن العلم سيستطيع أن يمحو جميع آلامنا الجسدانية، فكيف له أن يمحو آلامنا الروحية؟ كيف للعلم أن يعزّي عشيقاً خانته عشيقته؟ أو أماً مات وحيدها على ثديها؟ إلاّ إذا أنت اتجهت إلى علوم باطنية لا يقرها العلم الحديث.

ألا تعتقد أن عالماً بدون ألم تنتفي منه مطامح الإنسان وجهاده المستمر لبلوغ الطمأنينة الكاملة؟

هذا السؤال يقودني إلى الكلام عن معنى الألم. فالألم نوعان: نوع إذا استفاد منه المتألم كان له بمثابة المصهر أو المطهر، أي أنه استطاع أن يتنقى من شوائب جلبت له ذلك الألم. وهذا الألم ذو قيمة كبيرة في حياة الإنسان. أما الألم الذي لا يستفيد منه المتألم إلا الوجع والمغص فهو ألم كافر. إنه جهنم التي تتحدث عنها أديان كثيرة.

وإذا كان للألم المطهّر أن يبلغ بنا حياة لا ألم فيها، فلا خوف علينا إذ ذاك من الجمود الذي تتحدث عنه. ولسنا بقادرين في وضعنا الحاضر أن نتخيل كينونة لا دوافع فيها إلى الصعود، إذ ليس ما هو أعلى منها، ولا إلى الامتداد، إذ ليس ما هو أوسع منها، ولا إلى البقاء، إذ ليس ما هو أبقى منها.

تلك الكينونة هي فوق مداركنا وأبعد من مدى حياتنا.

أخيراً، هل تعتقد، ولو بالرؤيا، أن الإنسان لا بد واصل إلى العيش في عالم بدون ألم؟

إني أقيس طاقة الإنسان بأشواقه، فما دام الإنسان يشتاق معرفة كل شيء، فهو في اعتقادي حاصل عليها يوماً ما. وما دام يشتاق حياة بغير ألم، فهو واصل

إليها يوماً ما. أما متى يكون ذلك اليوم، فليس من شأني تحديده!!

وعندي أن ميدان الإنسان لبلوغ ذلك الهدف هو الزمان كله. وإذن، فالقضية هي قضية وقت، وليس من الضروري ولا من الممكن أن يبلغ الناس كلهم ذلك الهدف دفعة واحدة وفي يوم واحد. إذ إنهم ما تساووا يوماً في مداركهم وفي درجات نموهم. ولكنهم جميعاً قابلون للانفتاح على العالم الأكبر الذي يضيع في رحابه العقل والخيال.

(ملحق الأنوار، بيروت ٢٦ ـ ١١ ـ ١٩٦٧)

الأمية في البلاد العربية

كان لي لقاء مع الأديب العربي الكبير ميخائيل نعيمه، وكان الغرض من هذا اللقاء الحصول على مقابلة أدبية، لمجلة (البيان).

كان التيار الكهربائي مقطوعاً في ذلك اليوم، فقال لي: أخشى أن لا تستطيع أن تكتب شيئاً، فقلت: إنني لا أتوق إلى الكتابة بقدر تشوقي إلى سماع ما تقول.

قال: إنني أفضل الحديث العفوي لأنه أجدى وأشمل. قلت: كما تشاء.

كنت في الحقيقة بحاجة إلى هذا الحديث العفوي لأنه سيعرّفني بشخصية ميخائيل نعيمه أكثر مما لو حصرت الحديث بإجابة على أسئلة أعددتها مسبقاً. لقد تحدث عن الأدب، عن الحياة، وعن الشرق.. وكل ما قاله في ذلك يزخر بالواقعية والصراحة. وتحدث عن الله، عن الكون، عن الإنسان، وعن الخلاص. وكل ما قاله في ذلك يزخر بالفكر العميق والتوافق بين هذه العناصر الأربعة. وقد فهمت من الفيلسوف ميخائيل نعيمه ـ إن كان فهمي له صحيحاً ـ أنه يؤمن بأن الكون منظم وأن الإنسان باستطاعته أن يصبح إلّهاً بما يمتلك من مقدرات في الوقت نفسه الذي يؤمن فيه بإلّه واحد.. وفي هذه اللحظة أضيئت

الغرفة، حينما عاد التيار الكهربائي، فقال لي:

باستطاعتك الآن أن تكتب.

قلت: بودّي لو تستمر في هذا الحديث العفوي... ولكني سأكتب.

سألته:

يبدو أنك الأديب المهجري الوحيد الذي تثقف في روسيا واطلع بعمق على الأدب الروسي، فهل تعتقد أن في ذلك ما جعلك تلعب دوراً مميزاً بين أقرانك من أدباء المهجر؟

قال:

اعترفت أكثر من مرة بفضل الكتاب الروس عليّ، وبخاصة أولئك العمالقة الذين نبغوا في القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر. وأذكر منهم على سبيل المثال: غوغول وتورغينيف ودوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف وغوركي من كتّاب القصة، وبوشكين وليرمونتوف ونكراسوف من الشعراء، واستروفسكي من كتاب المسرحية، وبيليسنكي من النقاد. فمن هؤلاء تعلمت قيمة الأدب الواقعي، وقيمة التلاحم بين الأدب والحياة. ذلك التلاحم الذي لم يكن له أيّ أثر في الأدب العربي على مدى عصور الانحطاط التي امتدت أكثر من خمسمائة سنة. وما كتاباتي الأولى: «كالغربال»، و«الآباء والبنون»، و«كان ما كان» و«همس الجفون»، إلا محاولات مني لقلب المفاهيم الأدبية القديمة في العالم العربي، وإقامة مفاهيم جديدة مكانها تبعث في الأدب الحياة، وترد للكلمة قيمتها وقدسيتها.. فلا تكون فيما بعد للبهرجة، بل تكون عاملاً قوياً وفعّالاً في بناء الحياة العربية والإنسان العربي بناءً جديداً، وفي وصل ما انقطع بيننا وبين الحضارة الحديثة من روابط.

قلت: في كتاباتك الأخيرة إغراق في الفلسفة الصوفية، أفلا تعتبرون أن ميخائيل نعيمه المفكر في هذه المؤلفات قد بدأ يحيا على حساب ميخائيل نعيمه الفنان؟

قال: ميخائيل نعيمه كيان موحد لا تستطيع أن تميز فيه بين الفنان والمفكر. والفنان والمفكر فيّ يعيشان في عالم واحد، ولا يشعران بأي فارق قطّ بين هذا العالم وذاك. وهذا يعني أنني إذا ابتعدت في تفكيري عما يدعوه الناس واقعاً فلست أعمل ذلك على حساب الفنان الذي يتعبد للجمال في كل شيء. فالفكرة الجميلة هي في ذاتها فن، فكيف بك إذا عبّرت عنها بطريقة جميلة؟ وما أظنني أبداً إذا أنا توغلت في تفكيري إلى أبعد من الواقع المألوف أنني أفعل ذلك على حساب الفنان الذي يعرف ما في الكلمة من شكل وألوان وأنغام، ويعرف كيف يزاوج بين هذا كله.

قلت: يمثل كتاب «الأرقش» فلسفة المعاناة التي عشتموها في نيويورك، وهي مدينة تمثل قمة العالم المحسوس فهل لكم أن توضحوا لنا تلك المعاناة وجذورها؟

فأجاب: المعاناة التي مرّ بها الأرقش هي عين المعاناة التي يمر بها كل إنسان يبلغ من الحياة مرحلة تغدو عندها جميع مظاهر المدنية وكأنّها المساحيق الخداعة وقد طلّيْتَ بها وجه إنسان يعاني غمرات الموت. فالقيَم التي يفتش عنها الأرقش هي غير القيم التي يعيش بها ولها مجموع الناس حواليه. لذلك تراه يحيا وكأنه أرقشان ـ أرقش في هذا العالم، وأرقش في عالم آخر لا تخدعه الظواهر. ويغريه كل الإغراء أن يبلغ من الأمور بواطنها. ولكي أسهّل عليه العيش في عالميه، جعلته يفقد ذاكرته من بعد تجربة أليمة مر بها في حياته. فكأنه إذا فقد ذاكرته فقد صلته بالعالم المحسوس الذي يعيش فيه، فانصرف بكليته إلى العالم الباطني الذي هو عالمه الحقيقي. وهذا الانقسام في ذاتية الأرقش هو الانقسام الذي يعاني منه كل مفكر لا يقنع من الأمور بسطوحها بل يغوص إلى أعماقها حيث تبدو السطوح رغوة لا أكثر.

ثم قلت: في كتاب «الغربال»، وفي محور الأدب بالذات ورد قولكم: «إذن فالأدب الذي هو أدب ليس إلاّ رسولاً بين نفس الكاتب ونفس سواه.

والأديب الذي يستحق أن يدعى أديباً هو من يزوّد رسوله من قلبه ولبّه». فهلا زالت هذه نظريتكم في الأدب، أم أدخلتم عليها بعض التعديلات؟

فقال: النظرة التي أبديتها في المقال الذي ذكرت - وأعني المقال الذي عنوانه «محور الأدب» - لا تزال نظرتي حتى اليوم. وما المؤلفات التي وضعتها منذ ذلك اليوم وحتى الآن سوى توسيع لها وتفسير.

وسألت أديبنا الكبير:

ما رأيكم في نظرية الفن للفن؟

فأجاب: هذه نظرية رفضتها من زمان فلا قيمة عندي لأي عمل يقوم به الإنسان، إلا على قدر ما يُدنيه ذلك العمل من هدفه في حياته. وهدف الإنسان في حياته هو أن يعرف نفسه وجميع ما انطوت عليه من قوى هائلة لو هو أحسن استثمارها لاستطاع أن يعرف النظام الذي يسيّره ويسيّر الكون. ولبلغ بتلك المعرفة أقصى ما يتمناه من الحرية والسلام والطمأنينة، فبات يتحكم في كل شيء ولا يتحكم فيه أيّ شيء، أيْ أنه سيد نفسه المطلق.

قلت أخيراً:

يبدو أن الأدب العربي ما زال في فترة التقوقع والركود، فهو مجهول عند أهل الغرب، كما هو غير معلوم حق العلم عند الغالبية من أهل العربية. فإلى أي شيء تعزون ذلك؟ وأين يقف الأدب العربي من الأدب العالمي هذه الأيام؟

قال ميخائيل نعيمه:

إن ما حققه الأدب العربي منذ فجر النهضة حتى اليوم لجدير بكل تقدير. فحتى الأمس القريب كان الأديب العربي إذا وضع كتاباً لم يجد من ينشره. وإذا وجد من ينشره لم يجد من يقرأه. أما اليوم فدور النشر في البلاد العربية تتكاثر تكاثر الفطر في الغابة. والقراء في ازدياد مستمر. إلاّ أن عددهم بالنسبة لعدد سكان العالم العربي لا يزال ضئيلاً جداً. وهذا يعود لأسباب كثيرة منها: انتشار الأمية في البلاد العربية، والأمية عندي أكثر من جهل القراءة والكتابة. . . إنها

تعني فقدان الرغبة في الثقافة. والثقافة عندنا مفقودة حتى بين الطبقة الحاكمة. فهذه قلّما تجد بينها من يكترث للمطالعة في لغته أو في لغات أجنبية. كذلك ترى أن المدارس عندنا قلّما تشجع الطلاب على المطالعة. وعالم، حكامه لا يطالعون، وطلابه لا يطالعون، كيف ترجو للكتاب فيه أن يتعزز وينتشر؟ على أننا برغم هذه العوائق بدأنا نرى الكتاب العربي يشقّ طريقه إلى فئات كبيرة من الأجيال الصاعدة. وذلك مما يعزز الأمل في أن يبلغ الكتاب عندنا يوماً ما مثل المستوى الذي بلغه في الغرب. فالإنتاج في ازدياد وفي تحسن مستمر، والقراء في ازدياد، وعدد الكتّاب والقراء كذلك في ازدياد. وقد تنبه الغرب مؤخراً للأدب العربي الحديث، وأخذ ينقل عنه الكثير، ويكتب حوله الدراسات. والجميل والقيّم في أدبنا، إذا هو تحجب عن الغرب زماناً فلن يتحجب إلى الأبد.. إذا لا يمكن للجميل والصالح أينما كان إلاّ أن يشق في النهاية طريقه إلى الذين يحبون الجميل والصالح أينما كانوا.

(مجلة البيان، الكويت آيار ١٩٦٨)

الاستقلال الذي يدعونه

في الكتاب الذي وضعته عن حياة جبران مجموعة كتب وحياة إنسان تنبض فيها حياة جميع الناس. وهو النبع الذي غرف منه معظم الذين كتبوا عن جبران، ولكنني استغربت لماذا لم تضع فيه شيئاً عن العلاقة الروحية التي ربطت جبران بـ «مي»، مع أنها من أجمل العلاقات في حياة جبران؟

لأن مي كانت لا تزال على قيد الحياة. واعتبرتُ العلاقة علاقة مقدسة بين قلبين لا حق لي أن أتدخل فيها وأذيعها على العالم العربي. وعندما عدت إلى لبنان بعد وفاة جبران عرفت أن مي مرت بحالات نفسانية عصبية فما كانت تطيق أن يكلمها أحد عما كان بينها وبين جبران. لذلك لم أحاول أن أقحم نفسي عليها وأستفسرها المزيد عن تلك العلاقة.

في كتاب «سبعون» وفي حكاية «لقاء» وفي بعض قصائد «همس الجفون» استنتجت أن الشهوة الجسدية ضرب من الضعف البشري يتحرر منه الإنسان عندما يسمو إلى أعلى درجات الرقي الروحي. فهل استنتاجي صحيح أم فيه التباس؟

استنتاجك صحيح. ولقد عقدت فصلاً في كتابي «مرداد» عن الزواج وعن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة قلت فيه إن ازدواجية الحياة ليست سوى

مرحلة يتحتم علينا قطعها لنعود إلى الأحدية التي هي أساس الكون ومحوره. وقلت إن بلوغ تلك الأحدية لا يتسنى إلا للذين أدركوا معنى الأحدية فبات شغلهم الشاغل أن يتخلصوا من الثنائية في كل مظاهرها ليعودوا إلى الأحدية حيث الحياة لا ذكر ولا أنثى بل وحدة شاملة تتسامى عن التفرقة والتجزئة. وهذا كلام موجَه بالطبع إلى القلة التي عرفتْ هدفها من وجودها لا إلى الكثرة الهائلة التي لا تحسّ من الحياة غير مظاهرها الخارجية. ولا بأس لو أنا أوردتُ هنا ما يقوله «مرداد» في هذا الصدد:

«إني أبشر بالإنسان المتغلب ـ الإنسان الموحَّد والمالك نفسه. أما الرجل المستأسَر لحب امرأة، والمرأة المستأسرة لحب رجل، فكلاهما ليس أهلاً لتاج الحرية النفيس. إني أبشر بالإنسان المتغلب، الإنسان المنعتق إلى حد ألا يكون ذكراً والمتسامي إلى حد ألا يكون أنثى. فمثلما الذكر والأنثى واحد في أسفل درجات الحياة وأكثفها، كذلك هما واحد في أسمى أجواء الحياة وأصفاها. . .

«ليست الثنائية إلا مرحلة في الزمان تبتدىء في الأحدية وتنتهي إليها. فمن أسرع في اجتيازها أسرع في الاتصال بحريته. . .

«دعوا غير التواقين يجددون النسل. أمّا التواقون فعليهم أن يخلقوا نسلاً آخر ـ نسل المتغلبين الذي لا ينحدر من الظهر والرحم بل يصعد من القلوب المتبتلة التي تقود دماءها إرادة التغلب».

كثيرون هم الذين تحدثوا أو كتبوا عن يسوع المسيح فما هو تحليلك أنت لشخصية يسوع؟

في كل ما قاله وفعله يسوع حسبما هو مروي في الأناجيل الأربعة تبرز نقطة واحدة فتبدو وكأنها المحور الذي تدور عليه كرازته وحياته. وتلك النقطة هي الاعتراف الضمني والعلني بقوة واحدة تسيطر على كل منظور وغير منظور في الكون منذ أن كان الكون. وهذا الاعتراف يعني بالفعل التنازل عن الأنانية

الفردية وتذويبها في ذات الله التي لا وجود إلا لها. ورسالة المسيح، على سموها وجلالها، تبقى ناقصة لولا ختامها البديع على الصليب عندما فاه المسيح بقوله: «لقد تم. أبتاه في يديك أستودع روحي».

من خلال تجاربك الشاملة من هم أهم المفكرين والفلاسفة الذين أعجبت بآثارهم؟

هناك مفكرون يعترف بهم عالمنا وفلاسفته وتدرس فلسفاتهم في الجامعات وأحب هؤلاء إليّ هو أفلاطون ومعلمه سقراط. أما المعلمون الذين لا يُدرّسون في الجامعات فبينهم رجال وجدت تقارباً وثيقاً جداً بين أرواحهم وروحي. من هؤلاء هرمس وبوذا ولاوتسو ومؤلفو «الأوبانيشاد» بما فيها تلك الجوهرة النادرة المعروفة باسم «بهاغفادغيتا». هؤلاء في نظري قد بلغوا أبعاداً لم تبلغها الفلسفة التقليدية. وأحب أن أضيف إليهم «ابن عربي» و «الحلاج».

كتبت قصائد «همس الجفون» في مرحلة من عمرك ومن بعدها لم تعد تكتب شعراً. يا ترى هل للشعر عمر معين يزول الحنين إليه بزوال تلك المرحلة من العمر؟

استهواني الشعر في أول نشأتي الأدبية فكتبته بالروسية ثم بالعربية ثم بالانكليزية. ولكني طلقته من بعد أن اتسعت آفاق تفكيري إلى حد يضيق معها الشعر. فانصرفت عنه إلى النثر الذي يتسع لكل أصناف انفعالاتي الجسدانية والروحية وتستطيع فيه أن تتبسط وأن تعلل وتحلّل وأن تخاطب الناس في شتّى مستوياتهم، ولو شئت أن أكون صادقاً معك ومع نفسي لقلت إن النثر كذلك يضيق بمتطلبات النفس البشرية عندما تطمح إلى الخروج من المحدود إلى اللامحدود ومن النسبي إلى المطلق.

في عنوان كتابك الجديد «يا ابن آدم» الذي سيظهر قريباً شيء يشبه الزجر والردع كأنك تصرخ بالإنسان المندفع نحو هاوية لا يبصرها. فهل من الممكن أن تعطينا لمحة عن مضمونه؟

إذا كان ذلك ما أوحاه لك عنوان كتابي الجديد فمعناه أني قد أحسنت الاختيار. إذ إن الكتاب هو في الواقع صرخة أُطلقها ضد انجراف الناس بالمدنية الحديثة ومنجزاتها التي تبدو وكأنها معجزات، في حين أني أرى فيها شباكاً عَلِقَ فيها الناس، فباتوا يتخبطون ويطلبون النجاة ولكنهم لا يجدونها. وعندي أنهم ما لم يعكسوا سيرهم سيجدون أنفسهم على شفير هاوية إذا وقعوا فيها عزّ خلاصهم منها. والذي يبدو لي هو أننا اليوم أحوج ما نكون إلى قلوب مفتوحة أكثر منا إلى عيون مفتوحة. فما أكثر ما تجري بنا العين المفتوحة إلى الهاوية. أما القلب المفتوح فسبيله الإيمان الحي والضمير الحي والمحبة التي تشمل جميع ما في الكون. فمن شأن هذه وحدها أن تجعلنا نعي أنفسنا والكون في وحدة شاملة لا تتجزأ ولا تنقاد إلى مقاييسنا البشرية الصبيانية.

تصلك رسائل إعجاب عدة من جميع أنحاء العالم فما هي الانفعالات التي تستولي عليك حين قراءتها؟

لا قيمة لرسائل الإعجاب عندي إلا على قدر ما تجعلني أطمئن إلى أنني لا أنفخ في رماد ولا أصرخ في واد.

الخيال هو المصدر الأكبر لكل فكرة قبل أن ينبت لها أجنحة للتحليق. فما هي الصورة التي يرسمها خيالك لمصير الإنسان بعد الموت؟

الموت ظاهرة تسري على كل ما ينمو وكل ما هو مركّب. فالذي ينمو لا بد له من الانحلال، والمركب لا بد من أن يعود إلى الجواهر الذي تركب منه. الحياة وحدها لم تولد فلا يمكن أن تموت. والحياة وحدها غير مركبة فلا يمكن أن تنحلّ. وها هي كائنة منذ الأزل وباقية إلى الأبد. أما مظاهرها الخارجية فمتغيرة أبداً. ولأنني أعتقد أن جوهر الإنسان هو في الحياة التي تحركه وتدفعه أبداً أبعد فأبعد، فالموت في نظري، لا يمكن أن يكون نهاية لتلك الحياة. أما كيف نكون بعد الموت فأمر لا يهمني ما دمت أعتقد أن الحياة التي تسيّرني ما ماتت ولن تموت.

كما تعلمون تقع ذكرى استقلال لبنان في هذه الأيام فهل لكم كلمة توجّهونها بهذه المناسبة إلى اللبنانيين؟

ليتني كنت أرى الاستقلال كما يراه الناس. فهو، في نظرهم، تخلص من حكم الأجنبي والاستعاضة عنه بحكم وطني. لكنني عندما أنظر إلى الأرض وشعوبها لا أستطيع أن أبصر شعباً واحداً مستقلاً. ففي عالم تداخل بعضه في بعض تداخُل الخيوط في النسيج لا يمكن لأي خيط في ذلك النسيج أن يستقل عن باقي الخيوط.

فما دامت الشعوب تتفاعل بعضها مع بعض، وما دامت تتأثر بكل ما احتوته الأرض من سائل وجامد ونبات وحيوان، وغيرها من الكواكب، وما دام عالمنا الشمسي مرتبطاً بعوالم أخرى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية، فكيف لي أو لك أو لأي مخلوق أن يدّعي أنه مستقلٌ في تصرفه مع نفسه ومع باقي المخلوقات. ليت الاستقلال كان ما يظنون. أما عندي، فلن يستقل الإنسان إلا عندما يتنازل عن إرادته بملء إرادته للإرادة الكونية التي لا يعاندها معاند.

(جريدة النهضة، بيروت ٢٢ - ١٠ - ١٩٦٨)

القلب المادي

سألته ماذا عنده ليقول لنا اليوم كلمة حول الوضع الحالي؟

ومرت فترة صمت قصيرة، قبل أن يجيب:

يبدو كل حديث تافهاً في عالم غارق حتى فوق آذانه في مشكلات خلقها الناس، وسيمضون في خلقها بدون نهاية، ما داموا يجهلون الغاية التي من أجلها وُجدوا، والنظام الكوني الذي يهيمن على كل ما في الأرض والسماء.

قصدت أن أسألك رأيك حول أحداث الساعة؟

لي رأي لا ينسجم مع أيّ رأي، وهو أن للإنسان نصيباً في كل ما يجتذبه إليه.

فهناك قانون يقضي بأن يحصد الإنسان ما يزرع. ولأننا نزرع في كل لحظة من وجودنا، وننسى ما زرعنا، يستولي علينا الرعب والقلق كلما داهمتنا مصيبة من المصائب. فنمضي نعزو تلك المصيبة إلى أسباب تافهة ومباشرة، ناسين أن أسبابها الحقيقية تعود إلى أبعد من ذاكرتنا بكثير. إذ ليس ما يحدث في الكون إلّا ما هو موصول بكل ما حدث منذ أقدم الأزمان. ولأننا لا نستطيع بما نملكه اليوم من وعي أن نعي كل ما كان، فتاريخنا هو أبداً مبتور، وأقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة. ومن ثم، فنحن مقضيّ علينا أن نعيش في مشكلات

دائمة، ما دمنا نعتقد أن ما يأتينا من وجع يأتينا من غيرنا لا من أنفسنا، وما دمنا نلوم كل ما في الكون إلّا أنفسنا.

ولعل جهلنا النظامَ الكوني هو السبب الأول والأخير لهذه الحالة من القلق والتشويش والتمزق التي تسود اليوم العالم كله، وليس هذا الجزء الصغير منه، والذي ندعوه الشرق الأوسط.

ما هو الحل في نظرك؟ والخلاص على يد من سيكون؟

لم تفتقر الإنسانية على مدى حياتها الطويلة إلى معلمين يرشدونها ويسدّدون خطاها نحو هدفها البعيد. ولكن أصوات هؤلاء المعلمين لا تلبث أن تضيع تماماً في ما تخلقه الشهوات الإنسانية الخسيسة من صخب وضوضاء.

فهناك المعلمون الذين جاؤونا برسالة المحبة والغفران. إلا أننا سرعان ما نبذناها لأنها في اعتقادنا مثالية وغير عملية. وها نحن نعيش حتى اليوم بما نعتقده عملياً، وإذا بنا في حرب ضروس مع أنفسنا ومع الطبيعة، والطمأنينة والسلام والهداية بعيدة عنا كل البعد. وترى الناس مع ذلك، متمسكين بهذه الفلسفة العملية ومنصرفين كل الانصراف عن كل ما هو مثالي، كأنّ هذه الطريقة المثالية وُضعت لكائنات ليست من لحم ودم مثلنا.

ويا ليت الناس حاولوا، ولو لفترة قصيرة من حياتهم، أن يطبقوا المثاليات، لعلّهم كانوا يدركون أنها هي وحدها الطريق إلى الراحة والسلام والطمأنينة، وبالتالي إلى المعرفة التي لا حرية إلا بها ولا حياة إلا بها.

(وهنا قطعت على الأستاذ نعيمه الكلام طفلة صغيرة، أفلتت من بين ذراعي أمها، مي، ابنة شقيقه، وصعدت إلى حضنه وهي تصرخ: جدّو.. جدو.. واحتمت هناك، رافضة أن تعود إلى والدتها...

اسم الطفلة سهى، وهي في عامها الثاني، وتملأ البيت، حسب تعبير جدّو، كما تستأثر بقسط كبير من محبته، وعطفه، ورقّته.

وكانت سهى مصرّة أن تظل في مكانها، وتنهي المقابلة. ولم تكترث لتملق جدها وهو يؤكد لها:

حكياتك أحلى من حكيات جدو... يا ريت فينا نسجلهن.

وسجلت الكاميرا المشهد، كما ساعدت أم سهى على وصل ما انقطع من الحديث حين قادت الطفلة قسراً، خارج القاعة).

أليس أن الناس كلهم محكوم عليهم بالإعدام؟ فما قولك باثنين سيموتان غداً أو بعد غد وهما يعرفان ذلك حق المعرفة، وإذا بهما يتقابلان ويتداميان ويتباغضان في سبيل كرسي أو شبر من حصير أو زر على ثوب؟

ذلك ما يفعله الناس بالتمام في كل يوم من حياتهم. وكان حَرِياً بهم أن يتعاونوا ويتصادقوا لعلهم يجعلون من المشنقة أو من كرسي الإعدام نقطة انطلاق إلى حياة لا يبطش بها الموت وإلى عيش على الأرض لا تكدّره المطامع والشهوات.

في المثل البسيط «ما دام جارك بخير فأنت بخير» ولو أن الناس عرفوا هذه الحقيقة أنّ خير جارهم هو خيرهم لما حاولوا أن يجيعوه ليشبعوا وأن يُذلّوه ليعتزّوا وأن يقتلوه ليحيوا.

ولكن، كيف يمكننا أن نفعل ذلك، ونحن في قلب المعركة؟

ما دامت هذه العقلية مسيطرة لن يعرف الناس أن يعيشوا بسلام. من ثمّ فهناك قانون العقاب والثواب. لو عرف الإنسان أنه مسؤول عن كل قطرة دم يسفكها لتورّع عن سفك الدماء. ولو عرف أن القوة وحدها لا تستطيع أن تقيم حقاً من الحقوق لما لجأ إلى القوة. ولو عرف أن ما يغتصبه الآن سيعود بعد حين فيتنازل عنه رغم أنفه، لما حاول أن يغتصب شيئاً بالقوة.

فالنظام يقضي بأنّ كل ما يصدر عن الإنسان يعود حتماً إليه إنْ خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

ولأن الناس ما يزالون بعيدين عن إدراك هذا النظام تراهم يظنون أن في إمكانهم التحايل عليه. ثم لأن ذاكرتهم قصيرة جداً، فهم يعيشون في اللحظة الحاضرة دون أن يلتفتوا إلى الوراء البعيد أو المستقبل البعيد. لذلك لا يجنون من خبرتهم إلّا الخيبة وإلّا وجعاً فوق وجع.

ولو كان بإمكانهم أن ينظروا إلى الزمان كما لو كان سلسلة موصولة الأسباب والنتائج، لما حاولوا أن يغيّروا مجرى الزمان على هواهم.

فلا الأرض ولا كل ما عليها من بشر وغير بشر إلا نقطة في خضم اللامتناهي. وهي تخضع بكل ما عليها للنظام الكوني، وتتأثّر بكل ما يدور فيه. لذلك كنا جاهلين منتهى الجهل كلّما تخيّلنا أن في إمكاننا تسيير الأرض أو تسيير الحياة البشرية عليها بمعزل عن كل ما يجري في الكون اللامتناهي.

الاكتشافات الفضائية التي جرت وتجري، ماذا يمكن أن تحمل من قيم؟ أو تبدّل في نظام الكون؟

قيمتها الوحيدة هي في ما تحمله للإنسان من خبرة.

في نظري، إننا نسير في اتجاه معكوس للاتجاه الذي يجب أن نسير فيه، بمعنى أننا نهتم منتهى الاهتمام بالعقل الإنساني، وقد بلغنا درجة بعيدة في تنظيمه وتدريبه فكان لنا العلم. ولكن العقل وحده لا يشكّل الإنسان. لأن في الإنسان أشواقاً لا يمكن أن تتحقق عن طريق العلم. وأبعد هذه الأشواق هي معرفة كل شيء والتسلط على كل شيء بحيث لا يبقى الإنسان في قبضة المتناقضات. . وهذه الأشواق لا يمكن تحقيقها عن طريق العقل.

فهناك القلب وهو المترجم الأخير لكل ما ينتجه العقل. فنحن لا نتألم بعقولنا، ولا نفرح بعقولنا، بل نتألم بقلوبنا، ونفرح بقلوبنا، وهذا القلب لا يزال حتى الآن مرتعاً لكل أصناف المتناقضات. ولم نحاول حتى اليوم أن ننظمه وننقيه ونوجّهه الاتجاه الصحيح. نعم، هناك أديان، وأديان كثيرة، وهذه كان

المفروض فيها أن تعمل في القلب وللقلب، فتنقيه من أدرانه، وتوجّهه التوجيه الذي تنسدّ معه جميع الينابيع التي منها تنبع آلامه وأحزانه.

ولكن الأديان أخفقت في مهمتها لأن الذين تسلموا أمورها من بعد مؤسسيها ابتعدوا في الزمان والمكان عن المؤسسين إلى حد بعيد، فباتوا والقلب البشري هو آخر ما يشغلهم. وباتوا يهتمون بمراكزهم وسلطانهم ومشاغلهم الأرضية أكثر بكثير من اهتمامهم بتوعية القلب البشري وتنقية وتوسيع آفاقه إلى حد أن يغدو الإنسان أخا الإنسان حقيقة لا مجازاً.

ذلك يذكرنا بالقلب المادي وعمليات النقل التي توصل الطب إلى إجرائها. . فهل يبقى القلب على حاله، برغم انتقاله من جسم إلى جسم؟

القلب الذي هو مادة، هو في الوقت ذاته سجلٌ عجيب لجميع ما اختبره في حياته من فرح ومن حزن وغضب ورضى ومن خوف وطمأنينة إلى آخر ما هنالك من مشاعر بشرية. فإذا نقل من صدر إلى آخر، يستحيل نقل ما سجله في حياته السابقة. لذلك فلا عجب أن يتعب القلب المنقول فلا ينسجم مع الجسم الذي نقل إليه. فليتركوا صاحب القلب المعتلّ يموت مع قلبه، فالعمر ليس بطوله بل بعمقه.

نعود إلى القطاع الأدبي. . ما رأيك بموجة الجنس والاباحية التي تجرف الأدب والفن، خاصة في الغرب؟

هذا هو الانحطاط. الجنس ليس للمتعة. إنه شيء ربانيّ. والقصد منه هو حفظ النسل، وبالأخص النسل الإنساني المعَدّ لتاج الألوهية.

التفسخ الخلقي في العالم كله سيقود إلى كارثة. وهو يتناغم مع التفسخ الفكري، والتفسخ السياسي.

ما رأيك بالأدب الروسي الحديث؟ وكيف يقارن بما أعطاه الأدباء الروس سابقاً؟

مطالعاتي في المدة الأخيرة قليلة. بصري تعب. ورأيي في الأدب إجمالاً إن لم يكن دليلاً للإنسان في طريقه لتحقيق أشواقه العظمى فهو للتسلية لا أكثر، ولا خير منه في المدى الطويل.

والكلمة التي تزيد الإنسان عقبة فوق عقبة هي كلمة مزيفة، وإن لبست أجمل الحلى.

ونحن اليوم أحوج منا في أي يوم إلى الكلمة النيّرة، الكلمة الصادقة، الكلمة التي تردّ إلى الإنسان إيمانه بنفسه، وبأنه يوماً ما سيعود إلى مصدره الإلهي عارفاً انه إلّه، ولا أقل من إلّه.

أي كتبك ترجم حتى الآن إلى لغات أخرى؟

مرداد. وضعته أولاً بالانكليزية ثم ترجمته إلى العربية. وطبع أولاً في لبنان ثم في بومباي، وآخر طبعة صدرت في لندن. ترجم حتى الآن إلى الألمانية، الهولندية، البرتغالية، وإلى اثنتين من لغات الهند الشائعة هناك وهما «الهندي» و «الغوجاراتي».

أعرف من الذين زاروا الهند أن مرداد يعتبر لدى فئة كبيرة هناك كتاب نبوءة.

لقد استُقبل استقبالاً كبيراً. وكتبت عنه الصحف كثيراً.

وهل سافرت إلى الهند؟

سافرت مرة واحدة منذ أربع سنوات بدعوة من مؤتمر عقد هناك للبحث في أمور الدين والمجتمع.

إبّان وجودي في الهند، دعيت لإلقاء عدة محاضرات في بعض الجامعات والأندية. وقبل سفري أقام لي ممثل الجامعة العربية هناك الدكتور كلوفيس مقصود، حفلة عشاء وداعية دعي إليها السيد زاكر حسين الذي أصبح رئيساً للجمهورية وقد توفي في العام الماضي. مثلما دعي نخبة من رجال السياسة

والأدب في تلك البلاد. وقد ألقيت كلمة أوجزت فيها انطباعاتي عن تلك البلاد العظيمة، وبالأخص عن فلسفتها التي هي في اعتقادي أمّ كل الفلسفات.

على ذكر الفلسفة الهندية، إلى ماذا يعود اتجاه الغرب اليوم نحو تلك الفلسفة؟

الاتجاه نحو الفلسفة الهندية في الزمان الأخير هو، إلى حد بعيد، دليل على سأم الناس في الغرب من حياتهم المادية، وتطلعهم إلى حياة يكون فيها للروح نصيب كبير. ولأن الهند كانت في مقدمة البلدان التي عكفت على دراسة الإنسان من الداخل فخلقت له فلسفة روحية متكاملة، بات الكثير من الهنود يستغلّون هذه السلطة الروحية في الغرب، فيذهبون إليه على أنهم المرشدون الذين تفتحت بصائرهم فبات في إمكانهم أن يفتحوا بصائر الغير.

ومن الأكيد أن الكثير من هؤلاء ليسوا في مستوى المسؤولية التي يدّعون مقدرتهم على تحملها. إلا أن ذلك لا يعني أن الهند لم تعطنا في الزمان الأخير معلمين من عيار كبير أمثال «فيفيكاناندا» و «راما كريشنا» و «أوروبندو» وغيرهم.

وهؤلاء لا يزال لهم تباعهم ومريدوهم والسائرون على نهجهم في بلاد الهند. وكثيرون هم الذين يقصدونهم من الغرب لينهلوا شيئاً من فلسفاتهم الروحية التي تساعد، إلى حد بعيد، على تحمل المتاعب الكبيرة التي تسببها للناس مدنيتهم المعقدة.

(مجلة الصياد، بيروت ٣ - ١١ - ١٩٦٩)

لو عاد يسوع

ماذا يوحي لك الميلاد بعد ١٩٦٩ عاماً على ولادة السيد المسيح، وكيف تتخيل ميلاد عالم جديد. . للمستقبل؟

ليت الأعياد من دينية ومدنية كانت ما أرادها الذين خلقوها أن تكون. وأعني تذكيراً بحدث عظيم في حياة البشرية، لعل الناس يتجملون بتلك الذكرى. ولكن الأعياد، ويا للأسف، باتت مناسبات للهرج والمرج والمنافسة في الملبوس والمأكول. أما الغرض منها فقد بات وكأنه مناحة على ما أريد له أن يكون. فقد كان حَرِياً بمولد المسيح أن يجعل المسيحيين في العالم كله يتوقفون هنيهة ليحاسبوا أنفسهم عما كان بينهم وبين المسيح في خلال عام انقضى. فلو أنهم حاسبوا أنفسهم ذلك الحساب لخجلوا من أن ينتسبوا إلى معلم جاء ليفتح قلوبهم على النور فإذا قلوبهم تضج بكل شيء إلا النور، وجاء ليعلمهم المحبة، فإذا بينهم وبين المحبة عداوة ولا كتلك التي بين الهر والفأر، وجاء ليعلمهم الامتثال لمشيئة أبيهم الذي في السماوات، فإذا بهم يمتثلون ألف مرة في اليوم لمشيئة إبليس قبل أن يمتثلوا مرة واحدة لمشيئة أبيهم السماوي.

وإني لأكاد أجزم بأن المسيح ذاته، لو عاد إلى الأرض في يوم ميلاده. ورأى كيف يتصرف الذين ينتمون إليه، لأنكرهم وأنكر يوم ميلاده.

كيف يعيّد لميلاد المسيح الذين يهدرون دماء بريئة في كل يوم؟ والذين لا يسمعون صراخ اليتامى والثكالى ينطلق من كل فج وصوب في الأرض، أولئك لا يعيدون ميلاد المسيح بل يعيدون لشجرة الميلاد، ولا يطيقون أن يردهم المسيح إلى وعيهم، ويؤثرون أن يصرفوا أيامهم ولياليهم وهم سكارى بما تحبل به أيامهم ولياليهم من مشكلات ليس المسيح منها بخلّ أو بخمر.

جميل أن نحتفل بذكرى مولد المسيح مرة في كل عام.

والأجمل من ذلك أن نولد مع المسيح ولادة جديدة في كل يوم. ونحن ما لم نفعل ذلك، كان احتفالنا بعيد المسيح سخرية بنا وغير مشرف لرسالة المسيح.

(ملحق الأنوار، بيروت ميلاد ١٩٦٩)

الثورة الطلابية

مثلت مع ميخائيل نعيمه الدور الذي لعبته «المِطْرَة» مع (نبي أورفليس) في «نبي» جبران. كانت المطرة تسأله باسم شعب مدينتها عن كل شيء فيجيبها بسحر النبوة وبلاغة الخطيب وحكمة الفيلسوف وروحانية الصوفي. وأنا أخذت أنقر على أوتار أشياء حميمة يطيب لنعيمه استحضارها والحديث عنها، فراح يفلسفها بإيجازه البليغ وصراحته الفريدة وعمقه المعهود، وكانت هذه الجلسة المفتوحة الطويلة، بمناسبة دخوله الحادية والثمانين من عمره.

من بسكنتا إلى بسكنتا:

لعلك لا تجهل أنني من الذين يؤمنون بالتقمّص. والتقمص يعني أن الإنسان يموت ثم يعود إلى الأرض كَرّة بعد كرة ليبلغ بالخبرة الشخصية ما يصبو إليه من المعرفة التي تحرره من القيود في جميع أشكالها. وذلك يعني أنه في النهاية يتحرر إلى حدّ أن لا يبقى فاصل بينه وبين القدرة الشاملة التي تعوَّدنا أن ندعوها الله. ولأن هذه المعرفة يستحيل أن يحققها الإنسان في خلال عمر واحد مهما طال فعقيدة التقمص تفرض ذاتها. إذا لولاها لما كان لحياة الإنسان من معنى.

انطلاقاً من هذه العقيدة أستطيع أن أرى حياتي الحاضرة كما لو كانت تكملة لحيوات كثيرة سبقتها. فلا ولادتي في بسكنتا من أبوين بذاتهما كانت مصادفة عمياء، ولا الظروف التي مررتُ بها منذ ولدت وحتى اليوم كانت ظروف اعتباطية تجمعت كيفما اتفق. بل إنها كانت الظروف التي فرضتها حاجتي إلى النمو أبعد فأبعد. وفي ضوء هذه النظرية أرى أن انتقالي من مدرسة ابتدائية في بسكنتا إلى دار المعلمين الروسية في الناصرة، ثم إلى روسيا ذاتها، ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث تخرجت في إحدى جامعاتها، ثم انتقالي إلى نيويورك حيث التقيت جبران وغيره من الأدباء الذين تألفت منهم فيما بعد «الرابطة القلمية»، ثم خدمتي في الجيش الأميركي إبّان الحرب العالمية الأولى، ثم عودتي إلى لبنان عام ١٩٣٢ وما نتج عنها من مؤلفات ـ هذه الأمور كلها ـ تبدو لي وكأنّها موقّعة أدق التوقيع لتأتي في النهاية بنتيجة هي ميخائيل نعيمه كما أعرفه ويعرفه الناس اليوم.

اليسار:

أنا من الذين يكرهون الجمود في أي حقل من حقول النشاط البشري. فنحن نعيش في عالم متحرك أبداً وعلينا أن نتحرك. والذي ندعوه اليوم يميناً كان في الماضي يساراً. والذي ندعوه اليوم يساراً سيغدو بعد حين يميناً. ذلك أن الإنسان يتحرك أبداً بدوافع باطنية لينجو من كل ما يضايقه من مظاهر حياته المادية والروحية. فهو أبداً يصبو إلى التجديد إيماناً منه بأنّ هذا التجديد سيخلّصه من أسباب القلق النفساني والمادي التي يعاني منها اليوم.

فهو لا ينفكّ يبدّل أوضاعاً بأوضاع أملاً منه بأن الأوضاع الجديدة ستدنيه ولو شعرة مما يصبو إليه من عدالة وحرية وطمأنينة وسلام. لذلك تراني في جانب اليسار حينما وُجد وإن كنت أعرف حق المعرفة أن الإنسان لن يبلغ مشتهاه بمجرد تبديل نظام بنظام أو حكم بحكم. فحتى اليوم لم تستطع البشرية أن تخلق الحكم الأمثل. وما أظنها تستطيع ذلك، لأن الحكم في حد ذاته يعني

السيطرة وكبت الحرية. ولأنني أرى في الإنسان أكثر بكثير من لولب في «ماكينة» هائلة ندعوها الدولة، فأنا أوَدّ له أن يتابع محاولاته في تغيير أوضاعه إلى أن يهتدي من تلقاء نفسه إلى الحقيقة الوحيدة التي إذا هو أدركها استطاع أن يحقق ذاته حتى في أوضاع مادية وسياسية واجتماعية متقلبة أبداً. وذلك لن يتسنّى له حتى يدرك أن المعرفة التي تكلمت عنها لن تأتيه من الخارج بل من الداخل. فهو إذا تعمق في درس نفسه أصبح مملكة مستقلة في ذاته وإن هو عاش في عالم لا يستقر على حال.

الدين:

كان من المفروض في الدين أن يهدي الإنسان إلى نفسه وأن ينطلق به إلى حيث لا يساوره أيّ خوف ولا أي قلق. لكن الدين كما يمارسه اليوم الناس أصبح مصدراً للخوف والقلق ومبعثاً للفتنة والنزاع بدلاً من أن يكون ميناء للطمأنينة وهمزة وصل بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والكائنات. وهذا الدين هو الذي خلق فاصلاً بين الإنسان وبين القوة المهيمنة الشاملة التي ندعوها الله. إذْ إنه جعل الإنسان يخلق إلهاً على صورته ومثاله بدلاً من أن يصبو إلى إله هو أبعد بكثير من أن يأخذ شكلاً أو صورة. ألا ترى أن الناس لا يتخاصمون إلا وزجّوا آلهتهم في الخصام؟ ثم ألا تراهم يحتكرون الله كما لو كان سلعة تنتقل من حال إلى حال ومن يد إلى يد؟ فما من دين في الأرض إلا يدّعي أنه الطريق الوحيد إلى الله. ثم ما من دين إلّا يدعي الغيرة على الله إلى حد أن يقيم من نفسه محامياً عنه فيخاصم الذين لا يعبدونه على الشكل الذي يرتئيه. ومن هنا ابتدعوا كلمات كثيرة يتخوّفون ويخوّفون الناس منها كقولهم «كافر» «ملحد» «زنديق» «هالك» كما لو أن الله يمكن أن يقوم بينه وبين الناس خصام فينبذ البعض من خليقته ويحنو على البعض الآخر.

الدين في نظري هو شعور قبل أن يكون عقيدة. فمن شأن العقيدة أن تتحجّر على مرّ الزمان. أما الشعور فمتطور أبداً. وكلما ارتقى الإنسان في سلّم

المعرفة اقترب من القوة المبدعة التي تسيطر على الأكوان بأبعادها اللامتناهية.

الجنس والحب:

الحب الذي لا يفهمه الناس بعدُ والذي أرجو أن يفهموه يوماً ما هو ذلك الحب الذي يربط الإنسان بالكون كله لا بجزء طفيف منه قد ندعوه زوجة أو حبيبة أو وطناً أو أيّ شيء من الأشياء التي يتعلق بها الناس على الأرض.

ولأنّ الإنسان لا يستطيع أن يتذوق الحب إلا من خلال ذاته، وأعني أنه لا يستطيع أن ينطلق إلا من ذاته، فعليه قبل كل شيء أن يعرف أين تبتدىء تلك الذات وأين تنتهي. فهو لو حاول أن يعرف لنفسه بداية أو نهاية لوجد أنه يحاول المستحيل، لأنه منبثق من قوة شاملة وسرمدية. لذلك فكل حب يحصر ذاته في جزء ضئيل من الذات الكونية مقضيّ عليه بالألم والمرارة، لأنه يحاول أن يجزىء ما لا يتجزأ كأنْ يحب ورقة على الشجرة من غير أن يحب الغصن الذي يحمل تلك الورقة، أو الجذع الذي يحمل ذلك الغصن، أو الشجرة التي تحمل الأغصان جميعاً، أو الجذور التي تغذي الشجرة، أو التربة والماء والهواء والسماء التي لولاها لما كانت الشجرة كلها. ،ولأنّ الإنسان يجزّىء نفسه كلما أحب بعضاً منها وكره البعض الآخر فحبه سيكون أبداً وبالاً عليه. وإذا أنت نظرت إلى القضية الجنسية من هذه الزاوية تبين لك كم هي بعيدة عن الحب الأصيل وكم هي رخيصة وتافهة بالنسبة إليه. فالغاية من وجود الذكر والأنثى هي غاية نبيلة جداً والقصد الوحيد منها في الإنسان هو تجديد النسل كيما يتاح للإنسان أن يحقق ذاته على مدى عصور طويلة. لذلك كان استخدام الجنس من قِبَل الإنسان لمجرد اللذة فقط تدنيساً للحب إذ إنه يعوقه في السير إلى هدفه الأبعد وهو التخلص من المتناقضات جميعها، حتى من ازدواجية الذكر والأنثى. وإنه لمن أكبر الخزي للإنسان المُعدّ للألوهة أن يجعل المخادع الزوجية والعلاقات الجنسية على اختلافها بؤراً من الدعارة حتى وإن باركتها التقاليد الدينية والاجتماعية.

الثورة الطلابية:

من بين القصص التي كتبتها قصة بعنوان «رغيف وإبريق ماء» وفيها تصدّيت إلى المدرسة لأبيّن خيرها من شرها. ذلك لأن الناس باتوا يعتقدون أن المدرسة هي خيرٌ صرف، وفي اعتقادي أنّها تُوهِم الناس بأنها ينبوع المعرفة في حين أنها أبعد ما تكون عن المعرفة التي أقصد. فما أكثر المهندسين الذين تقذفهم المدارس في كل عام وما أجمل المباني التي بناها هؤلاء المهندسون. إلا أنني حتى اليوم لم أعرف مهندساً واحداً استطاع أن يبني بيتاً سعيداً. وما أكثر المحامين الذين يطلّون علينا في كل عام بشهاداتهم المدرسية وكأنّهم ما حملوا تلك الشهادات إلا ليخلّصوا الناس من مشاكلهم الحقوقية. والذي أرى هو أن تلك المشاكل تزداد يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وأن الشرائع باتت من التعقيد بحيث لا يستطيع حلها أحذق المحامين. وكذلك هي حالنا مع الأطباء وطلاب اللاهوت ودكاترة الفلسفة وغيرهم وغيرهم من الذين يتخرجون بالألوف في كل عام من المعاهد العالية في شتّى أقطار المعمور. أوَليس من حقك وحقي أن نقف قليلاً لنسأل عن قيمة المدرسة في حياتنا؟ وهذا السؤال يبدو أكثر إلحاحاً إذا أنت تفحصت المناهج التي تسير عليها المدارس في شتى درجاتها فوجدت الكثير منها وكأنّ لا صلة بينه وبين حياة نحياها اليوم. فهو يصرّ على تلقين الطلاب أشياء تمجّها أذواقهم وترهق ذاكرتهم وتقطع الصلة المباشرة بينهم وبين البيئة التي يعيشون فيها. لذلك لا يدهشني أن يقوم الطلاب في كل أقطار الأرض ليطالبوا بأن يكون لهم حق في اختيار ما يدرسون أو لا يدرسون وفي كيف يتوجب عليهم درس الذي يدرسون. أما إلى أين تنتهي هذه الثورة الطلابية وهل سنشهد يوماً ترتفع فيه المدرسة إلى المستوى الذي يتوخاه الطلاب فأمرٌ أشك فيه كل الشك لأن المدرسة المثلى لن تكون لنا حتى يكون لنا الإنسان الأمثل. وذلك ما يزال بعيداً جداً عن الإنسان كما نعرفه اليوم.

قضايا تحرر الشعوب والحرية:

ما من شك في أنه من الظلم أن يحكم شعب شعباً آخر برغم أنفه. وما

من شك كذلك في أن الشعوب التي تحررت من الحكم الأجنبي لم تصل حتى اليوم إلى تلك الحرية التي كانت تصبو إليها. فهي ما إن تخلصت من الحكم الأجنبي حتى جاءها من داخلها حكم أفظع منه. فالاستعمار نوعان: نوع خارجي ونوع داخلي، والداخلي هو الأشدّ شراسة والأثقل ظلاً والأسوأ مغبّة. وهذه المشكلة ـ مشكلة الحكم ـ لن تجد لها حلاً إلى أن يصبح الإنسان من المعرفة بحيث يستطيع أن يحكم ذاته وإن كان فوقه ألف سلطان وسلطان.

الالتزام:

الالتزام تفرضه على ذاتك شيء ضروري جداً أما أن يفرضه الغير عليك فشيء قبيح جداً ومضر جداً.

وهذا الكلام ينطبق على الأدب وغيره من حقول النشاطات البشرية. فما دام الالتزام في أي شيء يُفرض عليك من الخارج وقسر إرادتك فأنت ستحاربه من غير شك بكل ما تملك من طاقة، سواء كان ذلك عن وعي منك أو عن غير وعي. والالتزام الذي يفرض فرضاً هو المسؤول عن جميع ما نشهده من هزات في الأرض.

الموت:

إننا نعيش في دنيا من المتناقضات. فما من شيء في حياتنا إلاّ وله نقيض. ولا حاجة إلى حشد الأمثلة كقولك الأبيض والأسود، والحلو والمر، والكبير والصغير، وما إليها فهي أكثر من أن تحصى. وفي اعتقاد الناس أن للحياة نقيضاً هو الموت. وذلك هو الخطأ الذي منه رهبة الموت وخوف الإنسان الدائم منه. في حين أن الموت ليس نقيض الحياة بل هو نقيض الولادة. فكل ما يولد يموت. وكل ما ينمو ينحل. وكل مركب يتفكك. أما الحياة التي لم تولد فلا يمكن أن تنحل. وهي ليست مركّبة فلا يمكن أن تتفكك. الحياة هي العنصر العجيب الذي لا نستطيع فهْمه بالحسّ لأنه غير محسوس والذي يملأ الفضاء في

حين أننا نظن الفضاء فراغاً وكأنّ لا شيء فيه إلاّ هذه الحفنة من الكواكب التي تبدو وكأنها تملأ الفضاء. أما في الواقع فهي لا تشغل منه إلا حيّزاً ضئيلاً جداً برغم كثرتها وأبعادها الهائلة.

كل ما نراه في الفضاء هو من صنع الحياة ومن بحرها الذي لا نعرف له حدوداً، لكنه في تغيّر مستمر فهو أبداً يتفتت وأبداً يتجدد. أما الحياة ذاتها التي تملأ الفضاء فلا تتفتت ولا تتجدد.

فإذا أنت نظرت إلى الموت هذه النظرة بدا لك وكأنّه تغيّر في ما هو محسوس منك. أما الحياة ذاتها التي تُحيي ذلك المحسوس وتحركه فهي لا تموت بموته ولا تتفكك بتفككه. ولأن هذه الحياة تتخذ في الإنسان شكل وَعي وشكل ذات فلا الوعي يموت ولا الذات تموت وإن تفكك الجسد المحسوس الذي يعيش فيه ذلك الوعي وتعيش فيه تلك الذات فترة من الزمن على الأرض.

السلام:

السلام هو أمنيتي وأمنية كل إنسان. ولكنه لا يمكن أن يعمّ الأرض حتى يصبح الناس كلهم في درجة واحدة من الوعي والمعرفة. فالإنسان الذي يعي ذاته ويفهم ذاته يعرف أنه لا يمكن أن يكون عدوّ أي إنسان أو مخلوق في الأرض. ولذلك فهو لا يحارب غيره. وإن هو حارب فيحارب أعداء في نفسه وألدّ هؤلاء الأعداء هو الجهل. ولا أعني جهل القراءة والكتابة والعلوم الحديثة بل جهل الإنسان لقيمته وللغاية من وجوده.

النرڤانا:

النرڤانا كما أفهمها هي كلمة ابتدعها بوذا ليعبر بها عن الحالة التي يبلغها الإنسان يوم يتخلص من جميع المتناقضات فتذوب ذاته في الذات الشاملة حيث لا قبل ولا بعد ولا هنا ولا هناك بل كينونة تتعدى الوصف ولا يستطيع أن يُعبّر عنها أي لسان. إنها كينونة تتلاشى فيها جميع الشهوات إذ لا يبقى ما هو أسمى منها أو أشهى لتصبو النفس إليه.

الحرب:

هذا العالم الذي نعيش فيه عالم مشوش أفظع التشويش. فلو أنك قلت فيه إنه يشبه بيت المجانين لما كان في قولك شيء من المبالغة. لقد اتفق لي من زمان أن شبهت الناس بزمرة من الأولاد يسبحون في بركة أرضها من تراب، ومن الطبيعي أن يعكروا الماء حتى يصبحن أقرب إلى الوحل منه إلى الماء. ثم تسمعهم يصيحون ويتأففون لأن الماء الذي يسبحون فيه ماء عكر وكأنهم لا يدرون أنهم هم الذين يعكرون الماء وان الوحل يأتيهم من قاع البركة التي فيها يسبحون. ولو كانت لهم الحكمة لفكروا قبل كل شيء برصف القاع بمواد تعزل عنه التراب والوحل عزلاً تاماً. وبكلمة أخرى فالأسس التي تقوم عليها حياتنا اليوم هي أسس لا يمكن أن يثبت عليها بناء هذه الحياة أو أن يصفو جوه من العكر. وإذا أنت سألتني عن الأسس التي أتمنى للحياة البشرية أن تقوم عليها أجبتك أنها في الدرجة الأولى وعي الإنسان لفضل أخيه الإنسان عليه، بل لفضل كل الكائنات. إذ إن حياته ترتبط أوثق الارتباط ليس بالإنسان وحده بل بكل منظور وغير منظور في الكون. إذ لولا الناس ولولا الكائنات لما كان لأي منا أن يكون ما هو أو أن يحقق أقل أمنية من أمانيه. لذلك كانت المحبة ضرورة كما هو الماء والهواء. وهي إن لم تكن في أساس علاقاتنا بعضنا ببعض وبالكون الأكبر فعالمنا مُحتّم عليه أن يبقى عالماً يسبح في الأوحال التي أفظعها الحرب.

الغربة:

في جملة المقالات الكثيرة التي كتبتها في حياتي مقال بعنوان «الغربة العظمى» وقد بيّنت فيه أن الشعور بالغربة سيبقى يلازم الإنسان حتى في بيته وبين أهله ما دام غريباً عن نفسه، أما متى اهتدى إلى نفسه وعرف خباياها وأشواقها إلى الانعتاق من كل قيد وحدّ فعندئذ فقط يهتدي إلى الشعور بالطمأنينة. إذ لا يبقى بعد ذلك أيّ شيء أو أي إنسان غريباً عنه. فالذي يعرف نفسه حق المعرفة يعرف أن ما من عجيبة في الكون إلا تنطوي فيه وليس عليه أن

يخرج من نفسه ليفهم الكون بل عليه أن يدخل إليها ويتفقد كل ما فيها من عجائب.

التصوّف:

المتصوف هو الرجل الذي يحاول أن ينفّذ لا ببصره بل ببصيرته من ظواهر الأمور إلى بواطنها. فلكل شيء ظاهر وباطن. والحياة التي تسيّرنا تتغلّف بأغلفة كثيرة. والذي يبحث عنها في هذه الأغلفة كالذي يأكل قشرة الجوزة فيفوته لبّها. وينسى الذين يعيشون في عالم المحسوس أنهم يعيشون في الواقع بما لا يُحَسّ أكثر مما يعيشون بما يقع تحت السمع والبصر وباقي الحواس الخارجية. ففي الجسم البشري وحده أسرار تتحدى العقل وتتحدى حتى الخيال. ولكننا ألفناها إلى حد أنها باتت وكأنّها أمور عادية جداً. فالنفَس الذي في صدورنا والذي لولاه لما استطعنا الإتيان بأي حركة هو وحده سر من أعظم الأسرار. وهكذا قل في سائر الأجهزة التي يتركب منها الجسم البشري. ولو أننا كلّنا كنا في مستوى واحد من التفكير لأصبحنا جميعاً متصوفين.

اليوغا:

هنالك أصناف وأصناف من اليوغا. فواحدة تهتم بسلامة الجسد وثانية تهتم بسلامة الروح وثالثة تحاول الجمع بين الاثنتين ولكنها كلها تسعى إلى بلوغ أهدافها بتمارين معقدة ينبغي على الطالب أن يمارسها في كل يوم إذا هو شاء أن يبلغ نتيجة. إلا أنني أؤثر من هذه الأصناف ما هو معروف في الهند باسم «راجا يوغا». فهذا النوع من اليوغا يصرف همه إلى إيقاظ القوى الروحية الهاجعة في الإنسان كيما يدرك أن هدفه النهائي هو التخلص من ناسوته للوصول إلى لاهوته.

الوضع اللبناني:

لو خُيرت في الأمر لآثرت أن يعيش البشر على الأرض في شكل دولة واحدة تدعى (دولة الإنسان) بدلاً من أن يعيشوا في دويلات يضعون لها الحدود

ثم يقتتلون على تلك الحدود، فإذا بها كالظل تنتقل من هنا إلى هناك ولا تستقر على حال. أمّا أن ذلك الحلم لا يزال بعيداً عن متناول الناس كما نعرفهم اليوم، وأمّا أننا لا نزال مكرهين أن ننتمي إلى بقعة من بقاع الأرض وأن ندعوها وطناً وأن يكون لها شكلها الخاص وحكومتها الخاصة فإني أربأ بلبنان الصغير أن يصبح سلعة تتناتشها شتى الأيدي أو يخسر طابعه الخاص. إني أحب هذه الجبال والبحر الذي يغسل أقدامها محبة لا أستطيع وصفها وكم كنت أودّ أن يحبها جميع سكانها محبتي لها، أو أن يعرف الذين يطمعون في تغيير وجهها أنهم، إذا صح لهم ذلك، فسيكونون هم الخاسرين أكثر من أهل الجبال الأصليين. فلبنان هو خزان هائل من المواهب وملجأ رائع لكل مضطهد، ونجعة فاتنة لكل من يطلب العافية والراحة والجمال. فحريّ بإخوانه أن يحرصوا على بقائه وعلى سلامته وعلى طمأنينته أكثر من حرص بنيه.

سنة السبعين:

لنا في كل يوم مفاجآت. فلا عجب أن تأتينا هذه السنة بأحداث لم نشهد مثلها في السنوات السابقات. إلاّ أنني لا أظن أنها تحمل إلينا ذلك الفرج الذي نرجوه، بل على العكس. فهي ستأتينا على الأغلب بمشكلات أعقد من التي نعاني منها اليوم. ولكنها، على كل حال، لن تأتينا بمفاجأة تغيّر وجه العالم. فأنا وإن كنت أعتقد بحتمية الحرب العالمية الثالثة لست أظن أن وقوعها بات وشيكاً، فقد تتأخر حتى نهاية هذا القرن أو قبل ذلك بقليل.

مهرجان جبران:

أعلم بأن القائمين بهذا المهرجان قد جعلوا مدته أسبوعاً يمتد من الثالث والعشرين حتى الثلاثين من أيار، وقد حضّروا له برنامجاً حافلاً بالمحاضرات والزيارات. وقد جعلوني ضيف الشرف فيه وكلّفوني أن ألقي كلمة الافتتاح. وأغلب الظن أنها ستكون بالانكليزية. ثم خصصوا لي أمسية في الخامس والعشرين من الشهر ذاته تقام في قاعة الأونيسكو.

لو عرف الإنسان قيمة الكلمة لجعلها موضوع عبادة له. ولكن الناس قد استهتروا بالكلمة إلى حد أن ابتذلوها وسخروها لمآرب خسيسة كان عليهم أن ينزهوها عنها. إلاّ أنهم من حيث يدرون ولا يدرون قد جعلوا من الكلمة أعظم فنان يصورهم أصدق التصوير. فبالكلمة ينحدر الإنسان إلى ما دون مستوى الحيوان، وبالكلمة يرتفع الإنسان إلى عرش الله. ولعمري فهذه أصدق صورة عن الإنسان كما نعرفه اليوم.

الفرح:

هناك فرح الطفل بدُمْية، وفرح الجائع بالرغيف، وفرح الغريب يعود إلى أحضان أهله وإلى أرض وطنه، وفرح الصوفي يحظى بإشراقة كالتي حظي بها الحلاّج عندما قال: «ليس في الجبّة إلا الله». لذلك فالتحدث عن الفرح لا يمكن أن يقف عند حد. إلا أنه مهما تنوعت مصادره يبقى شعوراً لطيفاً جداً تستأنس به النفس وتتمنى لو أنه لا يزول. لعلّ الأديان التي تحدثك عن النعيم إنما تحدثك عن فرح لا تجلبه المحسوسات ولذلك فهو فرح مستمر وغبطة لا نهاية لها.

الحركات التغييرية في العالم:

هنالك الذين ينشدون الاستقرار ولكنهم لا يدرون أنهم يطاردون سراباً في صحراء. لأن من طبيعة الأشياء أن لا تستقر على حال. ولأنّ الإنسان يعيش في جسد له حاجاته، ثم لأن الناس يملكون أفكاراً وإرادات ونزعات لا تستقر على حال، لذلك فقد بات من المحتم عليهم أن لا يهدأ لهم بال ما داموا يشكون أشياء ويتمنون أشياء. ولأننا حتى اليوم لا نستطيع أن نعيش بدون حكم، ثم لأننا غير كاملين فمن المستحيل أن نهتدي إلى الحكم الكامل. لذلك يترتب علينا أن نتوقع تيارات جديدة كلما أضنكتنا التيارات القديمة، وسنبقى كذلك إلى أن يصبح في إمكان كل منا أن يحكم نفسه بنفسه، عندئذ لا يضنيه حكم غيره. فسقراط دخل السجن ولكن الذين دخلوه في الواقع هم الذين سجنوه لا هو.

وسقراط شرب السم ولكن الذين شربوه هم الذين أكرهوه على شربه. أما هو فقد كان في عالم يحكمه هو بنفسه ولا يأبه بالذين يحسبون أنفسهم أسياده وحكّامه.

القوى المتصارعة في العالم:

ما دامت الدول تنمو كما ينمو الأفراد فلا بدّ لها من بلوغ فترة في حياتها يتسرب فيها الانحلال إلى جسدها ويقضي عليها في النهاية كما قضى على دول كثيرة في سالف الأزمان. والعجيب أن يكون في الناس من ينظر اليوم إلى كبير فيحسب أنه سيبقى كبيراً إلى الأبد وينسى أن ذلك الكبير سيصغر وأن الصغير الذي بجانبه سيكبر. ولكم كنت أتمنّى لو أن كبار العالم اليوم يسايرون صغاره على قدم المساواة عارفين أن الصغار قد يصبحون كباراً يوماً ما، فما أجمل أن تسلّف الدول بعضها البعض صداقات بدل العداوات. إذن لما كان في الأرض كبير وصغير بل كانت هناك عائلة بشرية واحدة للطفل فيها من الكرامة مثل ما فيها للشيخ.

المذاهب الحديثة في الفن والأدب:

في نظري أن المذاهب الحديثة سواء في الأدب أو في الفن لا تُعبّر إلاّ عن حالة طارئة يعيشها الإنسان المعاصر الذي بهرته وكادت تقتلعه من جذوره هذه المدنية العلمية وما أنجزته من عجائب تكنولوجية. فنحن اليوم نتحدث عن سرعة في الحركة تفوق سرعة الصوت، ولا يخطر في بالنا قط أن تلك السرعة قد لا تكون بركة على قدر ما هي لعنة، إذ إنها تصرف الإنسان عن مشكلات في داخله إلى مشكلات في خارجه لا تدنيه قيد شعرة من المعرفة التي يصبو إليها والحرية التي يتغنّى بها. في حين أن الفنون القديمة التي بقيت لنا حتى اليوم والتي نحتفظ بها والتي نحرص عليها حرصنا على كنوز نادرة كانت أبعد جذوراً في حياة الإنسان وأعمق أثراً. وما ذلك إلّا لأنها هزّت أعمق مشاعره وكشفت أبعد أشواقه إلى الجمال والحق والحرية. وما أظن أن نصيب الفنون الحديثة

سيكون من حيث البقاء كنصيب الفنون القديمة.

عصر الفضاء:

ليس يدهشني أن يطأ الإنسان القمر؛ ففي استطاعته أن يفعل أكثر من ذلك بكثير. إذ لا حدود لمواهبه. إلاّ أنني لست من الذين تبهرهم تلك المنجزات. فهي في اعتقادي لا تمس من الإنسان أكثر من رغوته. فما نفعي من أن يكون لي موطىء قدم على القمر وأنا لم أتعلم بعد كيف أعيش على الأرض؟ أو ما نفعي من أن أبلغ الزهرة أو المريخ وأنا لا أحمل إليهما غير الهموم والمشاعر والضجر والخوف التي حملتها معي من الأرض؟ دعني أولاً أعرف الأرض ثم دعني أتعلم كيف أعيش على الأرض عيشة هناؤها أكثر من شقائها ومن بعدها فاحملني إلى حيث شئت في الفضاء.

(ملحق الأنوار، بيروت - ٢ - ٥ - ١٩٧٠)

امارة الشعر حديث عجائز

ما هي القضايا المصيرية الحياتية التي تسترعي انتباهك أكثر من غيرها والتي تشغل بالك في لبنان أو العالم العربي؟

هذا العالم الذي نعيش فيه اليوم عالم لا يطيب له شيء على قدر ما يطيب له أن يتحدث عن مشكلاته. فأنت تسألني عن القضايا الحياتية. والحياة كلمة كبيرة جداً لو فهمها الناس لما استعملوها كما يستعملونها اليوم، وكأنهم لا يعنون بها أكثر من مقومات العيش وأكثر من النظم التي تساعدهم أو تقف في طريقهم إلى ذلك الهدف. في حين أن الحياة هي الأم التي لو عرفناها مرة لما بقيت عندنا أي مشكلات. فالأم تعرف حاجات طفلها خيراً من طفلها بكثير. وهي لا تعطيه إلا ما يساعده على فهمها ولا تمنع عنه إلا ما يسد عليه الطريق إلى ذلك الفهم.

ونحن إذا نظرنا إلى الحياة تلك النظرة لما تأففنا من شيء ولا تهرّبنا من شيء بل لقبلنا كل ما يأتينا من يد الحياة عارفين أنه هو الغذاء الضروري في الحالة التي نحن فيها. حتى وإن كان طعمه طعم الدواء الكريه الذي يصفه الطبيب لعليله. لذلك أقول إننا يوم نصحح سلوكنا مع الحياة لا يبقى في حياتنا أي مشكلة، بل تغدو جميع المشكلات وكأنها خطوات ضرورية في طريقنا نحو فهم الحياة والرضوخ لإرادتها الكلية التي تتناول الكون بأسره ولا تحصر همها

فيما يلذ لنا الآن أو فيما نستطيب مذاقه. فالمهم أنها تمشي خطوة خطوة إلى تلك المعرفة التي بدونها لا يمكن أن نتذوق طعم الحرية.

فنحن ما دمنا نجهل غاية الحياة منا، وما دمنا بعيدين عن بلوغ تلك الغاية، فكلامنا عن الحرية هو هذيان في هذيان، إذ كيف لك أن تكون حراً من غير أن تكون لك الإرادة التي تعرف كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سيكون؟ وما دمت تفتقر إلى تلك المعرفة فأي عمل تقوم به معرّض أن يصطدم بعقبات كثيرة كنت تجهلها، ولذلك بات محتماً عليك أن تبوء بالخيبة فيما كنت ترجوه، لأنك ترجو أشياء لا تتوافق مع إرادة الحياة الكلية. ولو كانت لك المعرفة التي أتكلم عنها لما رجوت تلك الأشياء.

لذلك يتحتم عليك ما دمت طفلاً بالنسبة إلى الحياة أن تؤمن بها وبمحبتها لك ولجميع الكائنات، وأن تستسلم لإرادتها ريثما تصبح إرادتك مماثلة لإرادتها. انطلاقاً من هذه النظرة، أعود فأقول: إن الحديث عن أي قضايا حياتية كالتي تسألني عنها هو حديث لا طائل تحته. فستبقى لنا في كل يوم قضايا جديدة تتولد من قضايا قديمة، ما دمنا نجهل معنى كلمة الحياة، وما دمنا نحصر تلك الحياة ضمن أقفاص من غايات زمنية أرضية متقلبة، في حين أن الحياة أوسع من أقفاصنا بكثير وأرحم بنا من أنفسنا الجاهلة. إن المشكلة التي تتفرع منها جميع مشكلاتنا هي مشكلة الجهل. ولا أعني جهل القراءة أو الكتابة وجهل ما أنتجه العقل البشري من علوم وفنون، بل أعني كما قلت جهلَ الحياة ذاتها وغايتها منا وغايتنا منها. وأسباب هذا الجهل كثيرة: منها ولعله أهمها أننا نعيش في عالم متناقضات. ذلك هو عالم الحس. فنحن نهرب من الظلمة إلى النور ومن المرارة إلى الحلاوة، ومن الحزن إلى الفرح... إلى آخر ما هنالك من متناقضات جاهلين أننا في كل ذلك كالذي يهرب من الدب إلى الجبّ. فالمحسوسات مقضيّ عليها أن تتغير باستمرار وأن لا تستقر على حال. وما دمنا نعيش بالمحسوسات وحدها فنحن كذلك مقضي علينا أن نتغير باستمرار، وأن لا

نستقر على حال إلا إذا نحن نَفَذْنا من المحسوسات إلى غير المحسوس، من المتغير إلى الذي لا يتغير.

والذي لا يتغير هو الحياة ذاتها ومن خطأ الناس الفادح أنهم يجعلون للحياة نقيضاً هو الموت. في حين أن الحياة وحدها هي التي لا نقيض لها على الاطلاق. ونقيض الموت هو الولادة لا الحياة. إذ إن كل ما يولد يموت. أما الحياة التي لا نعرف لها بداية أو نهاية فهي وحدها لم تولد، لذلك لا يمكن أن تموت. وهذه متى اهتدينا إليها تخلصنا من جميع الكوابيس التي تجعل وجودنا على الأرض سلسلة من المشكلات والتي تجعلنا ندور على ذواتنا في ظلمة دامسة دون أن نستطيع الخروج منها إلى نور الحياة وديمومتها وأمومتها.

تمر على الإنسان في حياته مواقف متعددة، بعضها محرج، ما هي أحرج مرحلة أو فترة واجهتها في حياتك وتركت في نقدك أثراً عميقاً لا يمحى؟

لعل أقسى مرحلة في حياتي هي التي عانيتها في شبابي، عندما أخذت أفكر بالموت وبقضية الخير والشر، فحياة آخرها موت بدت لي تافهة جداً، ولم تكن تسعفني على تقبلها التعاليم الدينية التي تلقيتها في حياتي والتي كانت تحدثني عن قيامة بعد الموت وعن ديمومة بعد تلك القيامة، أنطلق بعدها إما إلى نار أبدية أو إلى نعيم أبدي. تلك المرحلة استمرت إلى أن اهتديت إلى عقيدة التقمص التي كان منها أن خلصتني من عقدة الموت إذ جعلته مرحلة انتقال من حياة إلى حياة تكمل إحداها الأخرى وتجعل من وجودي سلسلة أعمار لا تنتهي حتى أنتهي من الازدواجية إلى الأحدية التي تتلاشى فيها المتناقضات. فلا ولادة ولا موت ولا قبل ولا بعد ولا جميل ولا قبيح بل ديمومة لا مجال فيها للصراع ولا للخوف من أي شيء. ولعل تلك الديمومة هي ما أسماها بوذا «نرڤانا» وأسماها المسيح «ملكوت السماء» وأسماها محمد «جنة الخلد». إنها حالة نفسية لا حالة مادية جسدية.

الشباب اللبناني أو الجيل الجديد، لم يعرف هويته بعد، ولم تتحدد

مفاهيمه، ما هي برأيك الأسس الواجب اتخاذها لتوجيه الشباب وطاقاته نحو بناء مجتمع فاضل؟

الشباب اللبناني كغيره من الشباب لا يعرف اتجاهه اليوم ولن يعرفه غداً ما دام يتكل على مفاهيم مغلوطة عن الحق والمعرفة والحرية.

فلا الحق يأتيك من الدساتير، ولا المعرفة تأتيك من الكتب والمدارس، ولا الحرية تعيش في النظم الاجتماعية مهما تكن سامية وجميلة على الورق. فالإنسان هو الإنسان. إنه كائن متقلب أبداً ما دام يتمسك بظواهر المحسوسات ويفوته لبابها. فمنذ كان الإنسان حتى اليوم لم تعرف الأرض أمة نظمت ذاتها تنظيماً بلغ بها السعادة التي كانت ترجوها.

لا تنسَ يا أخي أننا أطفال بالنسبة إلى الحياة التي هي أُمّنا. إذن علينا أن ننمو نمو الأطفال وأن لا نخدع أنفسنا عندما ننتقل من الصبا إلى الشباب فنتوهم أن الشباب هو النضج كل النضج والقوة كل القوة. فنحن في طفولتنا وصبانا وشبابنا وشيخوختنا سنبقى أطفالاً بالنسبة إلى الحياة إلى أن نفهمها فهماً كاملاً وإلى أن نعرف نظامها فنتقيد به ونقلع عن الأنظمة التي نختلقها نحن والتي ليست بالنسبة إلى نظام الحياة إلا كبيوت من الرمل نبنيها على الشاطىء بالنسبة إلى الجبل. وبكلمة أخرى، إننا ما دمنا نجهل أنفسنا، فكل نظام نخلقه سيكون نظاماً ناقصاً وبعيداً جداً عن الأشواق الدفينة فينا.

من الخير أن نسعى ومن الجهل أن نعتقد أن أي مسعى من مساعينا سيبلغ بنا الكمال في فترة محدودة من الزمان أو في نقطة محدودة من المكان.

يتجاذب لبنان تياران: تيار اليمين وتيار اليسار. ما رأيك؟

وهنا كذلك أقول إن الكلام عن اليمين واليسار ليس في الغالب أكثر من دمية يتلهى بها الطفل. فالحياة الأزلية الأبدية هي وحدها الحقيقة. وهي لا يسار فيها ولا يمين. وحيثما أسمع الناس يتحدثون عن اليمين واليسار أعلم أنهم يتحدثون عما يجهلون، والرجل الذي يعرف قيمة نفسه لا بد أن يعرف قيمة

غيره، والذي يعرف قيمة غيره يصبح ولا يمين عنده في معاملة الناس ولا يسار، بل تصبح عنده البشرية عائلة واحدة لأصغر عضو فيها مثلما لأكبر عضو فيها من الحق ومن الاعتبار ومن الجلال الإنساني. ولو أن الإنسان عرف عظمته كإنسان لما راح يتحدث عن مستحق وغير مستحق، عن تقدمي وغير تقدمي، بل كان همه الوحيد أن يسلك سلوكاً يليق بعظمته كإنسان.

هل تؤمن (بإمارة الشعر أو بإمارة الأدب؟) بعد أن غاب (الأخطل الصغير)، من ترشح لخلافته في إمارة الشعر في لبنان والعالم العربي؟

الحديث عن هذه الإمارات هو حديث عجائز، إنه ترهات في ترهات. فلا يمكن لأي إنسان أن يكون أمير الشعر مثلما لا يمكن لأي إنسان أن يكون أمير فن من الفنون. فالشعر هو الأمير.. هذا إذا كان شعراً في الحقيقة. ولكن سبق وقلت إن الناس ما زالوا أطفالاً بالنسبة إلى الحياة.

هل من إنتاج جديد لك؟

آخر ما صدر لي كتاب عنوانه «يا ابن آدم» في السنة الماضية. أما الآن فلست أعمل على كتاب جديد، ولكنني أشعر كما لو كانت تحوم حولي أشباح مؤلف جديد لا أستطيع الآن أن أحدد موضوعه واتجاهه.

(ملحق الأنوار- بيروت ٦ - ٩ - ١٩٧٠)

لا بد للعرب من محمد جديد

تقولون: «الدين كما نفهمه بات وكأنه مجموعة طقوس ومراسم لا عصب لها ولا حياة فيها. ولو أنها كانت تملك الحياة لما كان المتدينون في الأرض يتخبطون في مثل المشكلات التي يتخبطون فيها؟».

ثم تستطردون: «لو أن مثل هذا الدين زال من الأرض تماماً لما خسرت الأرض في نظري شيئاً، بل لعلها كانت تكسب كسباً كبيراً، وذلك بإزالة الحواجز التي يخلقها مثل هذا الدين بين الناس، فيفرّقهم ويمزّقهم وينسيهم أنهم عائلة واحدة لمعيل واحد».

ولكن كيف نلغي مثل هذا الدين؟ وما هو البديل؟.

لطقوس العبادة في أذهان الجماهير جذور يستحيل عليك استئصالها بكلمة أو بمرسوم أو بقانون.

فالجماهير بطيئة الفهم، بطيئة الحركة، ولا قدرة لها على التفكير في المطلق والمجرد وهي لذلك تتمسك بطقوس العبادة تمسك الغريق بخشبة النجاة، اعتقاداً منها أنها بذلك ترضي ربها فتنال ثوابه وتدرأ عنها عقابه.

ولا يخطر في بال الجماهير أن تتوقف لحظة لتسأل: «ما بالنا نصلي من أجل العافية أو البحبوحة والطمأنينة والسلام، وها هي الأمراض تنهشنا نهشاً،

والفقر يسحقنا سحقاً، والقلق يمزقنا تمزيقاً، والحرب تنغص عيشنا تنغيصاً، وفي النهاية يحصدنا الموت حصداً؟ ألعل ربنا لا يسمع فتذهب صلواتنا صرخات في واد؟ أم لعلنا لا نحسن الصلاة؟ أم لعله كان علينا أن نتقرب من ربنا بأكثر من صلوات نرددها في أوقات بعينها وفي أماكن بعينها؟».

أما الخاصة، فالدين عندهم أكثر من عبادة تتقيد بطقوس. إنه الشعور الدائم الهادىء، المطمئن، العميق بحضور الله فيهم وفي كل ما يحتويه الفضاء اللامتناهي من منظور وغير منظور.

ذلك الشعور وحده هو البديل عن الدين التقليدي إذا نحن عرفنا كيف نوقظه وبماذا نغذيه.

والذي أعنيه بالخاصة في هذا المجال ليس طبقة من المتعلمين والمثقفين، بل تلك القلة من الناس الذين صفت بصائرهم، وطهرت نياتهم، واستبد الشوق بأفكارهم وقلوبهم إلى الانعتاق من دنيا المتناقضات والوصول إلى حيث الحياة وحدة شاملة ومحبة يضيع في رحابها الزمان والمكان.

تلك القلة أعمالها صلوات، وأفكارها صلوات، ونياتها صلوات، ودافعها على الخير منها وفيها، وناهيها عن الشر منها وفيها. فهي في غنى عن العبادة في أماكن بعينها، وفي أوقات بعينها، وبطريقة لا تتغير من يوم ليوم ولا من جيل لجيل.

تقولون: «مثلما انبثقت النظم الدستورية من النظم الملكية وقضت عليها، ثم انبثقت الرأسمالية من الاقطاعية فقوضت أركانها. هكذا انبثقت الاشتراكية أو الشيوعية من الرأسمالية وستقضي عليها حتماً».

فهل تتوقع أن يقوم نظام آخر يقضي على الشيوعية؟

لقد أخذت الشيوعية تتفسخ وتتعدد ألوانها واتجاهاتها. فهي مهما بلغت في تزيين أهدافها ووسائلها، لا تعدو كونها نظاماً بشرياً. وكل نظام بشري لا

يمكن أن يدوم إلا إذا هو استمد عناصر ديمومته من النظام الكوني. وعندما يدرك الناس النظام الكوني فيسيرون معه لا ضده، عندئذ يصبحون غير الناس.

كيف تنظرون إلى ولادة المسيح والعجائب التي اجترحها، كما هو وارد في الإنجيل؟

ليس يضير المسيح إذا قيل عنه إنه ولد كما يولد باقي الناس. فهو لا يستمد قوته من ولادته. بل يستمدها من الشعور العميق بوحدته مع الآب: «أنا والآب واحد»، ومن تعاليمه السامية التي مثّلها خير تمثيل في حياته وفي مماته.

أما عجائب المسيح فليست سوى نتائج طبيعية لاتحاده بأبيه اتحاداً مكّنه من التسلط على المادة التي ليست سوى الكساء المنظور للروح غير المنظور. لذلك قال لتلاميذه: «الأعمال التي أعملها ستعملون مثلها وأكثر»، وهو يعني أنهم - وغيرهم - سيعملونها إذا هم بلغوا الاتحاد الذي بلغ.

ما هي برأيكم أسباب التخلف العربي؟ وكيف للعرب أن ينهضوا نهضة توازي النهضة الإسلامية في عصرها. وهل ما تزال مواد تلك النهضة صالحة لهذا العصر؟

لا بد للعرب من محمد جديد، إذا هم شاؤوا أن ينهضوا النهضة التي كانت لهم أيام النبي وبعده بقرون قليلة. أما التغني بتلك النهضة والتمسك بأسبابها، من بعد أن زالت الأسباب وتغيرت الأحوال والأزمان، فكل ذلك لن يجديهم فتيلاً.

هل تعتقدون بأن عقدة اليهود «الشعب المختار» ناتجة عن كون أم المسيح من أصل يهودي؟ وهل تعتقدون بأن اضطهاد اليهود عبر التاريخ ناتج عن صلبهم للمسيح، أم عن عقدتهم بأنهم الشعب المختار؟ أم عن عقدتهم من حيث نظرة الشعوب الحذرة إليهم؟

لعل موسى كان أول من زرع في أذهان اليهود أنهم «شعب الله المختار».

وذلك لينزع منهم الشعور بالذل والعبودية الذي لازمهم طوال القرون التي أقاموها في مصر. وتعاقب الزعماء والأنبياء من بعد موسى. فكانوا جميعهم يذكّرون اليهود بأنهم الشعب الوحيد الذي عرف الله. ولذلك بوّأه الله مكان الصدارة بين شعوب الأرض. فإلههم هو إله إبراهيم وإسحق ويعقوب وذريتهم، وليس إله المصري، والعربي، والفارسي، والهندي، والصيني، وغيرهم من شعوب الأرض. وإلههم هو الذي أباح لهم أرض فلسطين ودماء سكانها. فنكلوا بهم أفظع التنكيل، ناسين أنهم سيحصدون فيما بعد ثمار ما زرعوه. ولقد حصدوه تشتيتاً وذلاً وهواناً على مدى قرون وقرون.

ولكن تشتيتهم لم ينسهم أبداً عقدة الشعب المختار. بل زادها قوة ورسوخاً ومناعة. فكان منها أنهم راحوا يتكتلون أينما حلوا، ويمارسون من الأعمال ما يتصل اتصالاً مباشراً بالشرايين الحساسة في حياة البلاد التي يقيمون فيها من غير أن يمتزجوا بأهلها. ذلك ما سبّب لهم الكره والاضطهاد، وليس لأنهم صلبوا المسيح.

من خلال نظرتكم الشاملة، ومن خلال تاريخ اليهود، هل يمكن أن يتعايش اليهود والعرب في ظل إطار معين؟ وما رأيكم بحذر العرب من العقدة الجغرافية؟ خصوصاً وأن اليهود ينفذون حسب مرحليتهم الخريطة التي وضعها أقطابهم؟

من الممكن أن يعيش العربي إلى جانب اليهودي دون أن يتقاتلا. ومن غير الممكن أن يفتح العربي قلبه لليهودي، واليهودي قلبه للعربي إلا إذا امتزج القرآن بالتوراة والتلمود، أو امتزج التلمود والتوراة بالقرآن امتزاج الماء بالراح. وذلك بعيد وجد بعيد.

أما الحدود الجغرافية، فأمرها منوط بالزمن. لأنها، كسائر الحدود، لا تملك شيئاً من الديمومة والاستقرار.

ومن الأكيد أن العالم اليهودي لن يستطيع أن يبتلع العالم العربي. وقد

يصح العكس.

تعتبرون «الرأي العام» من الأوثان، فتقولون: «حذار من وثن السلطان، وحذار من حليف له ألّهوه باسم الرأي العام». فالسلطان يدّعي أنه لا يعمل شيئاً من عنده. بل يعمل كل أعماله امتثالاً لمشيئة الرأي العام. إلا أنه لا يغفل لحظة عن تغذية ذلك الرأي العام، وتنميته وتدريبه على هواه. فإذا نحن لم نحتكم إلى الرأي العام، فإلى ماذا نحتكم؟

قولنا «الرأي العام» قول مبهم جداً. فهو بالتأكيد لا يعني الإجماع ويعني في الغالب: الأكثرية. وإنه لمن السذاجة بمكان أن نعتقد بأن كل فرد من تلك الأكثرية قد فكر ملياً في قضية بعينها، فبلغ نتيجة بعينها. وإذا بتلك النتيجة تتفق منتهى الاتفاق مع النتيجة التي بلغها كل فرد آخر في تلك الأكثرية.

وها هي هفوات الأكثرية على مدى التاريخ تكاد لا تحصى ضد الأفراد المتفوقين، وضد الأقليات التي كان لها أبعد الأثر في حياة الإنسان على الأرض، سواء في جوانبها المادية أو الروحية. الأفراد والأقليات المتفوقة هم الذين لهم الزعامة والقيادة. أما الأكثريات فقطعان، كثيراً ما ينتابها الذعر فتجفل وتدوس رعاتها الصالحين بأقدامها. وكثيراً ما تنخدع بأصوات رعاتها الطالحين فتتبعهم راضية إلى المسلخ.

أما الحكم الأخير بين الأقلية والأكثرية، فهو ضمير التاريخ، أو ضمير الإنسانية، أو النظام الكوني. وهذه لا نفهم فتواها في اللحظة الحاضرة. وقد نفهمها بعد أجيال وأجيال.

تعتبرون القومية شعوراً قبلياً. وتعتبرونها مناقضة للتطور الذي هو دأب الحياة.

ولكن ألا تعتبرون القومية مرحلة لا بد منها للوصول إلى الإنسانية؟

أجل. القومية مرحلة لا بد من اجتيازها قبل الوصول إلى العائلة الإنسانية

الكبرى. وخطرها ليس في ذاتها، بل في ذهنية الذين يمجدونها ويستميتون في الدفاع عنها وفي إضفاء الديمومة والقداسة عليها.

تقولون: «بأن العلم لا يقيم وزناً للحدس والحلم والوحي. في حين أن، لهذه كلها، أثراً بعيداً في تطور العلم الحديث».

ولكن ألا تعتقدون بأن العلم هو نوع من الإيمان الفعلي. فقد تحمّل العلم تضحيات بالأرواح، حتى أثبت صحة نظرياته. ولولا فعل إيمان العلم بحدس وتصورات الكتّاب، لما صدق جول فرن في تصوراته، ولما وصل في تحقيق هذه التصورات إلى القمر؟

ما دام الحدس والحلم والوحي في طبيعة الإنسان، فمن الصعب جداً أن نتخيل عملاً إنسانياً لا يكون فيه لهذه القوى نصيب، ولو ضئيل. فالإنسان وحدة لا تتجزأ. لكن العلم كما نعرفه، لا يقر حقيقة علمية، إلا بالبرهان الحسي. لذلك تبقى خارجة عن نطاقه جميع الحقائق التي نتناولها بطريقة لا تخضع للبرهان بواسطة المختبرات والمعادلات. وقد تكون هذه الحقائق أبعد أثراً في حياة الناس، وأوثق صلة بالحقيقة الأزلية الأبدية من جميع «الحقائق» العلمية.

ألا تعتقدون أن للتنازعات الأيديولوجية، أثراً في توليد ظاهرة الرفض. فالعالم أصبح محموماً بالصراع العقائدي القائم؟

ما في ذلك شك. ولكن «فلسفة» الرفض ستنتهي بأن ترفض ذاتها.

كيف تتصورون الغد الأفضل في جو هذه الحميات العاصفة، وهذه المخاضات؟

إذ لكل فيلسوف حلم. أفلاطون حلم بالجمهورية، والفارابي بالمدينة الفاضلة، وأوغوسطينوس بمدينة الله... وأنتم؟

لن يكون لنا العالم الكامل، حتى نصبح جميعاً كاملين. وذلك لن يتم بسحر ساحر، ولا بقدرة قادر. إذ لا بد في اعتقادي، لكل إنسان أن يقطع طريق

الخير والشر بجهده الخاص، حتى إذا بلغ نهايته تنازل بملء إرادته عن إرادته، وتنازل عن أنانيته. فباتت الإرادة الكونية إرادته. وباتت الـ «أنا» الشاملة أناه.

ولأن الناس ليسوا كلهم في نقطة واحدة من ذلك الطريق، سيبقى هناك من هم في المقدمة، ومن هم في المؤخرة. ولا مجال للقنوط. فالزمان أطول من أن تفنيه عقارب الساعات، والحياة أحنّ على أبنائها منهم على أنفسهم.

نتيجة النتائج التي وصل إليها صاحب أشهر كتاب في الفكر الديني: «الملل والنحل» عبد الكريم الشهرستاني، وهو معروف ببحثه العميق في الفكر الديني المقارن، نتيجة النتائج أوجزها ببيتين:

وطوفت هاتيك المعالم كلها ... وساءلت أهل العلم في كل عالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

فهل ترونه محقاً في حيرته، أم أنكم تتصورون نهاية أخرى؟

أظنني أجبت عن هذا السؤال في جوابي عن السؤال الذي سبقه.

عندما سئل ستالين عن تطور اللغة الروسية، أجاب: بأن اللغة هي تعبير عن المجتمع. هي الأبجدية الحضارية للمجتمع. بمقدار تقدمه يكون تقدمها.

فهل يصدق هذا على اللغة العربية؟

في مجال ضيق جداً. فلا صرف اللغة العربية، ولا نحوها، ولا قواميسها، ولا مفاهيمها البيانية، تغير فيها شيء يستحق الذكر منذ قرون وقرون. وذلك لا يعني أن اللغة التي يتكلم بها العرب في شتى ديارهم لم تتطور. فهذه قد تطوّرت بنسبة تطوّر الأقطار التي تتكلّمها.

(مجلة القضايا المعاصرة ـ فصلية، بيروت، حزيران ١٩٧١)

مهمة الأديب

يدعو بعض الأدباء إلى اعتماد العامية كأداة للتعبير بدلاً من الفصحى. فما رأيكم بهذه المحاولة؟

محاسن الفصحى أكثر من مساوئها. ومساوىء العامية أكثر من محاسنها. أما اللغة التي بغير مساوىء فلم تعرفها الأرض بعد، وحيويّة الأمّة هي التي تقرّر للّغة كيف تكون. ويقيني أن في الشعوب التي تتكلم العربية حيويّة ستساعدها في المستقبل على نبذ الكثير من مساوىء فصحاها وعاميّتها.

ما هي مهمّة الأديب في هذه الظروف العصيبة التي تجتاح العالم أجمع؟

أن يبقى أميناً لرسالته. فيجمع حيث غيره يفرّق، ويبني حيث غيره يهدم، وينير سبل الحياة للماشين في الظلمات.

يظهر في كتاباتكم أنكم تؤمنون بالتقمّص. فهل لكم أن تحدثونا عن هذه العقيدة، مبلورين ما غمض من نقاطها؟

ليس من يعرف بالتحديد أين ومتى نشأت عقيدة التقمّص. والمعروف أنها قديمة جداً، وأنها في صميم الديانة الهندوسية، وليست بالغريبة عن البوذية. وكان لها أنصارها بين الفلاسفة اليونان، وعلى الأخص أفلاطون وفيثاغوراس.

أمّا خلاصة العقيدة فهي أن حياة الإنسان لا تبتدىء ساعة يولد ولا تنتهي

ساعة يموت. بل هي سلسلة طويلة من الأعمار يكمّل لاحقُها سابقها. وما الولادة والموت غير محطّات فيها.

من حسنات هذه العقيدة أنها تجعل كل إنسان مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من أعمال وأفكار ونيّات وشهوات. فخلاصُه في يده. وكما يزرع يحصد. وإذ ذاك فالتفاوت في حظوظ الناس من أيّما نوع كان مردّه إلى ماضي كل إنسان لا إلى أحكام اعتباطية تصدر عمّا ندعوه قضاءً وقدراً. فما القضاء والقدر غير بضاعتنا رُدّت إلينا. وإذ ذاك فالعلائق البشرية ما بين أمومة وأبوّة وبنوّة وأخوّة وصداقة وعداوة وما إليها تبدو نتيجة حتميّة لعلائق سابقة نجدّدها في أعمار متتالية، ولا نُفلت من نطاقها إلّا من بعد أن نرقى بها إلى المحبة الصافية.

وهكذا فالقصد من الولادة كرّة بعد كرّة هو فسح المجال لكل إنسان كي يخلص بالخبرة الشخصية إلى معرفة نفسه معرفة كاملة. حتى إذا عرف نفسه عرف الله الذي هو نفسه الكبرى واتّحد به فأصبح في غنى عن الولادة والموت.

ما رأيكم ببرنامج البكالوريا؟ وإلى مَ تعزون النتائج التي تطلع بها وزارة المعارف؟

إنه لجريمة نكراء ترتكبها الدولة ضدّ فتيانها وفتياتها. فأكثره حشو يرهق ذهن الطالب وجسده وروحه، ويستنفد أموال والديه، ويتركه وكأن بينه وبين الحياة من حواليه هوّة سحيقة. وكأنْ بينه وبين نفسه جفاءً موجعاً، وغربةً لا يؤنسها همسٌ من المعرفة والطمأنينة.

ما رأيك بهذا التطوّر الذي طرأ على الحضارة الشرقية وبمجاراتنا للغرب في جميع تصرّفاتنا الاجتماعية؟

سنهتدي، بعد أجيال إلى تراثنا الشرقيّ الحقيقي. وسنخلق حضارة شرقية جديدة. أمّا الآن فلا بدّ لنا من مجاراة الحضارة الغربية. فموجتها قوّية وجارفة إلى حدّ أنّها تكاد لا تعانَد.

(استفتاء النادي الأدبي ـ القسم الإفرنسي بالجامعة الأميركية في بيروت)

فهرس

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
THE BOOK OF MIRDAD
KAHLIL GIBRAN
MEMOIRS OF A VAGRANT SOUL
TILL WE MEET AND TWELVE OTHER STORIES

"أحاديث مع الصحافة" أحاديث ولقاءات تعكس الوجه الآخر المستور من أدب ميخائيل نعيمه الرائع

وأنّ ما يجمع هذه الأحاديث إلى أعماله كثير وواضح، إلاّ أنّ ما يميّز "أحاديث مع الصحافة" صراحة الرأي وعفوية السبك والخاطر، صدق القول، تلقائيّة المضمون واللغة المباشرة، ولعله في ذلك يقدم أكثر من شهادة، قد يجد القارئ، والدارس والباحث والمؤرخ فيها، جوانب كثيرة من حياة ميخائيل نعيمه وتفكيره قد لا يجدها في بقية مؤلفاته الاخرى.

ويبقى "أحاديث مع الصحافة" في النهاية جزءاً حيوياً من تراث نعيمه الأدبي والفكري والفلسفي، تتبدى فيه وفي ذروة العمر والعطاء، تجربة إنسانية غنية وفريدة وهي ميزة ميخائيل نعيمه على الدوام.

على قرّاء العربيّة أن يستزيدوا من كنوز العبقري الذي يمنح ثمّاره للناس ويرافقوه في دروب الحياة والفكر والأدب.

To: www.al-mostafa.com